# كريستوفر كولمبوس

## المُكتَشِفُ العَظِيم


تأليف : صاموئيل اليوت موريسون

ترجمة : فوزي قبلاوي

مراجعة : أحمد زكي العرابي




# كريستوفر كولمبوس

## المُكتَشِفُ العَظِيم

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من اصحاب هذا الحق

This is an authorized translation of
CHRISTOPHER COLUMBUS, MARINER by
Samuel Eliot Morison . Copyright 1942 , 1955 by
Samuel Eliot Morison . Published by Little ,
Brown and Company, Boston, Massachusetts

# المسهمون في هذا الكتاب

**المؤلف – صاموئيل اليوت موريسون :**

ضابط بحري متقاعد في الجيش الأميركي ، وهو مؤرخ مشهور لشؤون الملاحة ، وثقة فيما يختص بكولمبوس ورحلاته .

درس في جامعة هارفرد ، وحصل على شهادة الدكتوراه منهـا سنة ١٩١٢ . وعنده شهادات أخرى من جامعة اكسفورد وكلية امهرست وجامعة ييل ، ومن جامعات أخرى في أميركة ، وقد درّس التاريخ في هارفرد منذ سنة ١٩١٥ .

وفي الحرب العالمية الثانية عين مؤرخاً للاسطول الأميركي ، ونشر مجلدات عدة من تاريخه هذا بعد الحرب .

وفي سنتي ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ ، قاد رحلة بحرية بالمراكب الشراعية لتتبع الطريق التي سار فيها كولمبوس من اسبانية الى اميركة . كان من نتيجتها هذا الكتاب الذي نال أعظم جائزة في كتابة السيرة .

**المترجم – فوزي قبلاوي :**

تخرج من الجامعة الاميركية في القاهرة سنة ١٩٤٩ . وشغل عدة مناصب تدريسية

وادارية في سورية ولبنان . وقد انشأ المؤسسة الشرقية للترجمة في بيروت سنة ١٩٥٨ .

**المراجع ــ أحمد زكي العرابي :**

مدير الكلية العربية في بيروت ترجم عدداً من الكتب من أهمهـــا قصة « ذهب مع الريح » .

# الفصل الاول

## كريستوفر يذهب الى البحر

كان كريستوفر كولمبوس ، مكتشف العالم الجديد ، اولاً وآخراً بحارا . ولد وترعرع في مدينة جنوى ، التي تعد من أعرق المجتمعات الملاحية في اوروبا. وقد قام في شبابه ، بعدة رحلات في البحر الأبيض المتوسط حيث نشأ أعظم بحارة التاريخ القديم . وفي الرابعة والعشرين من عمره ألقى به حظه السعيد في مدينة لشبونه ، مركز المشاريع البحرية الاوروبية آنذاك . وهناك ، وبينما كان يعمل في جمعية لرسم الخرائط حيناً ، والقيام برحلات طويلة في ظل العلم البرتغالي حيناً آخر ، تصور المشروع العظيم الذي ما كان ليستطيع تخطيطه الا ملاح والذي لم يكن ليقدر على تنفيذه سوى بحار ماهر . وكان هذا المشروع يهدف بكل بساطة ، للوصول الى « جزر الهند » — شرقي آسيا — بالابحار غربا . ومع انه قضى عشر سنوات في السعي للحصول على من يدعم فكرته هذه ... الا انه لم ينفذها ابداً . فقد كانت تقف في طريقه قارة شاسعة .

وقد اكتشف كولمبوس اميركا بمحض الصدفة ولذلك سميت باسم شخص آخر لم تكن له بها أدنى صلة . وها نحن نكرم كولمبوس لقيامه بعمل لم يقصد القيام به أبدا ، بل انه مات ولم يدر بما عمل . ومع هذا فنحن على حق في

تكريمه ، اذ لم يك ثمة بحار غيره ، يملك الصبر والمعرفة والشجاعة للابحار آلاف الاميال في خضم المحيط المجهول إلى أن يجد اليابسة .

وكان هذا العمل أعظم وأهم اكتشاف جغرافي بعيد الأثر سجله تاريخ الانسانية . هذا فضلاً عن ان كولمبوس ، بالاضافة الى ضخامة العمل الذي حققه ، كان شخصية مثيرة تبعث على الاعجاب .

ولد كولمبوس على مفترق طريق عصرين – عصر القرون الوسطى وعصر النهضة – فكان يعكس صفات كلا العصرين . كان يملك الايمان الديني الراسخ ، وقوة الاستنتاج والاتصال الوثيق بالمجهول ، تلك الصفة التي امتازت بها القرون الاولى للمسيحية ... وكذلك كان يتصف بحب الاستطلاع العلمي والحماسة للحياة وتحسس الجمال ... والاندفاع وراء ما هو جديد ، ذلك الاندفاع الذي نقرنه بتقدم العلم والمعرفة .. كما كان من أعظم رجال البحر في كل الأزمان .

وتبدأ القصة في مدينة جنوى بوالدي المكتشف العظيم ، دومنيكو كولومبو ، الذي كان يعمل في حياكة الصوف كما كان أبوه من قبل ، وزوجته سوزانا التي كانت ابنة حائك أيضاً .

كان دومنيكو ينتمي الى الطبقة الوسطى في جنوى ، وكان عضواً في جمعية حائكي الصوف التي تشبه النقابة الآن .. وكان يملك أنواله ويستخدم عمالاً مياومين ليساعدوه في انتاج الثياب الصوفية . وبما أنه كان محبوباً في مجتمعه أنتخب مسؤولاً عن بعض المهام الصغيرة في الجمعية . ومع هذا فقد كانت زوجته وأفراد عائلته يرونه معيلا مقلاً الى حد ما . لقد كان من ذلك النوع من الآباء الذين يحبهم الاطفال ، والذي كان يمكن أن يغلق حانوته في أحد الايام الجميلة ويصطحبهم الى صيد السمك ... وهكذا كانت حسناته تمحو سيئاته ؛ وهكذا سمى كريستوفر أقدم مدينة في العالم الجديد بسانتودومنيكو ، على اسم القديس المفضل لدى والده .

وفي يوم لا يحدده التاريخ بالضبط ، ما بين شهر آب وشهر تشرين الأول من

عـام ١٤٥١ وضعت سوزانا كولومبو طفلاً ذكراً سمي كريستوفر . ولا نعرف لماذا اختار له والداه هذا الاسم . ولكنهما بهذا العمل شحذا ميول الطفـل الطبيعية ، فقد كان القديس كريستوفر رجلاً وثنياً طويل القامة ، قوي البنية ، يتحرق شوقاً لمعرفة المسيح ، ولكنه على ما يظهر لم يستطع أن يفعـل شيئاً لتحقيق تلك الرغبة . كان يعيش على ضفة نهر في آسيا الصغرى على مقربة من مخاضة خطرة ، وهناك كان يساعد بحـكم قوته وضخامة جسمه الكثير من المسافرين على عبور هذه المخاضة .

وذات يوم ، وبينما كان مستغرقاً في النوم في كوخه ، سمع صوت طفـل يناديه : « كريستوفر تعال واحملني عبر النهر » فخرج وبيده عصاه وأخذ الطفل على كتفه ، وبينما كان يخوض به النهر الى الضفة المقابلة ، ازداد وزن الطفـل بشكل جعله يتجه بكل اهتمامه ليمنع نفسه من التعثر والسقوط ... وأخـيراً وصل الضفة الأخرى بسلام ... وقال :

« حسناً ! والآن يا بني ، لقد عرضتني لخطر عظيم فقد ازداد وزنك كثيراً بحيث انني لو حملت العالم كله على ظهري لما وجدته أثقل منك » .

فأجاب الطفل قائلاً : « لا تعجب فقد حملت فعلاً على ظهرك العـالم كله والذي خلقه ، فأنا هو الطفل يسوع ، الذي خدمته بفعلك الخير لبني البشر ... اذهب واغرس هذه العصا قرب كوخك وغداً ستعطيك زهراً وثمراً برهاناً على انني حقـاً الآهك ومخلصك » . وفعل كريستوفر ما أمر به ... وفعلاً تحولت عصاه في الصباح التالي الى شجرة نخيل وارفة . ومن ذلك الحين اصبح القديس كريستوفر حامي كافة المسافرين في البحر والبر والجو .

وهكذا رأى كريستوفر كولومبوس في اسمه اشارة الى ان من المقدر له ان يحمل المسيح عبر البحـار الى الذين لم يعرفوه . وفي الحقيقة ان أقدم خارطة معروفة للعالم الجديد ، والموضوعة عام ١٥٠٠ بعيد الميلاد ، والمهداة الى كولمبوس من جون دي لا كوزا وكيل سفينته مزينة بصورة نصفيـة للقديس كريستوفر حاملاً الطفل يسوع على كتفيه .

كانت عائلة كولمبوس عائلة محترمة ولكنها مرحة وبسيطة الى حد ما ، وكان دومنيكو دائم الترحال ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من سافونا ، الواقعة على بعد أميال قليلة من جنوى . ودائماً ما كان يتعاطى أعمالاً جديدة بالاضافة الى الحياكة ويخسر نقوده بسببها .

رزق دومنيكو ، بعد كريستوفر ، ولده الاكبر — بين أولئك الذين عاشوا عهد الطفولة على الأقل — صبياً آخر توفي صغيراً ، وابنة تزوجت من جار لهم كان يتاجر بالجبن ، وهو « بارثولميو » الذي أصبح فيما بعد شريكاً للمكتشف العظيم وزميلاً بحرياً وادارياً على السفينة . ثم جايكومو الذي كان يصغر كريستوفر بسبعة عشر عاماً والذي رافقه ايضاً الى العالم الجديد والذي يعرف دائماً باسم « ديجو » ، الاسم الاسباني المقابل لأسمه الأول ، وكان لانطونيو شقيق دومنيكو ، عائلة كبيرة ايضاً . وقد قاد أحد أبنائه ويدعى جيانتو ( جوني ) إحدى سفن الرحلة الثالثة . وقد كان شعور التضامن العائلي قوياً بين أهل جنوى كما كان الحال لدى الكورسيكيين ( الذين كانوا آنذاك يتبعون الجمهورية ذاتها ) . وتماماً كما اوجد نابليون بونابرت العروش والألقاب لأفراد عائلته كذلك شعر كولمبوس ان عليه الاعتماد على اخوته وأنسبائه لكونه غريباً في اسبانيا .

ويمكننا سرد القليل الذي نعرفه عن حياة المكتشف في طفولته وشبابه الباكر بأقصر وقت ، نظراً لضآلته : تلقى مقداراً قليلاً جداً من الدراسة الرسمية وكان يتكلم بلهجة اهالي جنوى التي كادت تكون غير مفهومة لدى باقي الايطاليين . ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا عندما ذهب الى البرتغال . وبما ان جميع الذين وصفوه في آخر حياته قالوا بأنه كان ذا وجه طويل وأنف معقوف ، مورد الوجه أحمر الشعر ، فبوسعنا اذن ان نتصوره وهو فتى ، بوجهه الكلف وشعره الاحمر وعينيه الزرقاوين .

كما يستطيع المرء ان يتصوره طفلاً صغيراً حالماً كثير التدين بالنسبة الى سنه . ولا بد انه كان يكره العمل على المنول في مخزن أبيه نظراً لأنه كان ينتهز كل فرصة للذهاب الى البحر .

كان ذلك المجتمع البحري يزخر بفرص العمل .. فقد كان معظم النقل على طول الساحل الليغوري[1] يتم بواسطة البحر .. وكان النـاس الذين لا عمل لهم يمارسون مهنة الصيد كما كان يمارسهـا الكثيرون ممن يتعاطون أعمالاً اخرى .. وكانت السفن الكبيرة والصنادل الضخمة تُبنى في الميناء .. وكانت أحواض الزوارق تشاهد منتشرة في الخلجان على طول الساحل، بينما كانت سفن الجمهورية تتاجر مع كافة أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط وتصل الى اوروبا الشمالية .

وقد قال كولمبوس في آخر حياته ان أول مرة نزل فيها الى البحر كانت عام ١٤٦١ عندما كان في العاشرة من عمره . والمرجح ان رحلاته البحرية في ذلك السن لم تكن ذات أهمية . وربما كان أبوه يسمح له بالإبحار مع أحد جيرانه الى بورتوفينو لتحميل السمك المجفف ، أو حتى الى كورسيكا . هذه السفرات التي كان يمكن أن تبدو كرحلات خارجية بالنسبة لولد صغير .

أي بحار يستطيع ان ينسى طوافه الأول ؟ فان كل حادثـة ، وكل تقلب ريح وكل سفينة وكل شخص تلتقي به تبقى صورته مطبوعة في مخيلتك لسنين طويلة . وهل هناك أدعى للاعتزاز والسرور من تسلم الدفة ريثما ينزل القبطان الى العنبر أو عندما يغفو المساعد في الجانب المشمس من ظهر السفينة .؟

وهل هناك أروع من ان تشاهد خمسة جبال[2] ترتفع فوق الأفق ثم تراقبها وهي تشمخ بقممها وتنتشر متداخلة بعضها مع البعض الاخر لتصبح جبـلاً واحداً هائلاً كلما اقتربت منها ! ومن ثم تنزل الى الشاطىء لتقايض مديتك باول شيء غريب تقع عليـه عيناك .. ولتشاهد الجزيرة وهي تختفي رويداً رويداً تحت الافق وانت تبتعد عنها في طريق العودة للوطن .. حيث تسير مختالا على الشاطىء وكأنك بحار حقيقي قديم ! حقاً انها لأمور لن ينساها بحار أبداً .

والواقع اننا لا نعرف بالضبط متى قرر كريستوفر ان يترك صناعة النسيج

(١) نسبة الى ليغوريا ، وهي الجزء من الساحل الايطالي حيث تقع مدينة جنوى .

(٢) جبال جزيرة كورسيكا .

ليجعل البحر مهنته ، فالحقائق عن حياته المبكرة قليلة . وعلى المرء أن يجمع الحوادث التي كان يذكرها هو أو بعض رفاقه بعد ان أصبح كولمبوس مشهوراً، أو تلك المسجلة في مكاتب العدل بسبب بعض القضايا .

ومن المرجح ان كولمبوس قام بعدة رحلات طويلة في البحر الأبيض المتوسط في غضون السنوات الثماني من عمره ، بين الخامسة عشرة والثالثة والعشرين ، ولكنه كان يقضي معظم اوقاته على البرّ يساعد والده . وعندما كان في التاسعة عشرة من عمره التحق بخدمة سفينة جنوية كان قد استأجرها « رينه الثاني ملك انجو » وجعلها جزءاً من اسطوله الحربي ليستخدمها في اشتباك قصير مع اسطول أراغون » . كما قام كريستوفر برحلة واحدة على الأقل الى تشايوس ، إحدى جزر الاغريق ، وذلك في سفينة كان يملكها تجار من جنوى احتكروا التجارة مع تلك الجزيرة .

وفي أيار من عام ١٤٧٦ أي عندما أصبح في الخامسة والعشرين من عمره ، أتت المغامرة التي غيرت مجرى حياة كريستوفر ، فقد جهزت جنوى قافلة بحرية مسلحة لنقل شحنة ثمينة الى شمال أوروبا ، وفي هذه القافلة سافر كريستوفر بحاراً في سفينة فلمنكية تدعى « بتشالا » .

وفي ١٣ آب وبعد أن عبر الاسطول مضيق جبل طارق وأصبح بعيداً عن الشاطىء البرتغالي الجنوبي هاجمته قوة فرنسية كانت تقوم باعمال الحراسة . وظلت المعركة محتدمة طوال النهار ، وعندما حل الليل كان حصاد المعركة ان غرقت ثلاث سفن جنوية وأربع من سفن الاعداء . وكانت « بتشالا » من بين السفن التي أصيبت في المعركة . ومع ان كريستوفر جرح فانه استطاع ان يتمسك بمجذاف عائم ظل يوالي دفعه الى الامام ويستريح عليه الى أن بلغ الشاطىء الذي كان يبعد ستة أميال عن مكان المعركة . وهناك قابله سكان مدينة لاغوس القريبة بلطف وحنان . وعندما علموا ان أخاه الاصغر «بارثولميو» يسكن في لشبونه أرسلوه الى هناك حالما أصبح قادراً على السفر . وكان هذا أحد الأحداث العظيمة التي كان يمكن ان تقع لكريستوفر كولمبوس .

# الفصل الثاني

## الابحار الى البرتغال

كانت البرتغال آنئذ أعظم البلدان نشاطاً في أوروبا وأكثرها ازدهاراً ، كما كانت لشبونه مركزاً للارتياد والاكتشاف . وقبل نصف قرن تقريباً كان الشاب « دوم هنري » الامير البرتغالي المشهور بهنري الملاح قد اقام مكتب استعلامات يضم قسمي الهيدروغرافي – وصف سطح المياه – والتنبؤات البحرية في رأس سانت فنسنت ، الذي جذب البحارة الطموحين من جميع أنحاء البحر المتوسط. وقدم المساعدات المالية للقيام برحلات في مجاهل الاطلسي وعلى طول شاطىء افريقيا الغربي . واكتشف ربابنته جزر الأزور السبع الواقعة في ثلث الطريق المؤدية الى اميركا ، ولم يستعمر البرتغاليون جزر الازور فحسب بل جزر الماديرا التي اكتشفت سابقاً وجزر رأس فيردى البعيدة عن افريقيا .

وغدت القارة المظلمة مركز اهتمام الامير هنري الخاص. ففي كل بضع سنوات كان قباطنته يصلون الى نقطة أبعد جنوباً على طول الساحل الغربي – وعندما وصل كولمبوس الى لشبونه كان قباطنة الأمير هنري قد عبروا خليج غينيا .

وكانت أساطيل السفن ذات الأشرعة المثلثة ، وهي سفن صغيرة سريعة

بنيت خصيصاً لنقل التجارة الافريقية ، تنطلق من ميناء لشبونه في كل ربيع حاملة معها الأقمشة الحمراء والخرز الزجاجي وأجراس الصقور والخيل ، وتعود مع الخريف مشحونة بالبضائع الثمينة ، كالعاج والتبر والبهارات والعبيد السود.

ولما كانت لشبونه مدينة تواجه المحيط ، لم يكن الانطلاق من احواضها الى خضم الاوقيانوس الأزرق صعباً او يستغرق طويل وقت .

وفي الوقت الذي كانت تجارة شرقي حوض البحر المتوسط تنتقل من يد جنوى الى أيدي اهالي البندقية والأتراك ، كانت لشبونه تتقدم مرتادة طرقاً جديدة للتجارة حول الدائرة العظيمة الممتدة من جزيرة ايسلندا مروراً بجزر الازور حتى الشاطىء الذهبي ، وهكذا تقاطر الى لشبونه التجار الطموحين ورجال البحر من كافة البلدان ، بما في ذلك أهالي جنوى لينالوا نصيبهم من الثروة . وقد أعان التاج البرتغالي عامداً جميع الرحلات بقصد اكتشاف جزر جديدة وإيجاد طريق بحرية الى الهند حول افريقيا .

وعلاوة على ذلك كانت مدينة لشبونه مدينة علم ، فكان يتسنى لقادم جديد مثل كولمبوس ان يتعلم اللاتينية وبعض اللغات الحديثة وان يحصل على الكتب التي تزيد معلوماته عن العالم . أما بارثولميو ، الذي كان قد اندمج في الجالية الجنوية هناك ، فقد كان يعمل في إحدى المؤسسات لتصميم الخرائط حيث تمكن من الحصول على عمل لكريستوفر .

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح لدى الأخوين كولمبوس مؤسسة خاصة ناشئة لتصميم الخرائط وطبعها ، مما جعلهما على اتصال وثيق بكبار ربابنة البحار وامثالهم من الشخصيات ، فقد كانت الخرائط والرسوم آنذاك توضع اعتماداً على المعلومات ومسودات الرسوم التي يعود بها البحارة من رحلاتهم .

وكان الاخوان يحاولان دائماً ان يكونا في استقبال السفن العائدة من أفريقيا أو الجزر الغربية ليدعوا ربابنتها او مرشديها لتناول الطعام او الشراب معهما فيستخلصان منهم كل ما يستطيعان من المعلومات المفيدة لتصحيح خرائط البلاد

المعروفة او توسيعها لتشمل بلداناً جديدة على الساحل الافريقي . وقد حدث في احد هذه المؤتمرات ان قبطاناً أشيب الرأس تطلع الى خارطة العالم المعروف ، وقال ملاحظاً :

« لقد سئمت الابحار على شاطيء غينيا الموبوء بالحمّى والمساومة مع الرؤساء المحليين على شحنة من العبيد ، لم لا نبحر غرباً عبر جزر الازور حتى نصل الى الشرق الذهبي فنصيب الهدف الحقيقي ? »

ولمَ لا حقاً ? لقد كان الناس يتحدثون عن ذلك منذ ايام الامبراطورية الرومانية ولكن أحداً لم يحاول ذلك على ما تعي ذاكرة الانسان .

لقد كان مشهوراً عن الاقيانوس بأنه عريض جداً لا ضابط للرياح فيه ، ولم يكن باستطاعة السفن ان تحمل شحنات كافية من المؤن تكفي لاطعام بحارتها لعدة أشهر بالاضافة الى ان البحارة انفسهم كانوا يشعرون بالرهبة أمام ذلك الخضم المظلم من المياه المتلاطمة ، المحيط الاطلسي الشمالي ، فيترددون في الاشتراك في مغامرة كهذه . وكان كل رجل متعلم يعترف ولو نظرياً بامكانية الوصول الى الشرق بالإبحار غرباً ، ولا سيما وأنه كان يعرف ان الأرض كروية ، ولكن احداً لم يفعل شيئاً لاختبار صحة تلك النظرية . وعندما وصل كولمبوس الى لشبونة في عام ١٤٧٦ ، كان اقتراح الابحار غرباً للوصول الى الشرق قد وصل الى المرحلة التي وصلت اليها فكرة الطيران عام ١٩٠٠ — أي انها ممكنة نظرياً ولكنها محفوفة بالمخاطر الحقيقية بالاضافة الى ان العادة والتقاليد وانتشار الخرافات كانت تقف ضدها : إذ كانوا يقولون عام ١٤٧٦ « على الانسان ان لا يغضب القدرة الالهية بسعيه الى سبر غور الأعماق المجهولة في المحيط » . أو « خُلِقَ الانسان ليكون على الأرض لا في السماء » ... ولكن ما ان حلت سنة ١٤٩٠ حتى أقر معظم العقلاء بان السفر غرباً الى الصين ممكن وطالب القليلون بالقيام بها ولكن أحداً لم يهتم بالشروع في التنفيذ ... الى ان بدأ ذلك الشاب الجنوي كريستوفر كولمبوس يضايق الناس بطلباته لتمويل مشروعه !

والحقيقة اننا لا نعلم متى وكيف طرأت هذه الفكرة على رأسه ، فربما

اوعز اليه – كما نفترض – ربان سفينة ضاق ذرعاً بفشل ومخاطر التجـارة مع غينيا . أو ربما خطرت بباله في دفق شعوره الديني أثناء حضوره القداس لدى سماعه المزمور التـاسع عشر يقول : « السموات تحدّث بمجد الله » . ذلك ان مواطناً من جنوى أشار بان كريستوفر حقق النبوءة الواردة في الآية الرابعـة التي تقول : « في كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم » . أو ربما قرأ نبوءة سنيكا في « ميديا » [1] القائلة : « سيأتي زمن تنهـار فيه القيود المضروبة حول الاقيانوس ويزاح الستار عن قارة واسعة عندمـا ينجح بحار في اكتشاف عوالم جديدة،وحينئذ لن تبقى ثولا[2] خط النهاية أبداً » . ولقد حقق كولمبوس بالفعل تلك النبوءة ايضاً ، كما سجل ابنه فرديناند على نسخته في كتاب سنيكا آنذاك ... ولسنا نعرف كيف توصل كولمبوس الى فكرة الابحـار غرباً للوصول الى الشرق ! وجل مـا نعرفه ان الفكرة أصبحت حقيقة واقعة لديه حالما التقطهـا ، فقـد كان كولمبوس رجلاً من النوع الذي يعتبر العمل متمماً للاحلام . لقد عرف الحقيقة ولكنه لم يهدأ الى ان اثبتها واصبحت الكلمة حقيقة حية !

ولنعترف بان اقتران خياله الخلاق بالثقة الراسخة،ونفاذ صبره من المتقاعسين واحتقاره لمعارضيه جعله أحمق في عيون البعض ، وملحاحاً ثقيل الظل في عيون الكثيرين . وكرواد الطيران ، اعتبر ممسوساً في عقله ، كانسان يود التحليق في وجه الله – والاسوأ من ذلك كله انه كان عليه ان يقنع الرجال الأغبياء الذين كانوا يحتلون المراكز الرفيعة بان مشروعه للوصول الى جزر الهند، كما كان يسميه ، مغرياً جداً ومعقولاً ، لأنه كان يحتاج الى المال والعتاد والرجال !

وكان على كولمبوس ان يحوز خبرة في الملاحة أوسع من خبرتـه في ادارة الشراع الامامي ورسم الخرائط لكي يأمل باقناع الناس بمغامرته . وقد اكتسب هذه الخبرة في ظل العلم البرتغالي . ففي خريف السنه التي وصل فيها الى لشبونه ،

---

(١) – اسطورة يونانية .

(٢) – في علم الجغرافية القديم ، كانت هذه اللفظة تطلق على القسم الشمالي الغربي من اوروبا .

أبحر على سفينة برتغالية كانت تقوم بالتجارة في «معبر الاطلسي» حيث ازدهرت تجارة مقايضة الصوف والسمك المجفف والخمور بين ايسلندا ، وايرلندا ، وجزر الازور ، ولشبونه . واثناء ذلك زارت سفينته مدينة غالوي حيث رأى – كما ذكر في سنوات تالية – زورقاً ينجرف مع التيار وعليه شخصان ميتان ، لهما مظهر غريب مما جعل الايرلنديين يقولون بانهما لا بد أن يكونا من الصين . وربما كانا فنلنديين غادرا سفينة غارقة . اما قبطان السفينة التي ابحر عليها كولمبوس فقد انطلق في شباط عام ١٤٧٧ في رحلة استكشافية مسافة مئة فرسخ شمالي ايسلندا وذلك قبل عودته الى البرتغال ، وهكذا اتيح لكولمبوس ان يفاخر بانه ابحر الى حافة دائرة القطب الشمالي !

وفي السنة التالية وقد اصبح كولمبوس في السابعة والعشرين من عمره استخدمته الشركة الجنوية التي ابحر معها سابقاً الى تشيوس ، لكي يشتري لها كمية من السكر من جزر المادير ويعود بها الى جنوى . ولكنها اغفلت تسليمه المال اللازم لشرائها ، فرفض تجار فونشال[1] تسليم الشحنة على الحساب ، فعاد كولمبوس الى جنوى بدون السكر . فاقامت عليه الشركة دعوى أمام القضاء ، وقدم كريستوفر افادته في جنوى في صيف عام ١٤٧٩ . وربما كانت تلك الزيارة آخر زيارة قام بها لوطنه الاصلي . ولكن « تلك المدينة النبيلة القوية الرابضة قرب البحر » كما قال عنها في وصيته ، ظلت قريبة الى قلبه ، وكم تمنى لو يستطيع ان يحتفظ الى الأبد ببيت خاص من املاكه لذريته هناك . ولم يصبح كولمبوس مواطناً في أي بلد آخر ، بل عين بنك القديس جورج في جنوى ، منفذاً لوصيته .

ولدى عودة كريستوفر الى لشبونه قادماً من جنوى تزوج الدونا فيليبا بريستريلو امونيز سليلة احدى عائلات البرتغال الأولى ، وابنة بارثولميو بريستريلو الحاكم الوراثي لبورتوسانتو في جزر المادير ، وحفيدة جيل فونيز الفارس الذي كان مرافقاً للأمير هنري ، وعاش الزوجان الشابان فترة من الزمن في

(١) عاصمة جزر ماديرا .

لشبونه مع والدة الدونا فيلبـــا ، التي أفشت سر لوائح قيد السفن والخرائط العائدة لزوجها الراحل وذلك لمنفعة صهرها . وفيما بعد انتقل الزوجان الى بورتوسانتو حيث كان شقيق الدونا فيلبـــا هو حاكم المدينة ، وهناك وضعت الدونا ابنهما الوحيد « ديجو » الذي عرف فيما بعد بالدون ديجو كولون ،الاميرال المساعد ونائب الملك في جزر الهند . وحوالي عام ١٤٨٢ انتقلوا الى فونشال في جزر المادیرا وفيما كانوا هناك قام كولمبوس برحلة او ربما رحلتين الى سان جورج داميـنـــا ، المركز التجاري الحصين الذي انشأه التاج البرتغالي على الشاطىء الذهبي . وفي احدى هاتين الرحلتين انيطت القيادة به .

ولدينا أيضاً ما يثبت ان كولمبوس كان يعرف جزر الازور معرفة تامــة . وربما لم يكن من الصحيح انه رأى على الطرف الشمالي من كورفو صخرة طبيعية على شكل تمثال فارس مشيراً الى الغرب ، ذلك ان تركيب الصخور هناك غريب لدرجة لا تتطلب كثيراً من الخيال لتصور مثل تلك المناظر . فقـــد اكتشفنا بانفسنا عام ١٩٣٩ ، شكل تمثال لمحارب مسلح مقنع الوجه مكتف الذراعين يتطلع صوب نيوفولاند وتمنينا ان لا يحسبه البعض أدولف هتلر !

اصبح كريستوفر كولمبوس الان في الواحدة او الثانية والثلاثين من عمره ، واعتبر انه قد بلغ سن الرجولة والنضوج بموجب المقاييس المعروفة في ايامه . وكان آنذاك ربانا بحريا في خدمة الاسطول التجاري البرتغالي ، اعظم واشجع اسطول بحري تجاري في العالم آنذاك كما كان قــد أبحر من اعالي دائرة القطب الشمالي حتى خـط الاستواء تقريباً ومن جزر الاغريق الشرقية الى أقاصي جزر الازور . وتعلم جميع اصول الملاحــة العملية التي يمكن ان تكتسب من ممارسة العمـل في السفن ابتداء من « فتح الحبال » وقد سار صعداً حتى بلغ غرفـــة القبطان . وكان باستطاعته ان يضع الخرائط ويرسم خطوط العرض من النجمة الشماليـــة . والى جانب ذلك كان قارئاً مشغوفاً لجميع كتب الجغرافيـــا وعلم الكون وتركيبه وقد ارتبط بواسطة زواجه مع عائلتين عظيمتي الشأن في البرتغال . وكان له ارتباطات تجارية مـع بنك تجاري رئيسي في جنوى .

وما كان على كولمبوس الا ان يستمر في خطته ويثابر على عمله في التجـــارة الافريقية نظراً لمـــا فيها من الفرص الكثيرة السانحة حتى يدخر بعض المال ويعتزل العمل بعد سنوات قليلة وقد اصبح ثريا . او ربمـــا اعطاه الملك بعض السفن الملكية لارتياد الشاطىء الافريقي ، كما كان يفعل ديجو كاو ما بين عامي ١٤٨٢ – ١٤٨٣ ؛ او كاو الذي نال لقب الفروسية والشرف في عام ١٤٨٤ اثر وصوله الى نقاط جديدة على طول الشاطىء الافريقي .

لكن كريستوفر كان ينطوي على افكار أخرى وطموح اوسع . وكان عقله يعتمل بفكرة الابحـــار غربا الى الشرق ، ليكتسب ثراء فوق ما يحـــلم به الجشعون ويسجل عظمة تتجاوزما اكتسبه أي بحار سابق .

# الفصل الثالث

## مولد مشروع عظيم

كان مجرد ذكر اسم جزر الهند – التي كانت تعني معظم شرقي آسيا أي – الهند ، وبورما ، والصين ، واليابان ، وملقة ، وأندونيسيا – يفعل فعل السحر في خيال الاوروبيين في القرن الخامس عشر . فقد كانت تلك البلاد غنية جداً بالذهب والفضة والاحجار الكريمة ، بالحرير والقطن الممتاز ،بالبهارات والعقاقير والعطور التي كانت تنقل بكميات قليلة على ظهور قوافل الجمال عبر آسيا الى القسطنطينية أو الى موانىء الشرق الادنى حيث يجري توزيعها في أنحاء اوروبا بواسطة السفن وعربات النقل وقوافل الدواب . فكانت تكاليف النقل بسبب تعدد الوسطاء بالاضافة الى المسافة البعيدة الطويلة والطرق المعقدة تجعل اسعار البضائع الشرقية باهظة بالنسبة الى المستهلك الاوروبي . ومع ذلك فان ازدياد الثروة والترف في مدن اوروبا جعل الطلب على هذه البضائع اكثر من المعروض منها بكثير ، وهذا هو السبب الذي حدا بملوك البرتغال ان يكرروا محاولاتهم للسفر الى الهند حول افريقيا ، ليتمكنوا من شراء المنتوجات الشرقية باسعار زهيدة . وقد جزم كولمبوس بان الطريق الافريقية هي الطريق العسيرة الى الهند ، فراح يسعى لايجاد طريق اسهل ولكنها تتطلب الاقدام والشجاعة ، وذلك بالابحار غرباً في عرض المحيط .

وكانت هناك أسباب اخرى للبحث عن اتصال جديد وسهـــل مع الشرق الأقصى ، وقد وجدت هذه الاسباب وقعاً حسنـــاً في نفس كولمبوس المتدين ونفوس الكثيرين من رجال الكنيسة الذين كانوا يحتلون الكثـــير من المناصب العليا في حكومات اوروبا . أولئك الذين كانت المسألة في نظرهم مرتبطة بخيبة الأمل الشديدة، التي تولدت بعد إخفاق الحملات الصليبية ، واضطرار المسيحيين للنزوح عن الاراضي المقدسة ، وترك الضريح المقدس في القدس ومكان ولادة المسيح تحت سيطرة الاتراك ! وكان هنـــاك اعتقاد بأن دولة مسيحيـــة قوية خاضعة لحكم ملك معروف باسم الكاهن يوحنا ، تقوم في مكان مـــا من الشرق . وربما كان أساس هذه الاسطورة وجود مملكة الحبشة التي كان يحكمها أجداد الامبراطور هيلا سيلاسي في ذلك الحين . ولو ان اتصالا جرى وتحالفاً تم بين اوروبا والكاهن يوحنا ، الذي كان يقال انه يملك ثروة كبـــيرة وجيشاً قوياً ، اذن لاستطاعت الجيوش المسيحية ان تسترجع الأراضي المقدسة وتطرد فلول الاتراك الى داخل آسيا الوسطى !

كانت معلومات الاوروبيين عن الصين في ذلك الحين سطحيـــة ومغلوطة . فقد ظن الملوك الاسبان ، كما تبين من كتاب التعريف الذي زودوا به كولمبوس بان سلالة كوبلا خان المنغولية ما تزال تحكم امبراطورية السماء . بينما الواقع ان سلالة « مينغ » كانت قد ازاحتها عن الحكم وحلت محلها منذ عام ١٣٦٨ . كانت معظم المعلومات الصحيحة والمغلوطة التي تعرفها اوروبا عن الصين مقتبسة عن كتـــاب الرحالة البندقي البحري ماركو بولو الذي قضى ثلاث سنوات في الصين قبل نهاية القرن الرابع عشر وقـــد وزع من كتاب « مذكرات ماركو بولو وتجاربه » عدد لا يستهان به من النسخ المخطوطة ، كما كان من اوائـــل الكتب التي طبعت .

لم يؤكد ماركو بولو في كتابه الاشاعات المتناقـلة عن الغنى الفاحش الذي كان ينعم به اباطرة الصين فحسب ، بل كتب ايضاً معلومات فياضة ومنمقة عن جزيرة ذات نظام ملكي ترتع في غنى أوسع وتدعى « سيبانجو » أي ( اليابان )

ذاكراً انها تقع على بعد ١٥٠٠ ميل من البر الصيني ، ويجب ان لا يغيب عن بالنا بان أحداً في اوروبا لم يكن عنده أي فكرة أو شك ، في ذلك الحين عن وجود القارة المعروفة باسم أميركا . فقد كانت الرحلات التي قام بها رجال الشمال في القرن الحادي عشر الى قسم من الشاطيء الشرقي والذي يعرف الآن باسم كندا أو الى شواطيء نيو انجلند التي سموها فينلاند ، مجهولة لدى أهالي اوروبا الجنوبية أو انها دفنت في زوايا النسيان . حتى ولو افترضنا بان كولمبوس كان قد سمع عن هذه البلدان أثناء رحلته الى ايسلندا فانه لم يهتم بها اذ لم يكن يسعى وراء العشب البري وأشجار الصنوبر وسمك القد ، بل كان يسعى وراء الذهب والبهارات .

وكان الجميع يعتبرون المحيط بحراً واحداً لايتجزأ[1] يتدفق حول اوروبا وآسيا وافريقيا ، التي تكون معاً جزيرة كبيرة كما كانت آنذاك في قلب محيط عارم . وكانت الأسئلة الكبيرة المطروحة أمام كولمبوس وأمام مختلف الملوك وكبار المسؤولين الذين أنيط بهم ان يقرروا فيما اذا كان عليهم ان يؤازروه أم لا ، هي :

كم يبعد الشرق الأقصى غرباً وما عدد الأميال التي تفصل اسبانيا عن الصين أو اليابان ؟ وما هي المدة التي ستستغرقها الرحلة ؟ وأخيراً ، هل يمكن القيام بمثل هذه الرحلة أي هل هي عملية ؟ ونكرر القول هنا ، بان الجميع كانوا يقرون بان الارض كروية . وبأن اليونان كانوا قد توصلوا الى اتفاق حول تقسيم الدائرة أو الكرة الى ٣٦٠ درجة . ولكن كم يبلغ طول الدرجة ؟ ان تقديرك لحجم الأرض يتوقف على الاجابة على هذا السؤال .

لقد ذكر بطليموس الاسكندراني في كتابه الذي كان يعتبر انجيل علم الجغرافيا في ايام كولمبوس بان طول الدرجة يبلغ حوالي خمسين ميلاً بحرياً — ( القياس الحقيقي ستون ) . بينما قال الفرغاني ، العالم الجغرافي المسلم في القرن التاسع بان الدرجة تساوي حوالي ستة وستين ميلا بحرياً ، ولكن كولمبوس

(١) اي قبل شق قناة السويس ١٨٨٦ م .

أخطأ في قراءة الرقم.وقرر بان القياس الذي أورده الفرغاني كان خمسة واربعين ميلا وبانه أي الفرغـــاني كان على صواب وبطليموس على خطأ . وهكذا قدر كولمبوس حجم الأرض بخمسة وعشرين بالمئة أقل من حجمها الحقيقي .

وبالاضافة الى الخطأ الذي ارتكبه كولمبوس بتقدير حجم الكرة الأرضية ، ارتكب خطأ افدح بتقدير مدى امتداد آسيا شرقـــاً . ذلك لأن طول أوروبا وآسيا معاً يبلغ تقريبــاً حوالي ١٣٠ درجة من رأس سانت فينسنت الى بكينغ أو ١٥٠ درجة الى طوكيو . وقد خمن بطليموس هـــذا الامتداد بمقدار ١٨٠ درجة أي نصف محيط الكرة الارضية . أما مارينوس الصوري العـالم السابق لهؤلاء والذي كان كولمبوس يفضله تلقائياً ، فقد وسع امتداد هذه الأراضي الى ٢٢٥ درجـة . وقدر ماركوبولو الذي قضى حوالي سنتين أو ثلاث سنوات في عبور آسيـا بطريق البر ، هذه المسافة باضافة ٢٨ درجة الى الصين و ٣٠ درجة الى اليابان . فأذا أضيفت هذه الزيادة الى الـ ٢٢٥ درجة التي قدرهـا مارينوس يصبح مركز طوكيو واقعاً على خط الزوال الشمسي الذي يمر بكوبا الغربيـــة وشاتانوغا وغراند رابيدز وانتاريو الغربية ! ومع ذلك فان كولمبوس عندمـــا اقترح الانطلاق منجزر الكناري الغربيةالتي تقع على خط مواز يبعد ٩ درجات الى الغرب من رأس سانت فينسنت ، قدر بان عليه ان يقطع ٦٨ درجة غربــاً قبل ان يصل الى الشاطىء الياباني . وعلى ضوء حساباته المغلوطة هذه وتقليله من طول الدرجة تصور كولمبوس بان رحلة المحيط من جزر الكناري الى اليابان لن تتجـــاوز ٢٤٠٠ ميل بحري مع العلم بان هذه المسافة تبلغ بطريق الجو ١٠٦٠٠ ميل !

وعلى كل حال ، لم يصل كولمبوس الى هذه النتيجة بنفسه ، بل آزره طبيب عالم من فلورنسا يدعى باولو توسكانللي كان مولعاً بعلم الفلك والرياضيات . وقد صدق توسكانللي التقدير الذي قدمه ماركوبولو عن طول آسيـــا ، فكتب الى صديق لهفي البرتغال عام ١٤٧٤ يحثه على اقناع الملك بتجهيز حملة تبحر غربا الى اليابان ، أعظم مورد خصب للذهب ، والى مقاطعة مانجي في الصين ، مصوراً

له ان المسافة تبلغ ٣ الاف ميل من لشبونه الى ( هانساور ) مرفقاً خارطة مع كتابه ، لتوضيح نظريته . وتأثر كولمبوس أشد التأثر عندما سمع عن ذلك. فكتب الى العالم الفلورنسي يطلب منه المزيد من الايضاحات الاضافية ، فأرسل له هذا رسالة مشجعة وخارطة اخرى ، وهي التي حملها كولمبوس معه في رحلته الاستكشافية الكبرى . وقد حصلت هذه المراسلات بعد عودة كولمبوس من رحلته الى الشاطىء الذهبي بقليل في عام ١٤٨١ او في اوائل عام ١٤٨٢ . وكان كتاب توسكانللي والخارطة المرفقة له بالنسبة لكولمبوس بمثابة المستندات الأساسية التي اعتمد عليها .

وبالطبع كان لدى كولمبوس مستندات اخرى ، بعضها علمي والبعض الآخر عملي ، ثم الكثير من الآيات التورانية بالاضافة الى المزمور التاسع عشر : « الآن ترتعد الجزائر يوم سقوطك ، وتضطرب الجزائر التي في البحر لزوالك » . ( حزقيال ٢٦ : ١٨ ) « ويملك من البحر الى البحر ، ومن النهر الى أقاصي الأرض . » ( زكريا ٩ : ١٠ مكررة في المزمور ٧٢ ) و « نظرت الجزائر فخافت . أطراف الارض ارتعدت . اقتربت وجاءت . » ( أشعيا ٤١ : ٥ ) ويقال ان ارسطوطاليس كتب مرة يقول بأن بوسع الانسان ان يعبر المحيط من اسبانيا الى جزر الهند في غضون أيام قليله ، كما كتب سترابون ، العالم الجغرافي اليوناني الذي عاش في ايام المسيح ان البحارة الذين عاصروه قاموا فعلاً بمحاولة لعبور المحيط ، « لكنهم عادوا لافتقارهم الى الثبات والعزم ولندورة المؤن » ويؤكد كتاب « صورة العالم » للكاتب بيير دايلي والذي ظل كتاب كولمبوس المفضل لعدة سنوات ، ان المحيط « ليس عريضاً جداً بين مراكش ( المغرب ) وشاطىء آسيا الشرقي وان من الممكن عبور هذه المسافة في بضعة ايام اذا اعتدلت الريح » ، وما تزال نسخة كولمبوس الخاصة من هذا الكتاب محفوظة في أشبيلية وهي تعج بالملاحظات المكتوبة بخط يده .

وهكذا بدأ كولمبوس مشروعه وهو مقتنع تمام الاقتناع بصحة نظريته ، فأزاح من رأسه جميع الشكوك والاوهام ووضع جانباً جميع المصاعب وطفق،

يجمع كل عبارة او استشهاد يساعده على دعم نظريته . ومثالاً على ذلك ، كان يستشهد بعبارة « لقد جففت ستة أقسام » الواردة في الكتاب الثاني الابوقريفي لأسدراس ، ليثبت بان ستة أسباع الكرة الارضية يابسة بينما يغطي المحيط سبع سطح الارض فقط ، وعليه فلا يمكن ان يكون عريضاً !

أما من الناحية العملية فقد لاحظ كولمبوس في تنقلاته واسفاره جذوع اشجار غريبة وبعض حبوب العلف التي يرجح انها كانت تزرع في اميركا ، قد القى بها اليم على شاطيء جزر الازور ، وكذلك شاهد في غالوي جثثاً مفلطحة الوجوه ، التي لو كانت جثث صينيين لما طفت سابحة على وجه المياه عدة آلاف من الاميال دون ان تتعفن وتتآكل ! هذا بالاضافة الى تقارير كثيرة مشابهة وصلت عن الجزر الواقعة غربي جزر الازور والكناري .

بيد أن كولمبوس لم يفترض بأن عليه عبور الأطلسي بقفزة واحدة ، ولم يكن هناك أي سبب للاعتقاد بأن جزيرتي فلورزا وكورفو كانتا آخر الجزر الموصلة الى جزر الهند . كما كان الاعتقاد الشائع بين الناس ان الرحلات الخرافية التي نسبت الى القديس برندان الراهب الايرلندي البحار في القرن السادس ، كانت رحلات حقيقية ، وكذلك كان للبرتغاليين خرافتهم الخاصة عن جزيرة الأنتيل ، التي قيل ان بعض اللاجئين من الحروب المغربية التي نشبت في القرن الثامن كانوا قد استعمروها . وادعى بحار قديم في لشبونه بأنه كان هناك في تلك الجزيرة وطرد منها . وحتى توسكانللي أيضاً ذكر بأن « الانتيل » جزيرة ملائمة للزيارة . وكما سنرى ، قام كولمبوس فعلا بالبحث عنها أثناء رحلته الأولى .

شرع كولمبوس في عام ١٤٨٤ بمحاولته الاولى لاثارة اهتمام الأمير جون الثاني ملك البرتغال وابن أخت هنري الملاح الذي كان شديد الاهتمام بالاكتشافات الجديدة .

وحسب ما ذكره المؤرخون المعاصرون ورواة الأخبار البرتغاليون ، كان غرض مشروع كولمبوس آنذاك هو ذاته الذي أعلنه فيما بعد — محاولة الوصول الى اليابان بالابحار غربا واكتشاف جزر جديدة اخرى في الطريق ،

ويقول هؤلاء المؤرخين أن « الملك عندما رأى في كولمبوس محدثاً ثرثاراً ومدعياً محباً للمباهاة ... وممتلئاً بالتخيلات والاحلام عن جزيرة سيبانجو ... لم يثق به الا قليلا .. » ومع ذلك فقد عهد الملك بهذا المشروع الى لجنة مشتركة مؤلفة من احد رجال الكنيسة البارزين وطبيبين يهوديين مشهورين بعلوم الملاحة الفلكية ، ولكن اللجنة رفضت المشروع رفضاً قاطعاً . أما اسباب الرفض فلم يذكر عنها شيء في السجلات ولكن بوسعنا التخمين بأنهم رفضوا الاشتراك بالمشروع لأن فكرتهم عن المسافة المنوي قطعها كانت اقرب الى الواقع مما كان يخمن كولمبوس .

والمرجح ان كولمبوس طلب كثيراً من ملوك البرتغال الذين تعودوا ان تقدم اليهم الاكتشافات البحرية مجانا وبدون مقابل . وهناك عدة اثباتات خطية تؤكد ان ملوك البرتغال منحوا جزراً كجزيرة الأزور مثلاً او احدى الجزر الواقعة غربيها ، لمن تمكن من اكتشافها من قباطنتهم . وفي سنة ١٤٨٥ ، ذات السنة التي رفضت فيها اللجنة الملكية مشروع كولمبوس أصدر الملك إذنا لملاحين بورتغاليين « دولما » و « ستيريتو » بالسفر والسعي لاكتشاف جزر الأنتيل وذلك على حسابها الخاص ، ووعد بتعيينهما هناك حاكمين شرعيين يورثان حكمها لأبنائهما بالاضافة الى ما كان سيضفيه عليهما من ألقاب وتكريم . فوافقا على الابحار غربا لمدة اربعين يوماً على ان يعودا بعد ذلك ، اذا لم يجدا شيئاً .

اما أسباب اخفاق هذه المحاولة وجميع المحاولات البرتغالية التي سبقت كولمبوس ، والتي كانت تهدف لاكتشاف جزر تقع غربي الازور فواضحة وهي : اولاً لم تكن هناك انتيليا أو اية جزيرة اخرى أقرب من نيوفاوندلاند ، ثانياً : كان على من يبحر غربي جزر الازور ، كما فعل معظم هؤلاء الرجال البرتغاليين ، ان يواجه الرياح الغربية عبر بحار عالية . اما كولمبوس فقد لاحظ في رحلاته الافريقية الرياح الموسمية الشرقية الوئيدة التي كانت تهب بين خط الاستواء وخط الطول الذي تقع عليه جزر الكناري ، ولذلك فانه اختار جزر الكناري كنقطة انطلاق لرحلته وهذا هو السبب البسيط الذي مكنه من

العثور على شيء ما حتى وإن كان ذلك الشيء غير ما كان يريد .

وكان على كولمبوس قبل ان يجرب طريقته الخاصة هذه ان يحصل على المال والمؤازرة . وفي عام ١٤٨٥ ، العام الذي خذلته فيه اللجنة البرتغالية ، توفيت زوجته الدونا فيلبا في لشبونة وانقطعت بوفاتها أوثق صلة له بالبرتغال . ولم يعد هناك من يستطيع ان يقدم له الضمانة اذا ما رفض الملك ذلك . وهكذا قرر كولمبوس ان يجرب حظه في اسبانيا بالرغم من انه لا يعرف أحداً هناك سوى شقيقة زوجته الراحلة والتي كانت متزوجة من شخص إسباني في مدينة هويلفا . وهكذا رحل كولمبوس الى مقاطعة نبلا الاسبانية المجاورة للبرتغال مصطحباً معه ابنه ديجو البالغ من العمر خمس سنوات . ولا بد ان كولمبوس دخل « ريو سالتيز » بقلب كسير نظراً للتباين الظاهر بين البلدين ، إذ بينما كانت لشبونة تضج بالحركة ، وجد الخمول يسيطر على مرفأي هويلفا وبالوس . وبينما كانت سفينته تدور للدخول في ريوتينتو لمح ديراً للرهبان الفرنسيسكان يقع على ربوة عالية في قرية لا رابيدا . وكان ذلك سبباً لحل مشكلة ابنه ديجو ، إذ كان معروفاً عن الفرنسيسكان بانهم يقبلون تلاميذ داخليين في ديرهم . وهكذا وبعد ان نزل الى البر في بالوس ، مشى مسافة اربعة اميال الى دير الرهبان مصطحباً ابنه ، ثم قرع باب الدير وطلب من الحاجب ماء وقليلاً من الخبز لابنه. ولحسن حظه ، حضر الى الباب انطونيو دي مارشينا ، الراهب الفرنسيسكاني المشهود له بالذكاء والذي كان قد درس علم الفلك ، فأخذ يتحدث مع كولمبوس ثم دعا الوالد وابنه الى البقاء في الدير بعد ان قبل ديجو في عداد التلاميذ ثم عرّف كولمبوس بكونت مادينا سللي ، أحد كبار الأعيان في اسبانيا ، ومن كبار اصحاب السفن في قادس .

وكان مادينا سللي على وشك ان يضمن مشروع كولمبوس الذي كان يطالبه « بثلاث او اربع سفن كاملة التجهيز لا اكثر » عندما خطر بباله ان يطلب موافقة الملكة ولما فعل ذلك رفضت الملكة بحجة ان مشروعاً عظيماً كالذي ينادي به كولمبوس يجب ان يشرف عليه التاج ويرعاه . ولكن تحويل الأمر من الكونت الى الملكة أخر رحلة كولمبوس حوالي ست سنوات .

# الفصل الرابع

## المساومة مع الامراء

مرت حوالي تسعة شهور قبل ان يتمكن كولمبوس من المثول أمام الملكة ، ويعود ذلك الى تنقل حاشية البلاط من بلدة الى أخرى في وسط اسبانيا وشماليها والى عدم حوزته على الاموال اللازمة للحاق بهم . الا انه سافر من مدينة اشبيلية حيث أجرى مشاورات مع الكونت مادينا سللي الى مدينة قرطبة المجاورة بانتظار وصول موكب الملكة .

وفي قرطبة ، كما كان الحال في معظم مدن اسبانيا ، وجد كولمبوس جالية من أهالي جنوى كان أحد افرادها اجزاخنجي ، وكانت الاجزاخانات في تلك الايام ملتقى الاطباء وهواة العلم . وكان من الطبيعي ان يزور كولمبوس دكان مواطنه ، وهناك تعرف على « ديجو دي هارانا » الذي كان يتردد كثيراً على تلك الندوة غير الرسمية ، والذي دعاه الى بيته حيث التقى بابنة عم لعائلة هارانا الريفية ، بياتريز انريكويز ، الشابة الجميلة التي كانت في الواحدة والعشرين من عمرها والتي أصبحت منذ ذلك الحين عشيقته ، وفي عام ١٤٨٨ وضعت له ابنه الثاني فرديناند . وقد ازعجت حقيقة عدم زواجه من بياتريز الكثيرين من كتاب سيرته المتدينين ، كما اثقلت ضميره الأمر الذي اتضح من بعض النصوص

الواردة عنها في وصيته ولكن يبدو ان لا أحد اتخذ من هذه الهفوة الاخلاقية سلاحاً ضده في ذلك الحين .

كانت زوجته ارستقراطية ذات منزلة رفيعة فساعدته على توطيد مركزه في البرتغال وبالنظر لتقاليد وعادات تلك الايام فان زواجاً ثانياً من فتاة ريفية كان يعتبر غير لائق بشخص مثل كولمبوس يرغب بالانتساب الى طبقة الاشراف ويطمع بان يصبح اميرالا . ومع ذلك كانت عائلة هارانا الريفية مسرورة بهذا الارتباط ، بدليل ان بعض أفرادها التحقوا فيما بعد ، بالخدمة تحت قيادة كولمبوس كما دامت الصداقة بين العائلتين جيلين او ثلاثة .

وفي يوم من أيام أيار عام ١٤٨٦ ، أي بعد عام تقريباً من وصول كولمبوس الى اسبانيا استقبلته الملكة في قصر الكازار الذي لا يزال قائماً في مدينة قرطبة . وكانت الملكة ايزابيلا الكاثوليكية من أقدر ملوك اوروبا في عصر تميز بالملوك الأقوياء ، وكانت تتحلى بقدرة بدهية في اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب وكذلك القيام بالعمل المناسب في الوقت المناسب كما كانت بعمر كولمبوس تقريباً ، وشبيهة له في المزاج والالوان لا سيما بعينيها الزرقاوين وشعرها الأسمر النحاسي . وكان زواجها من فرديناند الاراغوني قد وحد جميع أجزاء اسبانيا ، عدا البرتغال التي كانت متحالفة معها ، وبقايا دولة الخلافة المغربية في قرطبة والتي كانت قد قررت اخضاعها . فلا غرابة اذن ان تبدو بعض بشائر التفاهم الفكري بين الملكة ايزابيلا وكولمبوس في اجتماعهما الاول اذ بالرغم من انها رفضت مشروعه اكثر من مرة الا انه اكتشف ان باستطاعته الاعتماد عليها في النهاية . وأثناء ذلك عينت لجنة خاصة باشراف معرّفها الخاص هرناندو دي تالافيرا لدراسة المشروع والتوصية فيما اذا كان عليها ان تقبل به او ترفضه ، او ان تسمح للكونت مدينا سللي بأخذه على عاتقه وتمويله .

وعندئذ ، بدأت أصعب فترة في حياة كولمبوس كلها ، استمرت حوالي ست سنوات متواصلة فقد كان عليه الثبات في معركة مستمرة ضد التحامل

واللامبالاة الصريحة المهينة وكان يتحتم على رجل عزيز النفس رقيق الشعور مثل كولمبوس ، آمن ان مشروعه عملي ، وانه سيفتتح آفاقاً جديدة وفرصاً لا تعوض في عالم الملاحة ، ان يتحمل تهريج المهرجين وانتقادات الجهلة المنافقين من أفراد الحاشية وان يعامل بأسوأ ما يعامل به الشحاذون .. وان يعاني احيانا ، الفقر المدقع والعوز المذل .

والأسوأ من ذلك كله انه تعلم من التجارب العملية معنى العبارة الاسبانية « كوزاس دي اسبانا » أي « هذا شيء اسباني » كما خبر المماطلة المزعجة التي يتصف بها الاسبان الذين اشتهروا بعجزهم عن اتخاذ أي قرار او تنفيذ أي طلب مهما كان بسيطاً او اتخاذ قرار حاسم بدون رشوة او خدمة مقابلة . وفي السنين التالية ، نوّه كولمبوس بمرارة وألم عن هذه التجارب وراح يقابل باسلوب تنقصه اللباقة ، بين الثروة والقوة التي منحها لاسبانيا وبين جهوده الطويلة المحزنة للوصول الى من يستمع اليه بتفهم وعطف !

وقد فشلت لجنة تالافيرا في اجتماعها الذي عقدته في سلمنكه عام ١٤٨٦ بالوصول الى أي قرار . الا ان ديجو دي ديزا كان العضو الوحيد الذي صوت مع المشروع العظيم ، وكان لنفوذه الشخصي ، او لنفوذ تالافيرا ، الفضل الاول في منح كولمبوس اجراً عن اتعابه بلغ ٢١ ألف مارافديس – اي ٨٣ دولاراً ذهبياً – في السنة . وكان هذا المبلغ يعتبر راتباً ممتازاً لبحار قدير ، مبلغاً يكفي لتلبية رغبات كولمبوس البسيطة فيما لو دفع بصورة مستمرة .

ومر الشهر تلو الشهر ، وانقضى عيد ميلاد آخر دون أن يصدر شيء عن لجنة تالافيرا . وفي اوائل عام ١٤٨٨ كتب كولمبوس الى جون الثاني ملك البرتغال يطلب منه افساح المجال له للمرافعة في قضيته مجدداً ومنحه الامان بعدم اعتقاله بسبب سندات ديونه غير المدفوعة في لشبونه . فأجابه الملك بسرعة مرحباً به واستحثه على الحضور فوراً ووعده بالحماية من أية ملاحقة قضائية أو اعتقال. وربما كان هناك سببان رئيسيان لهذا التغير المداجي المفاجيء في الموقف ، اذ ان دولمو ، وأستريتو البرتغاليين كانا قد اخفقا باكتشاف جزيرة الانتيل الخرافية

كما ان بارثولميو دياس كان قد ابحر منذ سبعة شهور في المحاولة البرتغالية العشرين للوصول الى جزر الهند بالدوران حول افريقيا ثم لم يعد يسمع عنه شيء !

تأخر كولمبوس بالسفر الى لشبونه بسبب احتياجه للمال ، وقبل ان يتمكن هو وأخوه بارثولميو ( الذي بقي هناك ) من مقابلة جون الثاني ملك البرتغال ، ذاع نبأ عودة دياس من رحلته .

وقد حضر الاخوان كولمبوس في كانون الاول عام ١٤٨٨ حفلة ابحار السفن الثلاث بقيادة دياس باتجاه تاغوس . بعد أن طاف قائدهـا العظيم حول رأس افريقيا الجنوبي الذى سماه الملك برأس الرجاء الصالح ، وفيما كان يقترب بسفنه من الشاطىء الشرقي تمرد بحارته وأرغموه على العودة الى لشبونه . وكان ذلك كافياً لوضع حد لاهتمام الملك بمشروع كولمبوس ، فقد اكتشف دياس طريقـاً بحريا الى جزر الهند مما جعل جلالته يسأل عن فائدة المغامرة بتمويل مشروع الابحار غربا للوصول الى الشرق ذلك المشروع الذي يكتنفه الشك والغموض بالاضافة الى ظهور منافس لكولمبوس في البرتغـال يدعى مارتن بهايم وهو شاب بحار من نورمبرغ ، قام مثل كولمبوس ، برحلات تحت ظل العلم البرتغالي وتزوج ابنة قبطان برتغالي ، وكانت فكرة بهايم عن حجم الارض التي كان قد صنع بهـا نموذجاً في شكل كرة عام ١٤٩٢ – تكاد تنطبق على فكرة كولمبوس .

وفي عام ١٤٩٣ ، وكان الوقت متأخراً جداً ، اقترح بهايم على الملك مـا اقترحه كولمبوس سابقاً او اعتقد بأنه فعل .

وقبل حلول رأس السنة الجديدة لعام ١٤٨٩ قرر الاخوان كولمبوس ... خطة للعمل فعاد كولمبوس الى اسبانيا حيث كان لا يزال لديه بعض الامل في لجنة تالافيرا البطيئة الحركة ، بينما طوى اخوه بارثولميو مهنة وصنع الخرائط وسافر في رحلة طويلة على امل ان يبيع مشروع الابحـار غربا الى الشرق لأحـد الامراء الآخرين .

ولما لم يتمكن من التأثير على هنري السابع ملك انجلترا ، تابع طريقـه الى فرنسا حيث التقى بآن دي بيجو ، شقيقة الملك شارل الثامن التي اعجبت بـه

واستخدمته لكي يصنع لها الخرائط في مدينة فونتنبلي وبواسطتها اضبح بارثولميو صديقاً لملك فرنسا ، ولكنه لم يحظ على أي امل بمؤازرة الملك له .

كان النجاح يبدو في نظر كولمبوس على بعد خطوات منه ، ولكن حتى عام ١٤٨٩ كان عليه ان ينتظر ثلاث سنوات اخرى قبل الوصول الى نتيجة حاسمة . ولا نعرف سوى القليل عن الكيفية التي أمضى بها وقته طوال هذه المدة . ولكن احد معاصريه أفاد بانه باشر العمل في فرع « الاخوان كولمبوس – صانعاً خرائط وبائعاً كتب » وذلك في اشبيلية . ولما علمت الملكة برجوعه الى قشتالة زودته بكتاب مفتوح تأمر فيه جميع موظفي الحكومة بتسهيل اقامته وتنقلاته وهو في طريقه الى البلاط الذي اقيم آنذاك في معسكر محصن في ضواحي مدينة بزة المغربية التي كانت تعاني حصار الجيش الاسباني . وهناك ما يشير الى ان كولمبوس تطوع في الجيش بانتظار جواب على رسالته وقد اتيح له الوقت الكافي للاشتراك باطلاق النار على الاعداء .

واخيراً وفي نهاية عام ١٤٩٠ اصدرت لجنة تالافيرا تقريرها ، وكان مخيباً للآمال . إذ نصح الخبراء ملكتهم بان مشروع الأبحار غرباً الى الشرق لا « يرتكز على اسس متينة » وان تحقيقه يبدو « غير مؤكد ومستحيلا في نظر أي رجل مثقف » ذلك لان الرحلة المقترحة الى آسيا تستغرق ثلاث سنوات ، هذا اذا استطاعت السفن العودة . الامر الذي يشكون فيه . كما ان الاقيانوس اوسع حتما مما خمنه كولمبوس وأن معظمه لا يصلح للملاحة . واخيراً فان من غير المعقول ان يكون الله قد اخفى عن عباده أية اراض ثمينة غير مسكونة طوال القرون السالفة . ولم يكن باستطاعة هذا الرفض ان يكون أكثر حزماً ووضوحاً . وعلينا ان نسلم بان جميع أقوال اللجنة كانت صحيحة ما عدا الادعاء الاخير ، وعلى افتراض أن اميركا لم تكن موجودة ، فان أية سفينة من سفن ذلك الوقت ما كانت لتستطيع ، مهما بلغت قوة العزم لدى ربانها وبحارتها او تقتيرها في استهلاك المؤن ، القيام برحلة العشرة آلاف ميل من أسبانيا الى اليابان !

ومن الواضح ان مسعى كولمبوس قد فشل كلياً ! ومع ان كولمبوس كان يعرف انه يستطيع تنفيذ المشروع ، إلا ان الخبراء كانوا على ثقة بأنه لا يستطيع ذلك . وأصبح المشروع بحاجة الى شيء خارق بقوة الادراك الانثوية لتحطيم العقبة المعترضة .

وكان أقصى ما تستطيع الملكة فعله في الوقت الحاضر هو ان تبقى جذوة الأمل في كولمبوس فأخبرته بأنه يستطيع التقدم بطلب جديد حالما تنتهي الحرب مع المغاربة . فانتظر سنة أخرى ثم قرر مغادرة اسبانيا والالتحاق بأخيه في فرنسا . ولما عرج على دير الفرنسيسكان في قرية لارابيدا القريبة من مرفأ بالوس ليأخذ ابنه ديجو معه وقد أصبح الآن في العاشرة ، اقنعه الأب جون بريز ، رئيس الدير ان يمنح الملكة فرصة جديدة ، وأرسل اليها كتاباً بهذا الصدد . فأجابت تدعو كولمبوس الى البلاط وأرسلت له هدية سخية لكي يشتري لنفسه بغلاً وثياباً لائقة !

كان كولمبوس يجد دائماً بين رجال الكهنوت اصدقاء ومؤيدين أكثر مما كان يجده بين العلمانيين . فقد بدا أنهم كانوا يفهمونه أفضل ، خصوصاً ان افكاره وتلهفاته كانت تنبع من احساسه الديني . وكان هو أكثر من غيره من العلمانيين حرصاً على تلاوة الصلوات اليومية ابتداء من الفاتحة فالمثلوث والستاوية وصلاة ما قبل النوم . وقلما اضاع فرصة لحضور القداس . ورغم انه كان يعيش في عصر كثير التلون والالحاد المفلسف فلم يسمع عنه ابداً انه أقسم بغير «سانت فرناندو» أو ان شتم اذا غضب باكثر من قوله « ليأخذك الله » . وكان يترك أثراً مهيباً على الناس ، بطلعته البهية وعزة نفسه الفطرية ، مهما كانت مرتبتهم ، ومع انه لم يتكلم اللغة الاسبانية بطلاقة فان احداً لم يلمه على ذلك نظراً لانه جنوي المولد وقضى مدة طويلة في البرتغال .

وفي يوم قريب من يوم عيد الميلاد عام ١٤٩١ ظهر كولمبوس مرة ثانية في البلاط الذي كان يجتمع في المعسكر المحصن في « سانتا في » اثناء حصار غرناطة . وهناك عينت لجنة جديدة وراجع المجلس الملكي مقرراتها . وبالرغم من ان

التفاصيل الدقيقة عن المقررات ليست معروفة فقد بدا ان اعضاء اللجنة وقـد لمسوا رغبة الملكة بمساعدة كولمبوس ، أوصوا بالسماح له في أن يجرب هـذا المشروع ، والمحوا الى ان المجلس كان قد رفض المشروع بالنظر الى الثمن الباهظ الذي طلبه كولمبوس — فقد كان هذا الرجل الخارق قـد رفع ، بالرغم من فقره والمماطلة وتثبيط الهمة التي تعرض لها ، من قيمة طلباته وزاد عليها — ففي عام ١٤٨٥ رضي بالابحار غرباً لحساب الكونت مادينا سللي مقابـل تأمين النفقات والمصاريف فقط وبدون ان يشترط اية ارباح او أي شرف خاص له . اما الآن فلم يكتف بطلب رفعه الى منزلة النبلاء ومنحه لقب أميرال بل اشترط ايضاً أن يعين حاكما ونائباً للملك في أية اراضي جديدة يكتشفها ، وان يصبح لافراد عائلته حق وراثة كلا اللقبين ، وان يعطى هو وورثته حق حسم عشرة بالمئة على التجارة هناك ! لقد قاسى جداً من كثرة الاهانات طيلة اقامته الطويلة في اسبانيا لذلك أقسم بالقديس فرناندو « انه لن يأتي بالمجد والسؤدد لاسبانيا بلا مقابل » !

فاذا وافق العاهلان على ان يمنحاه ، لدى نجاحه ، الرتب والالقاب والاملاك ليتمكن هو وذريته من ان يبقوا رؤوسهم مرفوعة بين أعيان الاسبان ، فحسناً ، والا فانه لن يقبل باية مساومات أخرى ! تلك هي عروضي يا صاحبي الجلالة ، فتقبلاها او تخليا عنها .

وفعلاً ، رفض العاهلان تلك الشروط في كانون الثاني عام ١٤٩٢ حالمـا سقطت غرناطة ، وأبلغاه ذلك في اجتماع عقد في البلاط ، ان الملك على الأقـل قصد أن يكون حازماً في رفضه . فقام كولمبوس لتوّه وشد السرج على بغـله وملأ عيون الخرج بخرائطه ومستنداته وانطلق الى أشبيلية برفقة صديقه المخلص جون بريز معتزماً ركوب السفينة من هناك الى فرنسا للاشتراك مع أخيـه بارثولميو برفع التماس جديد الى الملك شارل الثامن .

وحدث هنا ما يحدث غالباً في المخازن الشرقية من مساومات بين البائـع والشاري والتي تنتهي غالباً بأن يلحق البائع الزبون معلناً قبول عرضه الاخير . ففي ذات اليوم الذي رحل فيه كولمبوس عن « سانتافي » قام لويس دي سانتنجيل

حارس خزانة الملك فرديناند الخاص ، بزيارة الملكة وألح عليها ان تقبـــل شروط كولمبوس ، قائلاً بأن الرحلة لن تـكلف مـــا تكلفه نفقات الترفيه عن زميل ملكي آخر في اسبوع واحد ، وتعهد بأن يدبر المال بنفسه ، أما بالنسبة الى الرتب والالقاب فان كولمبوس لم يطلب سوى وعداً بنيلها بعد نجاحه ، وان مثل هذه الامور تعتبر ، في حالة نجاحه ثمناً ضئيلاً بالنسبة الى مـــا سيكتشفه من جزر جديدة وطريق بحري غربي الى جزر الهند . فما كان من ايزابيلا التي ربما كانت ترى ذلك الرأي بعينه ، الا ان تمسكت بفرصتها الحقيقية الاخيرة هذه وتحمست حتى انها اقترحت رهن جواهر التاج كضمانة لتغطية النفقات ، غير ان « سانتنجيل » أكد لها بأن ذلك لن يكون ضروريا . وهكذا أرسلت رسولا خاصاً لحق بكولمبوس في قرية تبعد اربعة اميال عن سانتافي وأعاده معه .

ومع ان كل شيء قد تقرر الآن من حيث المبـــدأ ، الا ان الكثير من المساومات الاسبانية ظلت تنتظر الحـــل ، وهكذا لم يجر التوقيع على العقود وختمها بين كولمبوس من جهة والعاهلين الاسبانيين – أو اصحاب الامتيازات في الشرق – كما كانا يلقبان عموماً ، الا في نيسان عام ١٤٩٢ . وقد ضمن العاهلان في تلك العقود اعتبـــار كولمبوس موفداً لاكتشاف وللاستيلاء على جزر وأراضي جديدة في الاقيانوس مقابل وعدهما له بتعيينه اميرالا على الاقيانوس ونائباً للملك وحاكما في الاراضي التي يستطيع اكتشافها ، وان من حقه الحصول على مقدار عشرة بالمئة معفاة من الرسوم من جميع الذهب والجواهر ، والبهارات والبضائع الاخرى المنتجة او التي يتاجر بها مع تلك الأراضي ، كما وان له الحق بتوظيف اموال تعادل ثمن قيمة حمولة كل سفينة مسافرة الى هناك وان هذه المناصب والمكاسب سوف يتمتع بها هو وورثته من بعده الى الابد. كذلك زوده العاهلان بجواز سفر مكتوباً باللغة اللاتينية يفيد بانهما مرسلاه باتجاه مناطق الهند على رأس ثلاث سفن كبيرة . كما حملاه ثلاث رسائل للتعريف عن نفسه : واحدة لأمبراطور الصين او «الخان العظيم» وترك فراغ في الرسالتين الاخيرتـــين لكي يتمكن كولمبوس من كتابة اللقب والأسم الصحيح لأي أمير آخر يريده !

ومما لا شك فيه ، ان الأمر سيبدو في نظر القارىء المعاصر ساذجاً للغاية ، في ان يتوقع أي انسان نزول كولمبوس الى شاطىء الصين أو اليابان وان يعلن استيلاءه على مناطق منها بمساعدة مئة بحار فقط .. غير ان اوروبا كانت تجهل الكثير عن الشرق الاقصى في ذلك الحين ، ولم يكن البرتغاليون يواجهون اية صعوبة في تعاملهم مع ملوك الزنوج في افريقيا ، فلماذا لا يفعل كولمبوس الشيء نفسه في آسيا ؟! وفوق ذلك فان لفظة « المستعمرة » التي كانت تجول في مخيلة كولمبوس ، لم تكن بالمعنى الذي نفهمه اليوم بل كان المقصود منها ايجاد « محطة تجارية » . وقد ألف الاوروبيون استعمال هذه الكلمة – اي المحطة التجارية – منذ زمن طويل . وقد كانت تعني امتداد سلطة دولة ما لتشمل دولة اخرى بقصد الاغراض التجارية ، ومن المحتمل ان تكون هذه المحطة محصنة ، اذا كانت واقعة في منطقة متوحشة نسبياً ، كالمحطة التجارية الجنوية في القرام او محطة – سانت جورج دامينا البرتغالية الواقعة على الشاطىء الذهبي ، كما يمكن ان تكون مستعمرة سلمية تتمتع بالحصانة الديبلوماسية خارج حدود الوطن كاتحاد مصانع الفولاذ في لندن او مركز رابطة التجار المغامرين في امستردام . وقد اوضحت كرة مارتن بهايم التي صممها في عام ١٤٩٢ بأن مارتن كان يشارك كولمبوس افكاره الجغرافية عن وجود أرخبيل يقع جنوبي اليابان متصل بارخبيل ريوكيوس[١] فلولا وجود الحاجز الاميركي ولو ان المحيط كان ضيقاً كما تصوره كولمبوس، لنجح بدون شك في اقامة مركز تجاري في جزيرة كجزيرة اوكيناوا مثلا ، بحيث تصبح مستودعاً هاماً للبضائع بين الصين والغرب يصلح للتجارة والارساليات التبشيرية .

ولم يكن ذلك الامل مبالغ فيه كما اثبتته الحقائق مما جرى في الفلبين بعد ثمانين عاماً حيث احتل ليغاسبي منطقة مانيلا لحساب اسبانيا واعاد بناء تلك المدينة القديمة مستعيناً بقوة أقل من تلك التي كانت لدى كولمبوس . وتم الأمر دون مقاومة أي امير أو صاحب سلطة . وهكذا اصبحت مانيلا مركزاً

(١) وهو الارخبيل الواقع بين كوشيو وتايوان في المحيط الباسفيكي .

هاماً للتجارة تقايض فيها البضائع الاسبانية بالمنتوجات الصينية .

وربما يبدو من المستهجن أيضاً ان يقبل العاهلان الاسبانيان اعطاء كولمبوس عشرة بالمئة من الارباح المنتظرة . ولكن كان من الطبيعي جداً في اوروبا ان يكافىء الامراء خدامهم ورعاياهم بتلك الطريقة ، وما يزال يعمل بهذه الطريقة في بعض البلدان الشرقية . فعبد الله الدرويش رئيس الوزارة في سلطنة قطر الواقعة على الخليج العربي (الفارسي) ، ظل يحصل حتى عام ١٩٥٤ على عشرة بالمئة من مجموع الصادرات والواردات بما في ذلك واردات النفط .

وهناك أسباب هامة دعت لتطبيق تلك الاتفاقية المالية في القرن الخامس عشر اذ كان مدخول الامراء منخفضاً بشكل ملحوظ كما لم تكن العادة والضرورة قد نجحتا بعد بتخفيف حدة مقاومة الشعب لفرض ضرائب جديدة عليه .

# الفصل الخامس

## الاستعداد للرحلة الاولى

بالرغم من ان كل شيء عن المشروع قد تقرر مبدئياً فان نجاحه كان يتوقف على توفر بعض التفاصيل العملية العديدة . لقد تقرر أولا ان يجهز الاسطول ويجند الرجال في بالوس ، المرفأ الصغير في نبلا ، أول مدينة وطأها كولمبوس في اسبانيا ، ولعدة أسباب أخرى منها ان كولمبوس أقام روابط صداقة بينه وبين أفراد عائلة بنزون الذين اشتهروا بقيادة السفن وامتلاكها . وهكذا توفرت هناك السفن والملاحون .

وكانت بالوس قد ارتكبت عملاً بلديا شائناً ففرضت الملكة عليها تقديم سفينتين كبيرتين تامتي العدة والتجهيز . واتفق ان كولمبوس كان يحضر قداساً في كنيسة القديس جورج مع صديقه فراي جون بريز ، عندما أخذ الدلال يقرأ الامر الملكي بوجوب تحضير سفينتين في غضون عشرة ايام مجهزتين بالرجال مع رواتب أربعة أشهر سلفاً .

من البدهي ان مدة عشرة ايام لم تكن كافية ، والواقع ان الاعداد للرحلة استغرق ثلاثة أشهر قبل ان يستطيع كولمبوس الابحار . وكان قد وعد بثلاثة سفن لا اثنتين ، ولكن حدث ان سفينة من غاليسيا كانت راسية في المرفأ ،

فاستأجرها كولمبوس من صاحبها القبطان جون دي لاكوزا ، وجعلها سفينة القيادة وسماها « سانتا ماريا » .

كانت « سانتا ماريا » أشهر سفن كولمبوس على الاطلاق ، لقد انتهت حياتها بالجنوح على الصخور القريبة من اسبانيولا دون ان تترك خلفها صورة أو نموذجاً لهيكلها ، ويعتقد ان عدة نماذج صنعت عنها بصورة تقريبية ، كما بنيت سفينتان « طبق الأصل » عنها في اسبانيا .

كانت حمولة « سانتا ماريا » الأصلية حوالي مئة طن أو مئة برميل خمر من الحجم المزدوج .

وكانت قلاعها من النوع التقليدي في تلك الفترة حيث كانت السفن على عتبة الخروج من نظام القلع الواحد الذي تميزت به سفن القرون الوسطى : صاري امامي يبلغ ارتفاعه اكثر من طول السفينة ، فسحة أمامية بطول الهيكل تحمل شراعاً مربعاً هائلا – الدافع الرئيسي – والذي كان يعتمد عليه لتحقيق السرعة القصوى . وفوق القلع الرئيسي على رأس الصاري ينتشر قلع علوي رئيسي .

وكان صاري المقدمة ، اطول قليلا من نصف علو الصاري الرئيسي ويحمل قلعاً مربعاً أمامياً يعرف بالقلع الأمامي . أما صاري مؤخرة السفينة والذي يرتفع فوق أعلى نقطة في المؤخرة فكان يحمل قلعاً صغيراً مثلث الشكل ، وتحت البومبريس ، المتجه الى أعلى مقدمة السفينة ( البروة ) بزاوية حادة كان ينتشر قلع صغير مربع يدعى القلع الجانبي الذي كان يقوم الى حد ما بوظيفة ذراع المرفاع الحديث او شراع مقدم السفينة الحالية .

وكان لكل سفينة اسبانية في تلك الايام اسم رسمي ، غالباً ما يكون اسم قديس او قديسة ، ولقب آخر يستعمله البحارة . « فسانتا ماريا » مثلاً كانت تسمى « ( اسبانيا ) أي غاليسيا » بينما كانت احدى السفينتين التي قدمتها مدينة بالوس تسمى « بسانتا كلارا » . لكنها ظلت معروفة عالمياً بلقبها « نينا » الذي اعطي لها نسبة الى عائلة نينو التي كانت تملكها في بالوس . وكانت نينا

السفينة المفضلة لدى كولمبوس والمحببة الى قلبه لأنها عادت به سالماً الى وطنه من رحلته الأولى . ثم حملته الى غرب كوبا وعادت به الى اسبانيا في الرحلة الثانية ، كما قام برحلة أخرى عليها الى اسبانيولا . كانت تزن حوالي ٦٠ طناً ولم يزد طولها عن ٧٠ قدماً ، وكانت في بدء الرحلة مجهزة بثلاثة أشرعة مثلثة الشكل كالسفن البرتغالية . ولكن كولمبوس جهزها بأشرعة مربعة عندما بلغ جزر الكناري فأضحت مثل « سانتا ماريا » وذلك لأن الأشرعة المربعة أسلس من الأشرعة المثلثة عندما تسير السفينة بوجه الريح .

أما « بنتا » التي بنيت محلياً أيضاً ، فقد كانت أكبر من « نينا » وكانت مجهزة باشرعة مربعة منذ البداية . ولا نعرف اسمها الحقيقي الرسمي . وربما كان لقبها مشتقاً من اسم صاحبها السابق الذي كان يدعى بينتو . لقد كانت سفينة سريعة ، ومن على ظهرها شوهد العالم الجديد لأول مرة كما كانت اول من عاد الى اسبانيا من السفن الثلاث .

وكانت جميع السفن تحمل في عنابرها صابورة من الحجارة المثبتة غالباً بأوتاد خشبية مثل التي يراها الانسان في هياكل البيوت الاميركية القديمة . وكانت جوانبها تدهن بالوان زاهية فوق خط العوم بينما يطلى القسم الغارق منها بالزفت لأبعاد البطلينوس وتفادي الثقوب التي يحفرها بالخشب .

وكانت شعارات الصليب ورسوم الاسلحة تزين الأشرعة . وكانت السفن تحمل معها مجموعة متنوعة من البيارق الكبيرة المطلية بالألوان اللماعة التي ترفع عادة لدى دخول السفينة او خروجها من المرفأ . كما كان شعار الملكة أليزابيلا المطرز بصور قلاع وأسود مدينتي قشتالة وليون ، يخفق على المقدمة ، بينما انتشر على القلع الأمامي او الخلفي شعار الرحلة الخاص وهو صليب اخضر على حقل ابيض مع تاج على كل ذراع — وهو شعار خاص بولاية اراغون [1] . وكانت السفن الثلاث تحمل بطارية صغيرة من المدفعية بقصد مقاومة هجمات القرصان المحتملة أو صد الدخلاء غير المرغوب فيهم . ولكنها لم تكن بأي شكل من

(١) احدى مقاطعات اسبانيا .

الأشكال سفناً حربية ولم تحمل على ظهرها جنداً أو رجالاً للمدفعية .

ولم يكن باستطاعة كولمبوس الغريب عن نبلا ان يجند الضباط والرجال بدون مؤازرة العائلات البحرية الكبرى الثلاث في بالوس : آل بنزون وآل نينو وآل كوينتيرو ، وهكذا تقلد مارتين الونسو بنزون قيادة السفينة « بنتا » مصطحباً معه اخاه فرنسيسكو الصغير برتبة معاون أول ، وقاد شقيق آخر لمارتين ، فينسنت بانيز بنزون السفينة« نينا » التي كان يملكها جون نينو ، الذي عين كولمبوس اخاه بيير الونزو نينو مرشداً « لسانتا ماريا » .

اما سفينة القيادة فقد قادها كولمبوس بنفسه بينما ابحر صاحبها جون دى لاكوزا معه بصفة معاون اول .

وكان في كل سفينة مرشد وضابط يشارك في مهام المعاون الاول في العصر الحديث ويتولى مسؤولية الملاحة – وطبيب . وكان الاسطول يضم بعض الاختصاصيين منهم لويس دي توريز اليهودي المتنصر الذي كان يعرف العربية ، وهي اللغة التي اعتقد بانها ستمكنه من التفاهم مع الصينيين واليابانيين ، وورود ريغو دى اسكوبيدو ، سكرتير الاسطول ، الذي أنيطت به مهمة تدوين المكتشفات رسمياً ، وورود ريغو سانشيز ، المفتش الملكي الذي كانت وظيفته الاساسية التحقيق من ان التاج يحصل على حصته كامله من الذهب وبدرو جوتيريز خادم منصة الملك ، الذي سئم الحياة في البلاط الملكي فسافر بوظيفة رئيس الخدم على السفينة . وديجو هارانا ، عم عشيقة كولمبوس بصفة مارشال للاسطول المركزي الذي يقابل الرتبة البحرية القديمة « سيد السلاح ».

وقد بلغ عدد الضباط والرجال المعروفين في سانتا ماريا ٣٩ وفي نينا ٢٦ و ٢٢ في بنتا وربما كان هناك اثنان او ثلاثة آخرون مما يجعل مجموع عدد أفراد الاسطول الكامل تسعين شخصاً.

وجاء معظم الرجال المجندين : من خدم ورؤساء نوتية ، وقلفطجية ،وبحارة

ماهرين وصبيان ، من مدينة نبلا أو من المدن المجاورة لها في اندلوسيا مثـــل أشبيلية وقرطبه وجيريز دى لا فرونتيرا . وكان معاش البحار الواحد يعادل سبعة دولارات وستين سنتاً في الشهر . وكان الاجانب الوحيدون الى جانب كولمبوس نفسه هم : جنوي واحد وبرتغالي وآخر من البندقية .

أما القصة التي تقول بسفر انجليزي واحـد وآخر ايرلندي برفقة كولمبوس فخرافة ، ولكن هناك بعض الاساس للرواية الشائعـة من ان بعض المساجين كانوا في عداد البحارة ، فقد أطلق فعـــلاً سراح ثلاثة شبان كانوا محكومين بالسجن مدى الحياة ، لمساعدتهم أحد المجرمين على خلـــع باب السجن ، لـكي يبحروا مع كولمبوس . وقد أثبتوا اخلاصهم وسافروا مع الاميرال في رحلات اخرى ، كما فعل عدد كبير من الآخرين . وكان بحارة هذه السفن بوجه عـــام رجالا مقتدرين اختيروا من الجوار وعملوا بامرة أفراد من عائلات معروفة كانوا يتبوأون المراكز الحساسة في الحملة .

وقد تغلب هؤلاء الرجال والشبان على روح التحفظ والحذر الطبيعية لدى البحارة وذلك بسبب التشجيع الذي بثه فيهم ملاح قديم كان واثقـــاً من انه أخطأ جزر الهند بقليل أثناء رحلته غربا في ظل العلم البرتغالي قبل اربعين عاماً خلت فاندفعوا خلفه بحماس سعياً وراء الذهب والمجد والمغامرة .

وهكذا اشترك هذا الجمع في اعظم مغامرة بحرية سجلها التاريخ الا وهي رحلة كولمبوس الاولى أمـــا اولئك الذين ظلوا على قيد الحيـــاة فقد نالوا أيضاً المجد والذهب .

# الفصل السادس

## عبور الاطلسي للمرة الاولى

في اليوم الثاني من شهر آب عام ١٤٩٢ كان كل شيء جاهزاً . وفي تلك الليلة اعترف كل رجل وكل شاب في الاسطول بخطاياه ، ونال الغفران وتناول القربان في كنيسة مدينة بالوس ، المكرسة للقديس جريس ، شفيع مدينة جنوى مسقط رأس كولمبوس .

صعد الاميرال الى ظهر سفينة القيادة في الهزيع الاخير من ليلة الجمعـــة في اليوم الثالث من آب واعطى الاشارة بالانطلاق . وقبل ان تشرق الشمس كانت السفن الثلاث قد رفعت مراسيها وانسابت فوق مياه مدينة ريو تنتو مع جزر الصباح وأشرعتها تخفق فوق اعواد الصواري ، مستعينة بالمجاذيف الكبـــيرة لشق طريقها .

وفيما كان البحارة ينطلقون في اليم ، مارين قرب لارابيدا كان بمقدورهم سماع الرهبان وهم يرتلون التسبيحة القديمة : « طلعت نجمة النور » ويرددون لازمتها « من الآن والى كل آن » .

كان هذا الاسطول الزاخر بالامل الصالح والذي كان لأعماله العظيمة ان

تغير تاريخ العالم تغييراً جذرياً ، يبحر بموازاة اسطول آخر يحمل البؤس والشقاء. ففي ذات المجرى تماماً ابحرت آخر سفينة من ساليتز وهي تحمل اليهود الذين نفاهم الملك فرديناند والملكة ايزابيلا من اسبانيا. وكان اليوم الثاني من آب آخر موعد لرحيلهم ، وعلى كل من يتخلف منهم ان يواجه الاعدام او اعتناق المسيحية وهكذا اندفع آلاف من اللاجئين البائسين وهم يحملون من حوائج البيت ما استطاعوا تكديسه فوق السفن المزدحمة متوجهين الى البلدان الاسلامية حيث التسامح والتساهل متوفران بصورة أكبر ، او الى الاراضي الواطئة[1] ، البلد المسيحي الوحيد ، الذي كان يقبل استقبالهم .

ولم يشر كولمبوس بكلمة عطف واحدة في جميع كتاباته عن مصير هذا الشعب المضطهد ، بل عبر عن رغبته بمنعهم من الاستيطان في البلدان التي سيكتشفها . ولو كان بين اليهود الاسبان نبي جديد لأشار أمام مواطنيه المعذبين الى اسطول كولمبوس الذي أبحر في صباح ذلك اليوم من شهر آب قائلا : « شاهدوا تلك السفن التي ستنقل في الوقت المناسب ابناء اسرائيل الى كافة ارجاء الارض » .

كانت خطة كولمبوس للرحلة بسيطة ، وقد ضمنت له هذه البساطة النجاح . وما كان لكولمبوس ان يخشى الرياح العاتية والبحار الصاخبة والظلمة الرهيبة ، ولا المياه اللامتناهية في شمالي الاطلسي والتي خيبت آمال الكثيرين من البرتغاليين قبله وكسرت شوكتهم . فقد عزم على الابحار جنوبا بوجه الرياح الشمالية السائدة الى جزر الكناري ومنها يغير اتجاهه منعطفاً في زاوية قائمة لأنه كان قد لاحظ في سفراته الافريقية ان ريح الشتاء تهب على خطوط العرض المارة بجزر الكناري من الشرق وان مياه « المحيط حولها غالباً ما تكون صافية وهادئة كالمياه الراكدة في بركة الطاحون » وكان هناك سبب آخر أفضل لوضع خطة انطلاقه من جزر الكناري هو وقوعها على جانبي الدرجة ٢٨ من خط العرض الذي يمر ، على ما كان يعتقد ، باليابان مخترقاً في طريقه جزيرة

(١) هولندا .

« الانتيل » الاسطورية والتي ستكون نقطة استراحة بديعة له في طريقه غربا ! والى مئة سنة خلت عندما شاع استعمال الكرونومتر ( جهاز قياس الوقت ) لتحديد خطوط الطول ، كان البحارة يحاولون تحديد خط عرض المكان الذي يقصدونه ثم يبدلون اتجاههم غربا او شرقاً حسب مقتضى الحال الى ان يصلوا اليه . وهذا ما فكر ان يطبقه كولمبوس بالنسبة الى اليابان التي ظن انها — أي اليابان — لا تبعد عن جزر الكناري بأكثر من ٢٤٠٠ ميل بحري غربا .

قطع كولمبوس المرحلة الاولى من الرحلة بأقل من اسبوع . وعلى مرأى جزيرة الكناري الكبرى اندفع الاسطول في بحر رائق استمر لفترة يومين او ثلاثة ، قرر كولمبوس بعدها ان يرسل السفينة بنتا ، الى « لاس بالماس » لاجراء بعض التصليحات بينما تابعت السفينتان « سانتا ماريا » و « نينا » مسيرتهما الى « جوميرا » الواقعة على ابعد نقطة غربية من جزر الكناري ، والتي كان الاسبان قد اغتصبوها من سكانها الاصليين . وفي « جوميرا » ارسل القائد العام ( كما سنسمي كولمبوس في هذه الرحلة قبل تنصيبه اميرالا ) بعض رجاله الى الشاطىء ليملأوا بعض البراميل الخشبية بالماء ، وليشتروا كميات اضافية من الخبز والجبن وكمية من لحم البقر كبسوها بالملح والخل وبعدئذ أبحر الى لاس بالماس حيث أشرف بنفسه على التصليحات الجارية على سفينته الثالثة « بنتا » وعاد بها الى جوميرا .

وفي الثاني من ايلول كانت السفن الثلاث تلقي مراسيها في مرفأ جزيرة سان سبستيان حيث تقابل كولمبوس لاول مرة مع دونا بياتريز دى بوباديللا ، ارملة حاكم تلك الجزيرة السابق . وكانت سيدة جميلة لا تتجاوز الثلاثين من عمرها ، وقد قيل ان كولمبوس وقع في حبها . فاذا كان هذا صحيحاً فالظاهر انه لم يغرم بها لدرجة تبقيه بقربها حتى اكتمال القمر بدراً .

وبسرعة نقلت كميات اضافية من المؤن الى السفن ووضعت في العنابر ، وفي ٦ ايلول عام ١٤٩٢ رفعت سفن الاسطول مراسيها لآخر مرة في العالم القديم !

وكان عليهـــا ان تمر بجزيرة اخرى هي جزيرة فرو او هيرو الشاهقة . ونظراً لهدوء الامواج واعتدال الطقس بقيت جزيرة فرو وقمة تناريف التي يبلغ ارتفاعها حوالي ١٢ الف قدم مرئية لغاية التاسع من ايلول وما ان حل ليل ذلك اليوم ، حتى غاب كل اثر لليابسة وراء الافق الشرقي ، وأضحت السفن الثلاث وحدها في المحيط المجهول .

وحدد كولومبوس وجهة السير بنفسه ، هكذا : « الى الغرب ... وليس الى الشمال ولا الى الجنوب ابداً » .

وقبل الدخول في تفاصيل الرحلة ، دعنا نرى بأنفسنا كيف كانت تدار تلك السفن ، وكيف كان النهار يمضي في عرض البحر . كانت العلوم الفلكية البحرية في ذلك الحين في طور نشأتهـــا ، ولكن تقديرات تقريبية عن خطوط العرض كان يمكن استنتاجها من علو النجمة الشمالية فوق الافق وعلاقتهـــا بالنجمين البعيدين اللذين يعرفان باسم « الحارسين » وهما نجمتا الدب الاصغر .

وكان مجرد تطبيق معادلة بسيطة بعد تحديد ارتفـاع الشمس عند الظهيرة ومقارنة هذا الارتفاع بالجداول المتوفرة لمعرفة مدى انحرافها ، يكفي للوصول الى تحديد خطوط الطول . ولكن معدات المراقبة المصنوعة من الخشب القاسي ، والمِزْولة [1] المصنوعة من النحاس والاسطرلاب [2] كانت بدائية حتى ان تقلبات السفينة كانت تقذف بها بعيداً وتبعثرها هنا وهناك . لذلك كان معظم الملاحين يحددون خطوط العرض وهم على الشاطىء . اما كولمبوس فكان يعتمد كل الاعتماد على التقدير الرزين الذي يعني تحديد وجهة السير والمركز على الخارطة بالاعتماد على عوامل ثلاثة هي : الاتجاه والوقت والمسافة !

فكان يحصل على الاتجاه المعين من احدى البوصلات المشابهة لتلك التي ظلت قيد الاستعمال في السفن الصغيرة الى وقت قريب – وهي كناية عن ورقـــة كرتون مستديرة مقسمة الى ٣٢ درجـــة على الشكل التالي : ش ، ش شرقي ،

(١) آلة لقياس الزوايا .

(٢) آلة فلكية قديمة .

ش ش شرقي ، ش شرق بقرب ش ش شرق ... وهلمجرا .. وفيهـــا حجر مغناطيسي موضوع مباشرة تحت رأس الابرة الشمالي المركبة على مسمار ومحاطة بصندوق فيه قاعدة مستديرة لكي تتحرك بحرية كلما تحركت السفينة .

وكانت بوصلة كولمبوس الاصلية مركبة على ظهر مؤخرة السفينــــة بحيث يستطيع ضابط الرقابة ان يراها . اما المسؤول عن الدفة الذي كان يسيرهـــا بذراع ثقيلة تتصل مباشرة بقمة الدفة ، فلم يكن يستطيع ان يرى امامه كثيراً لان مكانه كان أدنى من ظهر السفينة . وربما كان يحتفظ ببوصـــلة أخرى يدير الدفة بواسطتها ، ولكن ماسك الدفة في السفن الصغيرة كان يسترشد بضابـط المراقبة ويحافظ على خط سير السفينة بواسطة تحسسه مسكة الدفة . وكان من المستطاع القيام بمثل هذا العمل في سفينة شراعية صغيرة ولكنه يستحيل في سفينة آلية .

أما الوقت في تلك الايام فكان يقاس بواسطة ساعة رملية معيرة لمدة نصف ساعة تعلق على دعامة حتى يتمكن الرمل من التدفق بسهولة من نصفها العلوي الى نصفها السفلي . وحالما يصبح الرمل كله في الأسفـــل يأتي الصبي ويقلب الزجاجة بعد ان يكون الضابط المسؤول على ظهر السفينة قد سجـــل الوقت بجرة قلم على لوح اردوازي . وكانت كل ثماني زجاجات تعني نوبـــة حراسة . وليست أجراس السفن الحديثة في الاصل الا وسيلة لتسجيل عدد الزجاجات . وكان بالامكان ضبط زجاجة النصف ساعة تلك عندما يكون الجو لطيفا وذلك بمراقبة اللحظة التي تأخذ فيها الشمس بالميل الى الجنوب،أي وقت الظهيرة محلياً.

أما المسافة فقد كانت العامل الاكثر تقلبا من تلك العوامل الثلاثة . اذ لم يكن في حوزة كولمبوس آلة لقياس سرعة السفينة او أية وسيلةاخرى لتقديرها، الا انه وضباط المراقبة كانوا يقدرونها تقديراً فقط ويدونونها في ملاحظاتهم .

وقد اكد القبطان ج.و. ماكلروي بعد المراجعة الدقيقة التي اجراهـا على دفتر كولمبوس اليومي لرحلته الاولى ، بأن كولمبوس افرط في تقدير مسافاته بنسبة ٩ بالمئة فقط .. ولكن هذا لم يمنعه من ايجاد طريق العودة الى وطنه وذلك

لأن الغلطة كانت ثابتة ، بينما كان الوقت والاتجاه صحيحين . وكل ما نتج عـــن ذلك هو ان كولمبوس وضع الجزر التي اكتشفها في مراكز أبعد غرباً مما كانت عليه بالحقيقة .

ونجد ، حتى بعد طرح الزيادة في تقديرات كولمبوس ان سرعة سفنه كانت مدهشة اذ كان ينتظر من السفن آنذاك ان تسير بسرعة ٣ الى ٥ عقد في الريح المعتدلة . وتسع ونصف عقدة في الرياح القوية أو النوء المعتـــدل ، وفي بعض الأوقات كان بوسعهـــا ان تسير بسرعة ١٢ عقدة في الساعة . وقد تبين ان اسطول كولمبوس سار في تشرين الاول عـــام ١٤٩٢ بمعدل ١٢٤ ميلا في اليوم لخمسة ايام متتالية . وبلغت اقصى سرعته ١٨٢ ميلا في اليوم الواحـــد . أي بمعدل ٨ عقد بحرية في الساعة . وفي رحلة العودة قطعت السفينتـــان نينا وبنتا ١٩٨ ميلاً في أحد ايام شباط من عام ١٤٩٣ ووصلت السرعة احيانـــاً الى ١١ عقدة في الساعة . إن أي صاحب يخت في أيامنا هذه يعتز ويفخر اذا ما سجل الارقام التي سجلهـــا الاميرال العظيم في بعض رحلاته عبر المحيط في القرن الخامس عشر ! والغريب ان معظم التحسينات التي ادخلت على السفن منـــذ عام ١٤٩٢ حتى الآن انحصرت في جعل السفن اكثر احتمالاً لاعباء الملاحة وتوفير اسباب الراحة فيها دون الاكتراث للسرعة .

وكان من اسباب اصرار كولمبوس على اصطحاب اكثر من سفينة واحدة في رحلاته ، رغبته بان تقوم احدى السفن باعمال الانقاذ في حالة تعرض الأخرى للغرق . ومع ذلك فقد حقق سجلاً ممتازاً بعدم فقدانه أية سفينـــة في عرض البحر ، اللهم إلا اذا حسبنا سانتـــا ماريا التي جنحت على الشاطىء دون ان تسبب أية خسارة في الأرواح . وكانت وسائل التسلية واسباب الراحة مفقودة تماماً ، فكان الطبخ يجري على ظهر السفن فوق طبقة من الرمل في صندوق خشبي يحميه من الريح قمع كبير . وكان الطعام على رتيبة واحـــدة — أي اللحم المملح والبقسماط والفصوليا المجففة . أما الشراب فكان النبيذ طالمـــا هو متوفر . ثم يشربون الماء المعبأ في براميل الخشب والذي غالباً مـــا كان يفسد بسبب طول

المدة وكان للقائد العام والقباطنة الآخرين فقط غرف للنوم مزودة بالفراش . اما الآخرون فكانوا ينامون بثيابهم وحيث يستطيعون !

وكان البحارة في تلك الايام اكثر الرجال تديناً. وكان لكل سفينة صبي يعهد اليه بترنيم انشودة عند الفجر ، هذا مطلعها :

تبارك ضوء النهار !

فيردد البحارة : والصليب المقدس !

ثم يقوم بعدها بتلاوة صلاة الرب ومديح العذراء ويتضرع الى الله كي يبارك جماعة ( طاقم ) السفينة . وكلما انقضت نصف ساعة يعود الى الانشاد وهو يدير الزجاجة . وها كم بعض ما كان ينشده والذي نسميه اليوم بالخمسة أجراس .

مرت الخامسة وها هي السادسة تجري

سوف يمر وقت اكثر بمشيئة الله

عد وامشي ... تجعل الرحلة اسرع

وبعد غروب الشمس ، وقبل بدء نوبة الحراسة الليلية كان ينادي على الجميع لتأدية صلاة المساء التي كان يبدأها الولد وهو يضيء المصابيح منشداً :

اعطنا يا رب ليلة ممتعة وسفرة موفقة

ودع سفينتنا تشق طريقها بسلام

برفقة ربابنا ومعاونيه والزملاء الاخيار .

عندئذ يرفع الجميع أيديهم مبتهلين الى الله وهم يصلون « نؤمن باله واحد .. »

ثم يصلون الى العذراء ويختتمون صلاتهم بانشاد تسبيحة « سالفي رجينا » التي كان ينشدها البحارة على طريقتهم الخاصة فيزعقون ويصرخون بعدة ألحان موسيقية مشوهين جمال الكلمات اللاتينية الفخمة . ولكن ترى هل يجعلها هذا ( النشاز ) اقل قبولاً لدى العذراء التي يشعر جميع البحارة بالاطمئنان

في ظل حمايتها ؟!

والان يعود الصبي الى الانشاد بعد ان يكون قد قلب زجاجة الساعة الرملية للمرة الثامنة :

الرقيب مدعو ...

فان الساعة تجري ...

سوف نقوم برحلة طيبة

ان شاء الله ...

وفيما السفن تسير غرباً خلال الليـــل الاستوائي الساكن ، وهي تترنح وتتهادى وتنتفخ أشرعتها وتتمدد ، وتتوتر حبالها ، وتقذف مقدماتها الزبد ... تعلن الترنيمة التالية مرور نصف ساعة على المسير :

دعونا نصلي الى الله تعالى

لكي يمنحنا رحلة طيبة

وبكرامة الام المباركة

شفيعتنا في السماء ،

ينجينا من حيات البحار

ويبعد عنا العواصف !

ولنكتف الآن بهذا القدر من الشعائر الدينية التي كانت تمارس يومياً مهـــما كان الطقس ولننتقل الى شرح تفاصيل الرحلة وحوادثها :

قرر كولمبوس في التاسع من ايلول أي في اليوم الذي غابت فيه اليابسة عن الرؤيا وراء الأفق ، ان يحتفظ بتقديرين عن رحلته : الاول صحيح يحتفظ بـه لنفسه والثـاني مصطنع يطمئن به رجاله لكي لا يشتد بهم الخوف وهم على بعد

شاسع من اليابسة . ولكن تقديره المبالغ فيه عن السرعة جعل التقدير المصطنع أقرب الى الواقع من التقدير الصحيح .

ظلت الرياح الموسمية الشرقية تهب بتؤدة أثنـــاء العشرة أيام الأولى من الرحلة – أي من ٩ – ١٨ ايلول – وقطع الاسطول مسافة ١١٦٣ ميلاً بحريا في اتجاهه غرباً . وكانت هذه المدة بمثابة شهر العسل للرحلة وكتب عنها كولمبوس في مذكراته هذه الفقرة : «يا له من انشراح ذلك الذي تولده نكهة الصباح». ان هذه الفقرة تتجاوب مع قلب كل انسان قام بالسفر في الرياح الموسمية ، وتعيد الى مخيلته صورة الفجر الجميل وقد صبغ الغيوم والأشرعة بلون الورد ... وتذكره رائحة الندى الآخذ في الجفاف على سطح السفينة الخشبية ... وشيئـــاً آخر لم ينله كولمبوس ... الا وهو أول فنجان من القهوة . وبما ان سفنه كانت على الطرف الشمالي لمهب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية حيث تصطدم الريح اولاً بالمـــاء ، كان البحر هادئـــاً ، والهواء ... كما اشار كولمبوس في مذكراته « اشبه بايام نيسان في الأندلس ، ولم يكن ينقصنـــا سوى سماع تغريد البلابل » وكانت اصناف اخرى من الطيور تلحق بالسفن ، منها : فراخ الام كاري وهي تلبلب بمناقيرها على خشبة طافية على سطح المياه في ثنايا امواج المقدمة ، وطير الرئيس ، هكذا كانوا يسمونه نظراً لريش ذيله الطويل وكذلك طير القناصة الذي كتب عنه الشاعر والت وايتمان : « انت سفينة الهواء التي لا تطوي اجنحتها ابداً » .

وعندما ابتعد الاسطول عن مكان هذه الطيور ، ناداه النورس[1] الكبير ! وفي هذه الاثناء كان الاسطول يمخر عباب اول منطقة يكثر فيها عشب البحر الذي وجد البحارة انه لا يعيق الملاحة . وظلت عبارة « رأيت عشباً كثيراً » تتردد يومياً في دفتر مذكرات القائد العام ، الذي لم يضايقه وجود العشب بمقدار ما ضايقه ملاحظة انحراف البوصلة لجهة الغرب ، ذلك لان هذا الانحراف يكون دائماً لجهة الشرق في المياه الاوروبية .

وما ان دخل الاسطول يومه العاشر بعد مغادرته جزيرة فرو – اي في ١٩

(١) طير مائي كبير .

ايلول حتى اخذ يبحر تدريجياً في منطقة متقلبة الرياح وكثيرة المطر ، قريبة من المكان المفروض ان تكون فيه جزيرة الانتيل الاسطورية ، كما عينهـا كولمبوس على خارطته ، وانتظر الجميع ان يشاهدوا اليابسة . حتى ان القائد العام انزل عاموداً لقياس الأعماق ، ولشد ما كانت دهشته عندما لم يصل العامود الى قرار على عمق ٢٠٠ قامة ! ولا عجب فان عمق المحيط في المنطقة التي وصل اليها يبلغ حوالي ٢٣٠٠ قامة . ولكن البحارة الذين بدأوا في اليوم العاشر لهبوب الرياح الموسميـة يتساءلون فيما اذا كانوا سيتمكنون من العودة الى وطنهم ، عادوا فانتعشت آمالهم للتبدل الذي طرأ على الريح . وخلال الأيام الخمسة التالية قطع الاسطول مسافة ٢٣٤ ميلاً فقط ، كان الطقس خلالها لطيفاً ممـا اتاح للبحـارة تبادل الأحاديث بين سفينة واخرى عن الجزر التي سيكتشفونهـا وخصوصاً عن الانتيل وسانت برندان . وحدث خلال أحد هذه الاحاديث ان صرخ بحار من بنتا « اليابسة ، اليابسة » مما جعل كل بحار يعتقد بأنـه رأى جزيرة مقابل الشمس الغاربة . وخر كولمبوس على ركبتيه راكعـاً ليشكر الله وأمر الجميع بأن ينشدوا ترنيمة المديح الالهية وعين وجهة سير الاسطول نحوالجزيرة . ولكنهم عند بزوغ الفجر لم يعثروا على أي اثر لأيـة جزيرة اذ لم يكن هناك جزيرة ، ولم تكن الصخور الخداعة سوى حافة غيمة كانت فوق الأفق الغربي شبيهة باليابسة وهذه ظاهرة طبيعية تحدث عادة في عرض البحر . ومع ذلـك تمنى مارتن الونزو بنزون ان يحوم حول المكان للتفتيش عن هذه الجزيرة لكن كولمبوس رفض ذلك لأن هدفه كان على حد قوله « الوصول الى جزر الهنـد ، فليس لتباطئه مغزى ».

عادت الرياح الموسميـة الى الهبوب الآن ، ولكن باعتدال ، ولم يستطع الاسطول في الستة أيام الواقعة بين ٢٦ ايلول الى واحد تشرين اول ان يقطع سوى ٣٨٢ ميلاً فقط . فأخذ البحارة والحالة هذه يهمهمون ويتذمرون . فربمـا كانت الثلاثة اسابيع التي قضوهـا دون ان يروا اليابسة اطول من أي مدة قضوها من قبل فراح كل منهم يثير أعصاب الآخر كما يحدث حتى في أيامنـا هذه إبان السفر الى جهة معروفة ولكن في رحلة طويلة . ولم يكن هناك مـا يفعله

البحارة أثناء الرياح الخفيفة سوى متابعة العمل الروتيني وصيد السمك. وازداد الغم في صدورهم وأخذوا يزأرون بالشكوى لأسباب واقعية وخيالية ، وبدأت تتشكل بينهم الأحزاب والكتل . لقد كانت اسبانيا تبتعد عنهم مع مرور كل دقيقة ... ترى ماذايخبىء لهم القدر ؟!

ربما لا شيء ، سوى ما يراه ذلك الجنوي اللعين . فليجبروه على العودة ! او ليقذفوا به الى البحر !

وزادت قوة الريح في اليوم الأول من تشرين وقطع الاسطول في الخمسة ايام الواقعة بين الثاني والسادس من تشرين الاول — ٧١٠ أميال . وعندما اجتازوا الدرجة الخامسة والستون من خط الطول غربا وأصبح وضعهم الحقيقي شمالي بورتوريكو مباشرة ، اطلق مارتن الونزو بنزون العنان لسفينته الرشيقة بنتا تحت مؤخرة سفينة الاميرال وصاح «عدل الطريق يا سيدي الى جنوبية غربية . اليابان!» . لم يفهم كولمبوس ما اذا كان مارتن الونز قصد ان يقول له بأنهم اخطأوا اليابان وعليهم ان يديروا الدفة الى الجهة الجنوبية الغربية — غربا حتى يصلوا الى الصين ، او ان اليابان تقع في ذلك الاتجاه ؟ لكنه كان يعلم كما يعلم بنزون بان الاسطول قد قطع أكثر من مسافة الـ ٢٤٠٠ ميل التي تفصل جزر الكناري عن اليابان حسب تقديراتها . ومن الطبيعي ان يقلق كولمبوس ، لكنه أبقى البوصلة باتجاه الغرب المغناطيسي ، ذلك الاتجاه الذي كان في الواقع بسبب الانحرافات التي لم يأبه لها كولمبوس غربياً جنوبياً .

وعندما تراءى للبعض وللمرة الثانية سراب اليابسة الخداع في السابع من تشرين الاول ، مرت اسراب هائلة من الطيور فوق السفن وتبين ان وجهة طيرانها كانت غربية — جنوبية — غربية ، وكان هذا الوقت أوان نزوحها الخريفي من شرقي اميركا الشمالية الى جزر الهند الغربية . فقرر كولمبوس انه من الأفضل ان يتبع سير الطيور بدلا من الخارطة ، واقدم على تغيير وجهة سيره في ذلك المساء . لقد كان ذلك فألا حسنا لانه سلك اقصر الطرق للوصول الى أقرب مكان من اليابسة . وكان منظر اسراب الطيور الآن ، وفي الليالي

المتتالية باعثاً على شد عزائم البحارة الذين كانوا يشاهدونها في ضوء القمر ( وقد غدا بدراً في الخامس من تشرين الاول ) وكأنها تشاركهم الطريق في طيرانهـا . ولكن في العاشر من تشرين الاول تأججت نار العصيان ثانية فلا اثر لليابسة بعد واحد وثلاثين يوماً . ولقد أبحروا غرباً حتى أكثر من التقـدير الخاطىء الذي قدمه كولمبوس ، واكثر مما كان احد يتوقع : لقد شبعنا من هذا الهذيان الفارغ، انظل نبحر الى ما لا نهاية ، وعلى القائد العام ان يعود والا . . ! « ويقول السجل بان كولمبوس طيب خاطرهم باقصى ما يستطيع واكد لهم الأمل الكبير بالفوائد التي سيحصلون عليها». واضاف يقول: « ان من العبث التذمر فقد أتى للوصول الى جزر الهند وسيتابع طريقه حتى يعثر عليها باذن الله » .

كان ذلك مثالاً عن عزم كولمبوس . ومع ذلك ، وحتى هو ، الواثق بالعناية الالهية ،لم يكن ليستطيع الثبات الى ما لا نهاية بدون مؤازرة قباطنته وضباطه . وبناء على احدى الروايات ، كان مارتين الونزو بنزون هو الذي يشدد من عزيمة كولمبوس بقوله له « اديلانتي » الكلمة التي ترجمها شاعر اميركي بانها تعني « ابحر الى الأمام .. الى الامام » .

ولكن اوفيدو ،احد المؤرخين الاوائل والذي يقال بانه تحادث مع المشتركين بالرحـلة ذكر ، ان كولمبوس هو الذي اقنع آل بنزون ولاكوزا بمتابعة المسير بعد ان وعدهم بأنه سيعود اذا لم يجد ارضـاً في غضون ثلاثة أيام . فاذا كانت هذه الرواية صحيحة وأنا اعتقد بانها كذلك ، يكون وعد القائد العام لربابنته قد صدر في التاسع من تشرين الاول .

وفي اليوم التـالي تجدد هبوب الرياح الموسمية فاندفع الاسطول بسرعة ٧ عقدات بالساعة ، وظلت الحـال كذلك لغاية اليوم الحادي عشر من تشرين الاول ثم اعتكر البحر وهاج . ولكن امارات اليابسة كظهور اغصـان الشجر باوراقها الخضراء اليانعة والأزهار الطافية على سطح المياه بدأت تظهر بكثرة مما اقنع البحارة بصواب القرار الذي اتخذه قائدهم العام وانطفأت همهمة التمرد في غمرة شعورهم بقرب ظهور جزر الهند للعيان .

وما ان غابت شمس اليوم الحادي عشر من تشرين الأول ، وراء افق صاف ، حتى اشتدت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وتحولت الى ريح هوجاء دفعت السفن بسرعة ٩ عقدات في الساعة ، إلا ان كولمبوس رفض ان يقصر مدى القلوع لأن الوقت الذي حدده لبلوغ اليابسة كان يمضي سريعاً ، ولذلك أشار كل شخص ان يقوم بالمراقبة بعين يقظة ، ووعد بمكافأة اضافية لأول شخص يرى اليابسة بالاضافة الى الراتب السنوي الذي وعد به العاهلان . وكانت ليلة القدر تلك صافية وجميلة لدى طلوع القمر متأخراً ، ولكن البحر كان اكثر هيجاناً منه في اي يوم من ايام الرحلة كلها ، وكان البحارة يشعرون بالتوتر وهم ينتظرون املاً جديداً وبدا القلق والتوقع على وجوه الضباط بينما بقي القائد العام محتفظاً برزانته وبثقته بالله ، الذي تجلت قدرته ، سيظهر له جزر الهند الموعودة !

وحوالي العاشرة ليلاً أي قبل طلوع القمر بساعة واحدة اعتقد كولمبوس وبحار آخر في ذات اللحظة تقريباً بأنهما شاهدا نوراً يشبه ضوء الشمعة يرتفع ويهبط . وقال آخرون بانهم رأوا النور وانه اختفى بعد دقائق ، ولكن اكثر البحارة نفوا ذلك ، وبعد ، لقد كتبت المجلدات لتوضيح ماهية ذلك الضوء وماذا يمكن ان يكون ، أما بالنسبة الى البحار فلم يكن الأمر بحاجة الى أي ايضاح ، فلم تكن تلك الظاهرة بالنسبة اليه سوى سراب خادع ناجم من فرط المراقبة الصارمة فعندما يجهد البحار نفسه لرؤية اليابسة في الظلام بدون ان يكون متأكداً من موضعه الحقيقي ، تتراءى له اضواء وومضات وهمية ويسمع طنين اجراس ليس لها وجود ، بل انه يرى اشباح امواج هائلة بينما يكون البحر صافياً هادئاً .

كانت السفن في اندفاعها الى الامام تهبط وترتفع ، تتقلب ذات اليمين وذات اليسار قاذفة الامواج الصغيرة على مقدمتها بينما الزبد الأبيض يعكس أشعة القمر ، وكانت السفينة بنتا تسبق الآخرين بمسافة نصف ميل بينما كانت سانتاماريا على يسارها من جهة ونينا من الجهة الاخرى . وكان تقدم بنتا حافزاً لاثارة شعور التسابق بين البحارة فكانت تتقدم احداها تارة والأخرى طوراً السفن الثلاث تسير بأقصى ما تستطيع من السرعة . وبنهاية الرمل الموجود في

الزجاجة السادسة لتوقيت الحراسة الليلية انتهت فترة بدأ بعدهـــا فجر تاريخ جديد . ومضت دقائق قليلة أدار بعدها القدر ساعة جديدة مـا زالت الاجيال تراقب انسياب الرمل منها حتى يومنا هذا .

بل ولم يحدث منذ ولادة المسيح ، ان مضت ليلة مفعمة بالمعاني والآمـــال للجنس البشري كتلك الليلة الفذة .

ففي الثانية صباحاً من ١٢ تشرين الاول شاهد رودريغودي تريانا وهو يقوم بدور المراقبة على برج السفينة « بنتا » شيئاً ابيض كقمة صخرية يلمع في أشعـة القمر فأخذ يصيح مبهوراً « تييرا تييرا » ( اليابسة ! اليابسة ! ) وبعد ان تأكد القبطان بتزون من ذلك ، أطلق المدافع حسب الخطة المرسومة وأمر بتخفيض القلوع حتى يساعد سفينة الاميرال على اللحاق بسفينته . وفيما كانت سانتا ماريا تقترب لعلع القائد العام بصوته وسط المياه الصاخبة قائلا : حقاً يا سنيورمارتين الونزو انك وجدت اليابسة وعليه تستحق مبلغ خمسة الاف مارافديس كمكافأة لك!

نعم ، لقد وجدوا اليابسة هذه المرة ، وكانت جزيرة صغيرة من مجموعـــة جزر البهاما . وتوجه الاسطول رأساً باتجاه الريح المقابل للمرتفعات الرمليـة ، اذ كان معرضاً للتحطيم فيما لو حافظ على وجهة سيره . كما ان البحارة كانوا اكثر مهارة من ان يسمحوا لشيء كهذا ان يحدث . وعندئذ ، أمر القائد العـــام بتخفيض القلوع وطلب الى الاسطول ان يتلكأ الى ان يبزغ نور الصباح . ومـا ان اصبح الفجر حتى سار الاسطول بأقصى سرعته فاجتاز النقطـــة الجنوبية للجزيرة وأخذ يفتش عن معبر الى الشاطىء الغربي وسط حاجز من الصخور المرجانية . وقبل الظهر بقليل وجدوا ضالتهم ودخلوا في خليج قليـــل الغور يدعى اليوم خليج « لونغ » او « فرنانديز » ورست السفن في مكان محجوب عن الريح على عمق خمس قامات .

وهنا ، وعلى شاطىء براق بالمرجـــان الابيض تم نزول كولمبوس الشهير الاول الى اليابسة . وذهب القائد العام — الذي اصبح الان اميرالا بموافقـــة

الجميع – الى الشاطىء في زورق القيادة يرفرف عليه لواء كاستيل الملكي ، بينما
ركب القبطانان من آل بنزون في زورقيهما يرفرف عليهما شعار الحملة الذي كان
كناية عن صليب متوج من اللون الاخضر مرسوم على قطعة بيضاء . وما ان
وصلوا الى الشاطىء حتى ركع الجميع على الارض يقدمون صلاة الشكر للرب ،
على رحمته ومساعدته لهم بالوصول اليها ومحتضنين التراب بدموع الفرح والسرور ،
ثم نهض الاميرال واطلق على الجزيرة اسم « سان سلفادور » أي – المنقذ المقدس .

# الفصل السابع

## آسيا ، او ماذا ؟

هرول سكان « جوانا هاني » كما كانوا يسمون هــذه الجزيرة ، الى الادغال عندما شاهدوا ثلاثة وحوش بحرية تقترب من الشاطىء، ولكن حب الاستطلاع استولى عليهم فأخذوا يختلسون النظر الى القادمين ، وعندمـا شاهدوا بعض الآدميين ينزلون الى الشاطىء بألبستهم الغريبة ، خرجوا من مخبئهم وأخـذوا يقتربون منهم بوجل حاملين معهم الهدايا بقصد استرضائهم.وكان لابد لكولمبوس من ان يعتقد بأنه وطأ ارض جزر الهند ، ولذلك سمى سكان الجزيرة بالهنـود ، وهكذا اصبح سكان اميركا الاصليين يعرفون بالهنود في جميع اللغات الاوروبية!

كان أولئك السكان الذين التقى بهم كولمبوس لأول مرة من فرع « تاينو » من مجموعة القبائل المتكلمة بلغة اراواك . وكانوا قد اتوا من البر الاصلي خلال القرن الغابر في قوارب صغيرة من جذوع الأشجار ، ولم تكن اسلحتهم اكثر من الرماح الخشبية ، وكانوا قد اغتصبوا جزر البهامـا ومعظم اراضي كوبا من فصيلة « سيبوني » الذين كانوا يحيون حياة بدائية اكثر منهم . كان افراد « التاينو » يمارسون زراعة الذرة واليام وبعض الجذوع الأخرى التي تصلح للأكل ، وكانوا يجيدون صنع الخبز من النشاء الذي يستخرجونه من شجرة الكاسافا ، كما يجيدون

غزل القطن وحياكته وصنع الاواني الخزفية . ودهش الاسبان لدى مشاهدة اجسامهم الجميلة ، وعريهم الكامل تقريباً ، كما لاحظوا بدهشة زائدة ما كان يتحلى به بعضهم من الحلق المصنوع من الذهب الخالص المتدلي من انوفهم . وقد كتب كولمبوس عن صراحة ابناء الطبيعة هؤلاء وكرمهم فقال: « انهم يدعونك الى مشاركتهم بكل شيء يملكونه ويظهرون من المودة ما يجعل المرء يعتقد بأنهم يقدمون قلوبهم ايضاً ، وكان جهلهم المال والحديد وعريهم الكامل يوحي الى كل اوروبي مثقف أنهم من بقايا « العصر الذهبي » .

وكتب مارتير ، اول مؤرخ للعالم الجديد يقول : « يبدو انهم يعيشون في ذلك العالم الذهبي الذي طالما افاض الكتاب القدامى من الحديث عنه ، حيث يعيش الانسان بكل بساطة وبراءة ودونما حاجة لتطبيق القوانين وتنفيذها ، وبدون مشاجرات وبلا قضاة ولا تشهير ، قانعاً فقط بان يرضي الطبيعة » . أما كولمبوس فكان يفضل أن لو قابل الشرقيين المثقفين بدلاً من هؤلاء « المتوحشين الاكارم » لكنه جرياً على عادته استفاد من الوضع على افضل وجه فقال ملاحظاً: « ما اسهل تنصير هؤلاء الناس وجعلهم يعملون لنا » . وبمعنى آخر ، كان كولمبوس يرى ان يستعبدهم مقابل تخليص أرواحهم . ويبدو ان جميع الاسبانيين اخذوا من البحارة الذين عادوا من هذه الرحلة الاولى الفكرة القائلة بان الرجل الأبيض لن يحتاج في العالم الجديد لان يشغل يديه في أي عمل كان لأن الله قد هيأ لهم اناساً لكي يقوموا على خدمة اسياد الخلق .

ظل كولمبوس طوال يومين يجوب سان سلفادور وكانت آنئذ جزيرة رائعة تغطيها غابات كثيفة من الاشجار الاستوائية الصلبة . ولكن مهما كان اكتشاف هذه الجزيرة الجديدة واهالي العصر الذهبي باعثاً على الدهشة والسرور ، إلا أن الاميرال كان يعرف تمام المعرفة ان عليه ، ان هو اراد ان يثبت نجاح رحلته ، ان يرجع ببرهان أكيد على وصوله الى اليابان او الصين او ان يعود بكميات من الذهب والبهارات . وقد ذكر له أهالي سان سلفادور بلغة الاشارة ان عشرات الجزر تنتشر الى الغرب والى الجنوب من جزيرتهم . وبدا لكولمبوس أن الجزر

التي يتحدثون عنها لا بد ان تكون الجزر الظاهرة على خريطته والتي تقع جنوبي ارخبيل سيبانجو . فاذا هي لم تقده الى اليابان الغنية بالذهب ، فهي ولا شك ستكون مراحل في طريقه الى الصين .

وهكذا اندفع كولمبوس مبحراً بعـــد ظهر الرابع عشر من تشرين الاول مصطحباً معه ستة من الهنود كأدلاء . وفي ذلك اليوم اكتشف جزيرة أخرى سماها سانتا ماريا دي لكنسبيسون – ويسميها الانجليز بلغتهم العاديـة جزيرة « روم كاي » . وقد ظهر ان سكانها لا يختلفون عن سكان جزيرة سان سلفادور كما انهم فرحوا بالقبعات الحمراء والخرز المصنوع من الزجاج واجراس الصقور ، التي اهداهم إياها الاميرال . ولقد اثبتت تلك العملية التجارية المعروفـــة على الشاطىء الافريقي ، أنها لا تقل رواجاً هنـــا في جزر الانتيل أيضاً ، وعلى الأخص أجراس الصقور ، وهي اجراس مستديرة صغـــيرة بحجم قطر ربع الدولار او الشلن تربط باعناق صقور القنص وقد احبها الاهالي لرنتها القصيرة المفرحة التي كانت صورة صوتية مصغرة عن صوت المطرقة . وقد أحبها الهنود كثيراً فكانوا يجدفون حتى سفينة القيـادة ثم يهزون أصابعهم ويقولون « تشوك تشوك » أي « نريد المزيد من اجراس الصقور» . كذلك أحبوا : اطراف الدنتلة والاسنان المعدنية التي كانت تستعمل لربط ثياب الرجال وصنوج الدف النحاسية .

واشد ما كان يتمنى الادلاء الوطنيون ارضـــاء الاميرال ، ولذلك ظلوا يؤكدون له بالاشارات والتلميحات بأنه سيجد ذهباً كثيراً في الجزيرة التالية ، ولكنه تأكد بعد ان مر بكل من «لونغ ايلند» –الجزيرة الطويلة «وكروكد ايلند» – الجزيرة المتعرجة « وفيوتشر ايلند » – جزيرة المستقبل ، بأن هذه الجزر لا تختلف في شيء عن جزيرة سان سلفادور . اذ كانت كل منها كناية عن قطعة ارض صغيره منبسطة ، تغشاها الادغال ويقطنها بعض الاهالي اللطفاء الذين لا يملكون من الذهب اكثر من قطع زينة صغيرة حصلوا عليها من مكان آخر . أما اين هو هذا المكان ، فلم يستطع كولمبوس معرفة ذلك ، نظراً لاختلاف اللغـة

التي كانت تقف حاجزاً منيعاً ، كما ان الترجمان لويس دي توريز وجد ان لغته العربية لا تفيد شيئاً .

كان كولمبوس اول اوروبي شاهد الذرة الهندية ، وأراجيح الشبك المنسوجة من القطن المحلي وكذلك اليام [١] والبطاطا الحلوة . كما شاهد شجرة قدر ان خشبها يصلح للصباغة . ولكنه لم ير أية دلائل تشير الى وجود الذهب سوى ما كان يتحلى به الأهالي .

وعندما ازدادت امكانية التفاهم بين الاميرال وادلائه الهنود ، فهم منهم بان هناك جزيرة كبيرة تدعى كولبا ( كوبا ) فاعتقد جازماً انهـا اليابان او جزءاً من الصين . وهكذا عزم على الذهاب اليها ، فقاده الهنود في الطريق التي يسلكونها بقواربهم الصغيرة وكانت اقصر طريق ممكنة فوق المياه الزرقاء . وعبروا ممر جزيرة كروكد الى خط كيز جنوب شرقي جزيرة البهاما الكبرى . وفي ٢٧ تشرين اول ابحر الاسطول مسرعاً بمساعدة النسيم الشمالي – الشرقي ، من جزيرة وعرة ماراً فوق مياه ضحلة تعرف اليوم بضفة كولمبوس ، الى المكان الذي أشار اليه الهنود أي جزيرة كولبا ( كوبا ) ودخلوا في صباح ٢٨ تشرين الاول مرفأ « باهيا بارياي » في مقاطعة اورنتي من اعمال كوبا . وقـد اشار كولمبوس في دفتره اليومي بأنه لم ير في حياته مرفأ جميلاً كهذا المرفأ ، تكثر فيه الأشجار الطريفة الخضراء التي تختلف عن أشجار بلاده وكان بعضهـا يشع بالازهار والبعض الآخر مثقلاً بالاثمار بينما كان الهواء مفعماً بتغاريد الطيور . ولكن أين معالم اليابان من بين هذه المناظر كلها ؟ أين المعابد المسقوفة بالذهب ، والمدافع البرونزية التي تشبه فوهاتها فم التنين ؟ وأين الأشراف والسيدات بثيابهن المطرزة بخيوط الذهب ؟؟

مسكين كولمبوس لقد حاول جاهداً ان يجد ما يكافيء به نفسه في الاشياء الغريبة التي رآها بدلاً من الأشياء الشرقية التي كان يتشوق لرؤيتها . كما كان

---

(١) نوع من البطاطا

من الصعب تصوير المناظر والازهار وسكان كوبا باسلوب شيق مقنع يرضي به الرجال العظام في اسبانيا . ولم يكن باستطاعته قبول الفكرة المزعجة بأن هذا لم يكن الشرق ولكنه عالم جديد !

وفي اليوم التالي ابحرت السفن الثلاث غرباً على طول شاطىء كوبا الغني بالموانىء وكولمبوس يحدوه الأمل في كل لحظة بان يلتقي بالسفن الصينية القادمة للترحيب به . وأخيراً القت السفن مراسيها في « بورتوجيبارا » حيث مكثوا مدة اثنتي عشر يوماً ، قاموا خلالها فقط بنزهة قصيرة الى الغرب باتجاه بونتاكوباروبيا .

وبما ان المترجمين من « سان سلفادور » اكدوا للهنود المحليين بان هؤلاء الاغراب الذين هبطوا على الشاطىء في سفنهم المخيفة ذات الجوانب المجنحة البيضاء ، هم اناس طيبون يحملون معهم اكداساً من البضائع الممتازة للمقايضة ، نشط العمل بعض الوقت . ورغبة بارضاء كولمبوس ، اخبره المترجمون عن وجود ذهب كثير في الداخل في مكان يدعى كوباناكان أي وسط كوبا . ولكن الاميرال وهو في لهفته لتقديم كتاب التعريف الى امبراطور الصين ، أخطأ فهم كلمة كوباناكان وظن ان التراجمة قالوا « آل غران كان » أي « الخان العظيم » فقرر ان افضل ما كان يمكن عمله هو ارسال بعثة ديبلوماسية الى كوباناكان . فعين لويس دي توريز ، العالم باللغة العربية رئيساً للبعثة مع رودريغو دي كسيرس البحار الكفؤ ، مساعداً له لأنه سبق وقابل ذات مرة ملكاً زنجياً في غينيا مما يفرض عليه معرفة الطريقة الرسمية للدخول على الاسر الملكية الوثنية ! وهكذا حمل الهنود الحقيبة الديبلوماسية التي تضم ( جواز سفر لاتينياً وكتاب اعتماد ملكياً الى الخان العظيم ) وهدية لائقة للملك ، وسبحات من الخرز الزجاجي ليشتروا بها المأكولات من الوطنيين .

وانطلقت البعثة مشياً على الاقدام في وادي نهر « كاكويوغوين » مارة بسهول مزروعة بالذرة والفاصوليا والبطاطا الحلوة ، متجهة الى حيث اعتقدوا انها مدينة « كامبالوك » الامبراطورية حيث يقيم الخان العظيم . لكن وآسفاه

لقد كانت قرية ليس فيها اكثر من خمسين كوخاً مسقوفاً بالنخيل تنتشر حيث تقوم اليوم مدينة « هولجوين » . وهناك استقبل الاسبانيان كأنهما هابطان من السماء وأقام لهما رئيس القبيلة وليمة تكريم بينما احتشد ابناء الشعب وراحوا يقبلون أقدامهما ويقدمون اليهما الهدايا البسيطة . وشغف البحار رودريغو بهذه المعاملة التي لم يلاق مثلها اثناء تجواله في افريقيا ، بينما شعر توريز بخيبة امل ساحقة ، لأنه لم يجد من يفهم لغته العربية وبالتالي لأنه كان يتوقع استقبالاً فخماً من قبل اناس متحضرين في عاصمة تضم ما لا يقل عن العشرة آلاف بيت حجري .

ومع ذلك ، اكتشفت البعثة في طريق عودتها الى المرفأ ، اكتشافاً كان له ، لو علمت ، اثراً أبعد مدى في سعادة الانسانية من أي اتفاق كان يمكن عقده مع الصين . وكان هذا الاكتشاف بكلمات كولمبوس نفسه هو : « التقت البعثة باناس كثيرين كانوا عائدين الى قراهم وهم يحملون جمرة نار وحشائش يستنشقون الدخان المتصاعد منها كما هي العادة عندهم » . اظنك حزرت ذلك الشيء أيها القارىء ؟ انه التبغ ، وكانت تلك المناسبة المرة الاولى التي عرف فيها الاوروبيون التبغ . لقد كان افراد قبيلة التينو يستعملونه بشكل سيجار ويسمونه توباكوس .

وكانت الجماعة التي شاهدتها البعثة تسير حاملة سيجاراً ضخماً تشعله لدى كل وقفة من جمرة نار ، ثم يتناوب كل من افرادها اخذ ثلاثة أو أربعة « جرعات » من خلال منخريه وبعد ان ينتعش الجميع يعاودون السير ، بينما يقوم صغار الاولاد بالمحافظة على جمرة النار مشتعلة حتى الوقفة التالية . وهكذا لم يمض وقت طويل على استيطان الاسبان في العالم الجديد حتى جربوا تدخين التبغ فأعجبوا به وأحبوه . وعن طريقهم ، انتشر استعماله بسرعة في اوروبا وآسيا وافريقيا .

اجهد كولمبوس نفسه اثناء غياب البعثة في اعادة النظر في تقديراته ومعلوماته وقدر انه قطع مسافة ٩٠ درجة غرباً . وكان هذا طبقاً لمبالغته في تقدير طول

آسيا كفيلاً بان يضع سفنه على حدود الصين تماماً . ولذلك قرر ان كوبا هي فعلاً « مقاطعة مانجي » الاسم الذي كانت تضعه خرائط الصين الخيالية ، التي كان كولمبوس قد درسها ، فوق شبه جزيرة في الزاوية الجنوبية الشرقية للامبراطورية حسبما ترامى له من بعض الخرائط الخيالية عن الصين . وحاول الاميرال ايضاً ان يهتدي الى نجمة الشمال بمقياسه البدائي للزوايا ، ولكنه لسوء الحظ اختار النجمة الخاطئة وهي نجمة « الفرق » من فلك الملتهب ( قيفاوس ) التي كانت في مساء تلك الليلة من تشرين الثاني تشع معلقة فوق نجمة القطب تماماً ، وهكذا استنتج ان كوبا تقع على الدرجة ٤٢ من خطوط العرض ، أي خط العرض التابع لـ « كاب قد » ( رأس قد ) ! وبالطبع عرف ان هذا التقدير خاطىء ، فقد ابحر عبر الدرجة ٢٨ شمالاً ، كما انه في تقريره عن هذه الرحلة صحح موقع شمال كوبا الى الدرجة ٢٦ – أي ٥ درجات زيادة عن موقعها الحقيقي .

شرع الاميرال بجمع بعض النماذج التي أمل ان تساعده على اقناع الناس في الوطن بأنه وصل على الاقل الى تخوم آسيا . وكان هناك شجيرات تنبعث منها رائحة شبيهة برائحة القرفة جعلته يعتقد انها القرفة نفسها ، كما اعتقد ان البامية الآسيوية ليست إلا نموذجاً عن اشجار الصمغ التي رآها في تشيوس ، وكذلك ثمرة « نوغال دل بيز » التي لا تؤكل ، ظن انها جوزة الهند التي ذكرها ماركوبولو . واليوم إذ تضفي أشجار جوز الهند الباسقة على الشاطىء الكريبي منظراً رائعاً ، ننسى ان الاسبان هم الذين ادخلوها الى هناك ، كما ادخلوا اشجار الموز . وأخرج الرجال نوعاً من الجذور من الارض ، أكد الطبيب مايستر سانشيز أنها جذور الروند الصيني ، وهي عقار ثمين كانت تستورده اوروبا – ثم تبين انها شيء مختلف تماماً ليس له قيمة حشيشة الفطائر المتواضعة .

وحتى الآن لم يعثروا على الذهب . وعندما كان الاسبان يسألون الهنود عن الذهب كانوا دائماً يشيرون الى مكان آخر . وأفاد هؤلاء الهنود ان الذهب يكثر في جزيرة تدعى « بابك » يقوم سكانها بجمع الذهب من الشاطىء على

ضوء الشموع ثم يطرقونه على شكل قضبان . وقد سببت هذه المعلومات الخاطئة أول تصدع في القيادة الاسبانية العليـــا إذ ابحر مارتين الونسو بنزون بسفينته بنتا بدون اذن الاميرال على امل ان يكون اول من يصـل الى جزيرة بابك . وعرج في طريقه على جزيرة أيناغوا العظيمة التي تقع في الاتجـــاه الذي عينه الهنود ، وغني عن القول انه لم يعثر على الذهب لا على ضوء الشموع ولا على أي ضوء آخر !

أما الاميرال الذي كان على ظهر سانتا ماريا فقد أبحر والسفينة نينـا ( التي ظل قبطانها فينسنت يانز بنزون على ولائه له ) شرقاً على طول شاطىء المقاطعة الشرقية الجميل . وكانت الجبـال الشاهقة ترتفع رأساً من البحر ، وكان يشاهد على مسافة كل بضعة اميال نهر يشكل مصبه مرفأ اميناً محاطا باليابسة .

ثم عرج على جزيرة « بهياتانامو » التي يشبه مدخلها عنق الزجاجة ، حيث تنتشر جزر صغيرة تكثر فيها الاعشاب وتبرز فوق الماء كرؤوس الالمـــاس ، وجزر اخرى منبسطة كسطوح الموائد . ثم دخـل في جزيرة « بورتوكايوموا » الجميلة بعد ان اختـــار معبراً وسط الامواج المتكسرة ليجد نفسه على حد قوله في « بحيرة تتسع لرسو جميع سفن اسبانيا بأمان » . وصف كولمبوس جمال هذا المرفأ الامين الواقع بين الجبال الشامخة وحواجز الصخور المتشعبة والـــتي يتصاعد منها الزبد بكلمات ليس فيها أدنى مبالغة . وكان ثاقب البصيرة أيضـاً بالنسبة الى النواحي العملية من مشاهداته فعندما حمله بعض رجـاله الى مصب النهر في الزورق وشاهد اشجار الصنوبر المنتشرة على سفوح الجبال قال ان جذوعها الخشبية تصلح لبنـاء سفن الاسطول الاسباني ! والغريب ان سلالة اشجار الصنوبر هذه تقطع الآن وتنشر في مصنع يدار بمياه نهر الجبل الذي سمع كولمبوس هديره في احد ايام الآحاد من تشرين الثاني عام ١٤٩٢ .

وتابع سيره مع النسيم الذي كان يهب لحسن الحظ من الغرب ، ملاحظـــاً ما لا يقل عن تسع موانىء صغيرة حيث خلفهـا تقع الاودية المورقة الممتدة الى داخل سلسلة الجبال الشاهقة . ومر في طريقه على جبل « الينكو » الذي يشبه

شكل السندان وأحد معالم مرفأ براكوا ، المرفأ الذي وصفه كولمبوس بقوله : « انه مستدير كالقصعة الصغيرة » .

وهنا في هذا المكان المناسب شيد الاسبان أول مستعمرة لهم في كوبا عام ١٥١٢ . وعندما تبين بان لا ذهب في براكوا ، غادرها الاسطول حالما انقلبت الريح الى معتدلة . وعند شروق شمس الخامس من كانون الاول وصل الاسطول قرب كاب ميسي ( رأس ميسي ) الواقع في اقصى نقطة من كوبا الى الشرق ، ولما كان كولمبوس يعتقد ان رأس ميسي يشكل نهاية آسيا ، كما هو حال رأس سانت فينسنت في أوروبا لذلك سماه برأس الفا وأوميغا حيث ينتهي الشرق ويبدأ الغرب .

قطع الاسطول الآن ممر عبور الريح ووصل عند حلول الليل الى مرفأ القديس « نقولا مولي » في هايتي ، وقد سماه كولمبوس بهذا الاسم لأنه دخله في يوم عيد هذا القديس المحبب الى قلوب الاطفال . وكان ادلاؤه الهنود قد اشاروا الى وجود الذهب في هذه الجزيرة العظيمة التي كانت موطن اسلافهم . ولقد كانوا صادقين هذه المرة . ويمكن القول ان هذه الجزيرة انقذت سمعة كولمبوس، لأنه لو عاد الى الوطن دون بينات جديدة غير التي جمعها الى الآن ، لقال الناس بتأفف : « لقد اكتشف هذا الجنوي بعض جزر المتوحشين المثيرة ، والتي يقطنها اناس لطفاء من العصر الذهبي ، أما كونها جزر الهند الغربية !... فباه باه[١] ...!

دخلت السفينة نينا الرشيقة المرفأ تلك الليلة بينما انطلقت سانتا ماريا الى مسافة قريبة لكي تصبح في وضع مناسب للريح يساعدها على ولوج مرفأ القديس نقولا في الصباح التالي . وعند بزوغ الفجر ، اتخذ الاميرال موقعاً يشرف على اربع نواح باتجاه رأس القديس نقولا وجزيرة تورتوغا ورأسين شرقيين في جزيرة هايتي . وكان تقديره متقناً بشكل يمكننا من تحديد مركزه على خارطة عصرية .

---

(١) لفظة استهزاء واستنكار بمعنى « هراء » .

وساقت ريح معتدلة السفينتين الى خليج موستيك حيث احتجزتها الرياح الشرقية والامطار مدة خمسة ايام . وهنا وبعد ان شاهد الاميرال روعة وجمال الجزيرة ومشابهتها للأراضي الاسبانية سماها « الجزيرة الاسبانية » . وحدث ان قبض ثلاثة من بحارته على فتـاة صغيرة جميلة كانت عارية إلا من حجاب ذهبي على انفها وأحضروها معهم الى السفينة ، وبالرغم من انها ابدت رغبتها بالبقاء مع البحارة إلا ان الاميرال « اعادها الى الشاطىء مكرمة » ومنحهـــا ثياباً لائقة مزخرفة بالجلاجل وأجراس الصقور غطت بها صدرها . ولما كانت هذه الصبية ابنة احد رؤساء القبائل ، فقد اثبتت هذه الخطوة فائدتهـــا في حقل العلاقات العامة ... إذ بينما كان تسعة من الاسبـــان يتعقبون معالم طريق ، ارشدهم الاهالي الى قرية كبيرة يسكنهـا قرابة الالفي نسمة ، وهناك نالوا كل ما يريدونه من الطعام والشراب والببغاوات والفتيات !

وفي الخامس عشر من كانون اول تخطت السفينتـان قنال تورتوجا ومنه الى مصب تروا ريفييرى ( الانهر الثلاث ) وهو جدول صاف يتدفق من الجبـل في واد دعاه كولمبوس بوادي الفردوس . وفي اليوم التالي وعندمـــا القت السفن مراسيها بالقرب من احد الشواطىء جاء اكثر من خمسمائة نسمة من الاهالي برفقة رئيسهم الشاب بزيارة رسمية للاميرال . ولم يكن كولمبوس قد تأثر برئيس القبيلة الذي صعد على سفينته في كوبا كما تأثر الآن ، إذ كان هذا الرئيس مختلفاً عن ذاك كثيراً ، فقد تناول طعام العشاء بمفرده مع الاميرال وتصرف باتزان وعزة نفس ملكية . وفوق ذلك كان يتزين وحاشيته بالمصاغات الذهبية الاصلية . واستقبل كولمبوس رئيس القبيلة بالاسلوب البحري الرسمي وسط نفخ الابواق كما اطلقت المدفعية احدى وعشرون طلقة تحية له . وللمرة الثانيـــة فكر كولمبوس ان هؤلاء الناس كانوا قابلين للاستغلال فهم جبناء وأهلاً لأن يؤسروا وان يساقوا للعمل والزراعة أو اي عمـل آخر تدعو اليه الحاجـــة ! ورأى كولمبوس ان مثل هذا الامر سيكون فرصة رائعة للعاهلين اللذين لم يكن رعاياهما من المولعين بالقيام بالاعمال الشاقة .

وعند شروق شمس العشرين من كانون الاول وصلت السفينتان قرب خليج « آكول » الذي كان جماله أخاذاً بشكل جعل الاميرال يستنفد كل ما لديه من النعوت لوصفه . والحقيقة ان خليج آكول هو أحد اجمل الخلجان في العالم . اذ تفترق قمم جباله العالية لتكشف عن قمة مخروطية الشكل فوق رأس الوادي ، هذه القمة التي توجها هنري كريستوف ، ملك هايتي بقلعة صخرية وذلك منذ ١٥٠ عاماً . وكان الأهالي هنا عام ١٤٩٢ في حالة فطرية بريئـة اكثر من أي مكان آخر ، حتى النساء كن لا يغطين أجسامهن ولو بخرقة ضئيلة من القطن ، كما لم يمانع الرجال بعرض زوجاتهم وبناتهم على الغرباء. وكذلك كان يبدو ان لديهم الكثير من الذهب ، مما سال له لعاب الاسبان وزاد شهيتهم يوماً بعد يوم .

وخلال ليلة ٢٢ — ٢٣ كانون اول وفي الصباح التالي ، خرج حوالي ألف شخص بقواربهم الصغيرة لزيارة سانتا ماريا كما قام ما لا يقل عن خمسمائة شخص بالسباحة اليها بالرغم من انها كانت ترسو على بعد يزيد على الثلاثة أميـال من اقرب نقطة على الشاطىء .

ولم يكن يسمح بحدوث مثل هذه الزيارة بعد ان احتاط كلا الهنود والبيض من بعضهما البعض ، وذلك خشية قيام الاهالي بالاستيلاء على السفن ، امـا الان فلم تكن مثل هذه الفكرة لتطرأ على بال اولئك التانويين المستكينين .

وصل الى آكول رسول خاص من غواكنغاري ، رئيس قبيـلة الهنود في مارين الواقعة في المنطقة الشمالية الغربية من هايتي والذي كان اكثر صولة وجاهاً من رئيس القبيلة الذي كرمه كولمبوس قبل ايام قليلة . وأرسل غواكنغاري الى كولمبوس حزاماً رائعاً ببكلة من الذهب الخالص ودعاه لزيارته . قبل كولمبوس الدعوة لان الجميع كانوا يؤكدون له وجود مناجم الذهب في ذلك الاتجاه ولأن وسط الجزيرة كان يدعى سيباو ، الاسم الذي ظن انه ربمـا كان مشتقاً من سيبانجو أي اليابان .

وهكذا غادرت سانتا ماريا وتينا خليج آكول قبـل بزوغ شمس الرابـع والعشرين من كانون الاول وكل من عليها يأمل بتمضية عيد الميلاد بفرح وحبور

في مقر الزعيم الهندي الذي ربما كان امبراطور اليابان نفسه !

ولكن القدر قضى بعكس ما تمنوه . ولم تستطع السفينتان بسبب هبوب الرياح المعاكسة ان تقطع المسافة القصيرة بين آكول وعاصمة رئيس القبيلة الواقعة في خليج كاراكول بيوم واحد . ومع تغيير الحراسة في الساعة الحادية عشرة ليلاً ، توقفت السفينتان شرقي رأس هاتيان ضمن مضيق الليمون الواقع صوب حاجز الصخور المتشعبة . وكان البحارة يشعرون بالانهاك بعد ان أمضوا الليلة الماضية بطولها في مسراتهم مع الأهالي ، ولكن عندما سكنت المياه وهدأت الريح ، وخف تلاطم الامواج تسلل الى سفينة القيادة شعور بالامان التام – اخطر الاوهام التي تراود ذهن البحارة – ، حتى ان الاميرال نفسه انسحب لينام للمرة الاولى خلال ثمانية وأربعين ساعة ، وسلم ماسك الدفة بدوره ذراع الدفة الكبيرالى ولد صغير لينضم الى باقي افراد الحراسةفي غفوتهم .

وتماماً ، عندما اعلن انتصاف الليل حلول عيد الميلاد ، كانت سانتا ماريا تستقر بلطف على حاجز صخور مرجانية حتى ان احداً لم يستيقظ على الصدمة الخفيفة . ولكن الصبي الذي كان يمسك الدفة صرخ عندما شعر بارتطامها بالارض فكان الاميرال اول من صعد الى ظهر السفينة وتبعه القبطان لاكوزا وجميع البحارة . ولما كانت مقدمة السفينة وحدها قد جنحت وجد كولمبوس من الانسب ان يخلصها من المؤخرة وامر لاكوزا وطاقم زورق كامل بشد مرساة المؤخرة . وبدلا من ان يطيعوا الاوامر جذفوا بزورقهم الى نينا حيث رفض القبطان فنسنت بنزون استقبالهم وارسل زورقاً من عنده للمساعدة . ولا نعلم اذا كانت نينا اكثر حذراً اثناء مرورها في ذات الاتجاه ، من سفينة القيادة ام لا ، غير انها تخطت الصخور المتشعبة بسلام .

وبسبب جبن لاكوزا او لعدم طاعته ، ضاعت ساعة ثمينة من الزمن كانت كافية للقضاء على سانتا ماريا . فقد كان تلاطم الامواج تحتها يقذف بها اكثر فأكثر فوق الصخور المتشعبة بينما كانت رؤوس الصخور المرجانية الحادة تسبب لها الثقوب في قعرها ، وفيما كانت المياه تملأ هيكل السفينة امر كولمبوس

بالجلاء عنها على امل ان يتمكن من تعويمها في ضوء النهار ، مستعيناً بحركة المد والجزر وان كانت لا تزيد عن البضع بوصات .

وفي الصباح عمل غواكنغاري ورعاياه بجد مع الاسبان لانقـاذ السفينة ، ولكن سبق السيف العذل . وكان كل ما استطاعوا انتشاله منهـا كما ورد في سجلات الاميرال ، المعدات والمؤن والبضائع التي كانوا يحملونهـا للمتاجرة . وتولى الهنود حراستها دون ان يختلسوا منها ولو بمقدار رأس ابرة .

حاول كولمبوس بايمانه القوي بالعناية الالهية ان يحدس معنى هذه الحادثة الغريبة بل المفجعة ! وسرعان ما وجد الجواب . وقرر تواً ان الله شاء له ولبحـارة سانتا ماريا ان يشرعوا ببناء مستعمرة في تلك النقطة . وتوسل اليه غواكنغاري ان يفعل ذلك اذ كان بحاجة لقوة النار لصد اعدائه المنتشرين في جميع ارجـاء الجزيرة . فتطوع الاسبان واحداً تلو الاخر بسبب الدلائل الكثيرة عن وجود الذهب بكميات كبيرة ممـا جعلهم يثقون بضمان مستقبلهم . وهكذا أصدر كولمبوس اوامره للشروع ببناء قلعة محصنة بالقرب من الشاطىء سماها «فيلادي لا نافيدا» ( مدينة عيد الميلاد ) تكريمـاً ليوم الكارثة ، التي ظن باعتزاز انها انقلبت في صالحه .

وشُيدّت نافيداد بسرعة فائقة ، وكانت اول محاولة يقوم بهـا الاوروبيون لتوطيد اقدامهم في العالم الجديد منذ رحلات رجال الشمال الاولى ، والمعروف ان موقعها كان على اللسان الرملي الذي يدعى الآن ليموناد بور — دي — مار — وبقربه مرسى مناسب للسفن وقد بنيت القلعة في معظمها من حطام سانتا ماريا الخشبي . وقد ترك الاميرال هناك حوالي ٣٩ بحاراً معظمهم من سفينة القيـادة وبعضهم من نينا للعمـل تحت قيادة صديقه دييغو دي هارانا القرطبي كما منحهم قسماً كبيراً من المؤن ، ومعظم البضائع التجارية مع زورق سانتا ماريا ، وقبل عودته زودهم بالارشادات اللازمة لارتياد البلاد الداخلية سعياً للعثور على مكان ثابت للاستيطان ، ومقايضة بضائعهم بالذهب كما أمرهم بان يعاملوا الاهالي برفق .

تأكد كولمبوس الآن انه وجد جزر الهند . ولربمـا كانت اسبانيولا غير

اليابان إلا انها كانت جزيرة عظيمة وغنية بالقرب من البر الصيني وفيهـا شعب قابل للتنصير والاستغلال . وأصبح لديه الآن حلى من الذهب كافية لاقناع اكثر الناس تشاؤماً بان ارضاً مليئة بالتبر والمال والرخاء قد اكتشفت .

وفي اليوم التالي لعيد رأس سنة ١٤٩٣ اقام غواكنغاري وكولمبوس حفـلة وداع اطلقت فيها نينا مدافعها على ما تبقى من هيكل سانتا ماريا للتأثير عـلى الهنود ، وأقام رئيس القبيلة وليمة لجميع البحارة ، وبعد ان عبر الجميع عـن شعورهم بالحب المتبادل والتقدير افترق الحلفـاء الجدد بعد ان تعانقوا بحرارة ، وصعد كولمبوس الى ظهر السفينة نينـا ليعود عليها الى الوطن ، وبرفقة السفينة بنتا اذا تمكن من العثور عليها ، وإلا فانه سيعود بمفرده . وبعد فترة انتظـار هبوب ريح ملائمة وعودة البحارة الذين طالت اجازتهم على الشاطىء اقلعت نينا في الرابع من كانون الثاني مبتدئة رحلة العودة الى الوطن .

# الفصل الثامن

## رحلة العـــودة

عزم كولمبوس عندما غادر نافيداد على ان يهيء طريقـــاً توصله رأساً الى اسبانيا خشية ان يسبقه بنزون اليها بالاخبـار الطيبة . ولكنه شاهد بنتا بعد يومين ، مبحرة مع الريح في الاتجاه الآخر . وفي ذلك المساء صعد مارتين الونسو قبطان بنتا الى ظهر السفينة نينا وقدم لكولمبوس بياناً معقولاً ومقنعاً عن اعماله خلال الاسابيع الثلاثة الماضية . وذكر انه زار جزيرة ايناغوا العظيمة ووجد ان حكاية البحث عن الذهب على ضوء الشمعة مجرد خرافة فأبحر بعدئذ عـــلى طول شاطىء اسبانيولا ورسى في بورتو بلانكو . وهناك توغلت زمرة من رجاله داخل سيبا وعثرت على كميـات كبيرة من الذهب . وقال بنزون انه علم بجنوح سفينة القيادة بالقرب من الكروم الهندية وعزم على العودة لمساعدة الاميرال . رغب كولمبوس بالعفو عما مضى بالنظر الى الاخبار السارة عن الذهب ، كما سره وجود من يرافقه في رحلة العودة ، إذ ان احـــداً في تلك الفترة ما كان ليبحر بدون حراسة لو استطاع تأمينها .

وبينما كانوا بانتظار هبوب الرياح المعتدلة للدوران حول شبه جزيرة مونت كريستي التي كانوا يرسون خلفهـــا ، ارتاد كولمبوس الطريق السفلي لجزيرة

« ريوباكوديل نورث » ووجد كتلاً من الذهب بحجم حبـــة العدس . وكانت نسوة المنطقة يشتغلن بكد لاخراجه وكلما توفر لديهن ملء انبوبة كبيرة اخذنه الى البلدة لشراء حاجاتهن به . هذا ، وما زال الذهب موجوداً في وادي ذلك النهر حتى يومنا هذا !

تابعت بنتا ونينا رحلة العودة في منتصف ليلة الثامن من كانون الثـاني ، وفيما كانتا تمخران الميـــاه على طول شاطىء اسبانيولا اشرفتا على ميناء بورتوبلاتا — وهو الاسم الذي اطلقه كولمبوس على الجزيرة بسبب الغيوم الفضية التي تغطي الجبال — ورست السفينتـــان بالقرب من مدخل خليج سامانا حيث ارتأت الولايات المتحدة مؤخراً ان تبني قاعدة بحرية . وهناك وفي المكان الذي لا زال يدعى « بوينت اوف اروز » أي رؤوس السهام — قابل الأهالي المسلحون بالقوس والنشاب الاسبانيين لأول مرة وبدوا غير راغبين باستقبالهم . وكان هؤلاء الهنود بطناً آخر من قبيلة التينو يعرفون باسم سيغوايو ، اعتادوا امتشاق اسلحتهم ليظلوا على اهبة الاستعداد للدفاع عن انفسهم بسبب الغزوات المتكررة التي كانوا يتعرضون لها من قبائل الكريبيين في بورتوريكو . وحدث ، بعد ان قبض الاسبانيون على احد افراد قبيلة سيغوايو وأعادوه الى الشاطىء بعد ان عاملوه بالحسنى وحمّلوه تشكيلة من القماش الأحمر والحلى ، ان هدأ روع الآخرين وتوصل الطرفان الى اقامة متاجرة حذرة نوعاً ما ولكنها نشيطة . كما اقتنع فرد أو اثنان منهم بالانضمام الى زمرة الهنود المسافرين الى اسبانيا .

وقبل بزوغ فجر يوم الاربعـاء الموافق ١٦ كانون ثاني بساعات ثلاث ابحرت السفينتان من خليج سامانا . وكان امام الاسبان رحلة قاسية ، ومشكلة صعبة جداً في الملاحة ، إذ كانت رحلة العودة هذه اعظم تجربة لاختبـــار شجاعة كولمبوس وكفاءته البحرية وقدرته على قيادة الرجال بقدر يفوق جميـــع ما اختبره حتى الآن . وهكذا كان على الأميرال ، الذي كان يقفـــل صدره على اعظم اكتشاف جغرافي بكل الازمان ، مدركا ان احداً لن يستفيد منه إلا اذا وصل به سالماً ، ان يصارع عناصر الطبيعة وضعف الانسان كما لم يحدث من قبل

أو من بعد .

عزم كولمبوس قبل الاتجـــاه الى الوطن رأساً ، ان يتحقق من أمر الخرافة الامازونية التي نقلها افراد قبيلة التينو بخصوص جزيرة ماتينينو المعروفة الآن بجزيرة مارتينيك . فقد اخبره افراد التينو بان هذه الجزيرة كان يسكنها نساء الكريب اللواتي كن يقبلن زيارة الذكور لهن مرة في السنة ، ثم يتخلصن منهم حالما ينجزون ما كانوا قد اتوا من اجله ! وربما كان منشأ الخرافة ان نساء الكريب كن يحاربن الى جانب الرجال ، أو وحدهن في غياب الرجال .

ولم يكن الفضول هو الذي اثار اهتمام كولمبوس ، بـل رغبته بجمع شواهد اكثر عن الشرق ، لا سيما وأن ماركوبولو كان قد نشر قصة طويلة عـــن « جزر الذكور والاناث » في المحيط الهندي ، وأخيراً لأنهـــا أي الجزيرة كانت مرسومة على كرة بهايم [1] ! ولكن زيارة الجزيرة ألغيت عندمـــا هبت الريح الغربية — وهو امر نادر الحدوث في مثـل ذلك المكان والفصل — فاعتقد الاميرال ان الفرصة اثمن من ان يفوتها وقرر الابحار رأساً الى اسبانيـا ولكن سرعان ما خمدت الريح الغربية وعادت الرياح الموسمية الشرقية تهب من جديد مما ساعد السفينتين على الانطلاق بأقصى ما تستطيعان وهما مائلتان الى اقصى الجانب الايمن . وبوسع السفن الشراعية الحديثة ان تميل الى اربع خانات باتفاق الريح ( اي ٤٥ درجه ) ، اما اذا كانت من السفن السريعة ، فانهـــا تستطيـع اكثر من ذلك في المياه الهادئة . اما نينا وبنتا فكانتا تستطيعان الميـل الى خمس خانات ( ٥٦ درجة ) اذا كان البحر هادئاً ، أمـا في الحالات العادية فلم يكن بوسعها الانحراف اكثر من ست خانات ( ٦٧ $\frac{1}{2}$ درجة ) لا سيما ان بنتا كانت بطيئة فوق الريح نظراً لبروز شراع مؤخرتها . وكان هذا يعني عمليـاً انه اذا هبت الريح من الجهة الجنوبية الشرقية ، استطاعت السفينتـان السير في الاتجاه الشرقي — الشمالي الشرقي . وكانت افضل وجهة للابحـــار الى اسبانيا بمساعدة الرياح هي وجهة — شمالية — شمالية شرقية ، ولكن اذا تغيرت الريح

(١) العالم الجغرافي الآنف الذكر .

الى شمالية شرقية كما يحدث غالباً اثناء هبوب الرياح الموسمية ، فعلى الاميرال ان يدير الاشرعة الى الجهة اليسرى ويسير في الاتجاه الشرقي — الجنوبي الشرقي.

تابعت بنتا ونينا مسيرهما خلال ما تبقى من كانون ثاني في اتجاه ثابت نحو الشمال مع الانحراف التدريجي نحو اسبانيا . وعندما اصبحتا قرب الحدود الشمالية لمنطقة الرياح الموسمية هدأ البحر وشاءت العناية الالهية ان يتغير الريح التي حملتهم عبر خطوط عرض الحصان كما اعتاد البحارة ان يسموا البقعة الهادئة بين خطي العرض ٣٠ — ٣٣ شمالا . وبالرغم من خبرتهم الضئيلة في السير مع النسيم اللطيف عبر خليج تخضبت مياهه بمروج من الاعشاب المتماوجة ، فقد نجحوا بعبور بحر « سارجاسو » فيما كان القمر بدراً . وكان المنظر جميلاً حقاً للعين والاذن على السواء خصوصاً عندما كان يحل صوت حفيف الاعشاب المنبعث من ملامستها جوانب السفينة محل الصوت المنبثق عن ارتطام الامواج. واستخدم كولمبوس افضل الطرق الفنية البحرية للوصول بسرعة الى وطنه دون سابق معرفة بها . ولو انه حاول الابحار رأساً الى اسبانيا ( كما فعل في رحلة العودة الثالثة عام ١٤٩٦ ) لكان عليه ان يستمر بالسير ضد الريح معظم الطريق الا ان هذه الخطوة الطويلة شمالا قد اوصلته الى خط العرض الذي تقع عليه جزيرة برمودا حيث الامواج الهائجة والرياح الغربية العاتية .

وفي آخر يوم من كانون ثاني تبدلت الرياح الى غربية ، وبعد اربعة ايام قدر الاميرال من مجرد النظر بالعين المجردة الى نجمة الشمال انه بلغ الدرجة ٢٧ شمالا من خط عرض ( رأس سانت‌فينسنت ، بينما كان بالحقيقة على خط عرض جبل طارق ) فعين الاتجاه رأساً الى الشرق وكان هذا الاتجاه بسبب انحراف البوصلة يبلغ حوالي ٨٠ درجة ، وهو الاتجاه الصحيح للوصول الى جزر الازور . وانقلب الطقس الان الى البرودة مع هبوب عاصفة جديدة ، انطلقت فيها السفينتان بمعدل ١٥٠ ميلا في اليوم لمدة اربعة ايام متتالية ووصلت هذه السرعة احيانا الى ٢٠٠ ميل تقريباً في اليوم الواحد ، وفي بعض الفترات وصلت سرعتها الى ١١ عقدة في الساعة .

عندما تصل اليوم سرعة اي يخت شراعي بطول بنتا او نينا حدودالاحدى عشر او الاثنتا عشرة عقدة في الساعة ، يصبح الحدث موضوعاً يستحق الذكر ، لذلك فان ما لا يمكن انكاره هو ان السفينتين اندفعتـــا بأعلى معدل للسرعة وبمساعدة رياح عاتية فوق مياه عميقة زرقاء متوجة بزبد الامواج البيضـــاء . وهكذا ظلتا تسرعان خلال الايام المشرقة بأشعة الشمس والليالي الوضاءة بنور كوكبه الجبار والاجرام الفلكية الاخرى وكأنها ترشدها الى الطريق المؤديةالى الوطن . والواقع ان من العسير على اي بحار ان يشفق على كولمبوس فقد نعـم بالرغم من نكباته الاخيرة بطقس رائع للسفر في جميع رحلاته تقريباً . ومـع ذلك تعرض لتجارب عسيرة جداً كانت اسوأها على وشك الحدوث .

سكنت العاصفة الهوجاء الغربية مع هبوط ليلةالسابعمن شباط،وتعرضت السفينتان لامواج متعارضة خفيفة مدة يومين سجلتا خلالها القليل من التقدم . ولكنهما استطاعتـا في التاسع من شباط ان تعدلا وجهتيهما الى الشرق . وفي اليـوم التالي تباحث المرشدون والربابنة مـع بعضهم من على ظهري السفينتين لمعرفة مركزهم . واعتقد كل واحد منهم ، بمـا في ذلك كولمبوس ، انهم كانوا ابعد بكثير الى الجنوب ممـا كانوا عليه حقاً ، وقرر الجميـع عدا كولمبوس انهم كانوا في دائرة جزرالازور الشرقية ، لكن كولمبوس قدر بالضبط بأنهم وصلوا جنوبي جزر الفلورس وعزم على ان يعرج عـــلى احدى جزر الازور ، اذا تمكن من ذلك !

لكنه كاد يفشل بالوصول اليها اذ كانت السفينتان تبحران في منطقة يعمهـا طقس رديء في شتاء بارد صاخب من اسوأ ما سجله التاريخ ، شتاء تحطمت فيه مئات السفن ، وتجمدت المياه في ميناء جنوى كما ظلت السفن عدة أشهر ، قابعة في ميناء لشبونة لا تستطيع حراكا . وكان يجتـــاح منطقة شمالي جزر الأزور وافدة واسعة من ضغط منخفض جداً مصحوبة باعصار جامح كان يهب باتجــاه جنوبي غربي بسرعة تتراوح بين ٤٧ — ٦٣ ميلاً في الساعة ، وكان على السفينتين ان تعبرا ثلاث جبهات من الطقس .

وما ان حان اليوم الثاني عشر من شباط حتى صارت نينا تترنح متثاقلة امام الريح بعد ان تجردت صواريها من الاشرعة . ثم اعتدلت الريح قليلاً في الصباح التالي ثم اشتدت بعض الشيء وسارت نينا في يمّ متلاطم عابس .وطال أمد تعارض الرياح واصطدامها كما حدث في الاعصار المعروف باسم « ادنا » عام ١٩٥٤ ، والذي كان ما يزال يزمجر في الوقت الذي كنت منكباً فيه على الكتابة . وقد ادى هذا الى تقارب الرياح المتعاكسة بعضها من البعض الآخر . وبدأت مياه البحر المتلاطمة تشكل امواجاً هرمية مخيفة راحت تتكسر على طول السفينتين من المقدمة حتى المؤخرة . وخفّت صابورة نينا بسبب نفاذ المؤن في عنابرها واخذت وقد نشر شراعها الامامي وتدلى شراع الوسط ، تسير في اتجاه شمالي شرقي بينما راح كولمبوس والقبطان فينسنت بنزون يتناوبان الحراسة على ظهرها لمراقبة الأمواج وانذار ماسك الدفة الذي كان يقف في مكان منخفض عن الظهر . وكانت أقل هفوة من احدهما كافية لان تشك السفينة في لجة المياه ثم تنقلب وتغرق . والاسوأ من ذلك ان بنتا لم تكن لتستطيع انقاذ الاحياء من بحارة نينا في مثل ذلك البحر المجنون .

وفي ليلة ١٣ — ١٤ من شباط ضاعت السفينتان وابتعدت الواحدة عن الأخرى ولم تلتقيا ثانية الا بعد ان وصلتا الميناء في اسبانيا . والحقيقة انهما كادتا ان لا تصلا ابداً . وليس لدينا سجل يدلنا كيف سارت بنتا . أما نينا فقد فقد بحارتها كل امل بالخلاص في يوم عيد القديس فلانتين . واجروا القرعة مع ضباطهم ثلاث مرات لتعيين شخص يحج الى مزار مشهور اذا هم نجوا ، ولكن زئير الريح كان يزداد ويعلو . واخيرا تعهدوا بأن يسيروا في موكب حافل بقمصانهم الى مزار للعذراء يقابلونه ، وعندئذ أخذت الريح تخمد . واعترف كولمبوس فيما بعد بأنه شعر بالخوف مثل أي شخص آخر على السفينة . وفي ذروة العاصفة ، وخشية ان تتحطم السفينتان ويهلك الجميع ، دفع اليأس بكولمبوس ان يكتب على قطعة من الجلد خلاصة ما احتواه دفتره اليومي عن الرحلة ولف الرقعة المكتوبة بقطعة من القماش المشمع ثم وضعها في برميل من

الخشب ألقى به من على ظهر السفينة في البحر على أمل ان يعثر عليها احد ويقرأ القصة الحقيقية عن اكتشافه . ولم يتوصل أحد للكشف عن البرميـل ، ولكن الحكايات الملفقة عن « دفتر الاميرال السري » ما زالت تباع حتى يومنـا هذا للسذج من هواة جمع الاشياء النادرة .

وبعد شروق شمس الخامس عشر من شباط بقليل ، شوهدت امامـاً صورة باهتة عن اليابسة . وقدر كولمبوس انهـا احدى جزر الازور ، ولكنه لم يدر أية واحدة منهـا . ومع ان الرياح أخذت تهب شرقاً الا ان اياماً ثلاثة مضت قبل ان استطاعت نينا الوصول الى هذه الجزيرة والرسو فيها . وأرسل الاميرال زورقه الى الشاطىء مؤكداً انهـا جزيرة سانتا ماريا الواقعة في أقصى جنوبي جزر الأزور . ورست السفينة بالقرب من قرية تدعى « نوسا سينورادوانجوس» فيها كنيسة صغيرة كرست للعذراء التي كانت قد ظهرت لأحد الصيادين المحليين محاطة بالملائكة . لذا اعتبرت انجوس ملائمة لتأدية الصلاة ومكانا مناسباً للنوتية ليحققوا فيه نذرهم الذي تعهدوا بايفائه في ذروة العاصفة .

وهناك وقع ما يبدو بالنسبة لمجرى الاحداث السابقة أعظم حادث مضحك خلال الرحلة الاولى باسرهـا . فها هنا رجال على وشك اذاعة اعظم وأهم نبأ منـذ سقوط الامبراطورية الرومانية — نبأ اكتشاف كفيل بان يغمر اوروبا والاوروبيين بفوائد جمة لم يسبق لها مثيل . ومع ذلك ، كيف كان استقبـال اهالي أنجوس الاول لهم ؟ كان البحارة يؤدون صلاتهم في الكنيسة الصغـيرة بقمصانهم فقط دلالة الخشوع وإذا بسكان البلدة يهاجمونهم ويزجون بنصفهـم في السجن ! لقد اشتبه حاكم الجزيرة البرتغالي بانهم كانوا يقومون برحلة ممنوعة الى افريقيا الغربية ،فاندفع بقاربه الى نينا بقصد القاء القبض على كولمبوس والبحارة الآخرين الذين ظلوا على ظهر السفينة على امل ان يوفوا نذورهم فيما بعد ! ولكن الاميرال رفض ان يستقبله وهدد باطلاق النار على المدينة والاستيلاء على رهائن منها اذا لم يطلق سراح رجاله فوراً ، وقبل ان يجيب الحاكم هبت عاصفة اخرى قطعت حبال نينا وقذفت بها الى مقربة من سانت ميغيل ثم اعادتهـا الى حيث

كانت . ومن حسن الطالع انها عادت ، إذ لم يكن على ظهرها سوى ثلاثة بحارة وزمرة الهنود لمساعدة الأميرال والربان على ادارتها . وأقدم الحاكم البرتغالي، في الوقت التي رجعت فيه نينا على تسليم البحارة وتزويدهم بما يحتاجونه من المؤن الجديدة وذلك بعد ان عذبهم وفشل باكتشاف اي دليل عن عزمهم على سرقة محفوظات ملكية .

وهكذا استأنف كولمبوس رحلة العودة في الرابع والعشرين من شباط وكانت المسافة التي تفصله عن رأس سانت فينسنت حيث اراد الوصول ، لا تزيد عن ٨٠٠ ميل ولا تستغرق اكثر من اسبوع في الرياح الشمالية المعتدلة . ولكن هذا الجزء من الاقيانوس يعرف بكثرة الجفاف الضاغط فيه مما يسبب المتاعب للبحارة الذين تنقصهم الخبرة ، لا سيما وقد كان شتاء عام ١٤٩٣ مزعجاً فوق العادة . وهكذا باغتت نينا عاصفة ثانية حملتها حوالي ٢٥٠ ميلاً بعيداً عن جزيرة سانتا ماريا وواكبتها طوال الطريق. كما ان زوبعتين اثنتين كانتا تتحركان ببطء نحو الشرق ، واستغرقتا ستة ايام حتى تخطتاها بعد ان سببتا لها ضربات اسوأ مما سببتها لها العاصفة التي هبت غربي جزر الازور .

وبدأت المتاعب في السادس والعشرين من شباط . إذ انقلبت الريح الى الجهة الجنوبية الشرقية مرغمة نينا على تغيير وجهة سيرها الى الاتجاه الشرقي — الشمالي الشرقي . وكتب كولمبوس اثناء ذلك يقول : « من المفجع ان يتعرض الرجال لمثل هذه العاصفة بينما هم في عشية الوصول الى الوطن »، واتفق الريح والبحر في اليوم التالي ، وظلت السفينتان تدفعان بعيداً عن وجهة سيرهما لثلاثة أيام أخرى . وفي ليلة الثاني من آذار لطمت مقدمة زوبعة دوارة حارة السفينة نينا ثم تحولت الرياح الى جنوبية غربية واستطاعت نينا ان تسير في اتجاهها الصحيح ، ولكنها عادت وبوغتت في الليلة ذاتها برياح باردة مصحوبة بعاصفة هوجاء مزقت الشراع الامامي وطيرت شراعي المقدمة و المؤخرة الملفوفين من مكانها ومزقتها إرباً خلال لحظات .

وهكذا فعل كولمبوس الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يفعله الا وهو متابعة

السير تحت الصواري العاريـة . وكانت نينا تنحدر وترتفع وتتدحرج بشكل مخيف في خضم بحر هائج كما ان الريح انقلبت من جديد في الثالث من آذار الى شمالية غربية . وكان هذا بمثابة « لطمة المؤخرة» للأعصار وكما حدث في الاعصار الذي هب على نيو انجلند في اميركا في ١١ أيلول عام ١٩٥٤ ، كانت لطمة المؤخرة اسوأ من لطمة المقدمة. واستبد القلق في النفوس فيما كان مساء ذلك الشتاء القاتم يدخل في ظلمة الليل . وكان كولمبوس وباقي المرشدين يعرفون تمام المعرفة انهم يبحرون باتجاه شاطىء البرتغال المحاصر بالصخور وان اعجوبـة فقط تستطيع ان تمنع انسحاقهم بالارتطام على صخور الشاطىء .

وعندما غابت الشمس بعد السادسة بقليل وقعت الواقعة وبـدأ البرق يلمع فوق رؤوسهم والأمواج الهائلة تتكسر على ظهر السفينة من جانبيها الاثنـين ، وكانت الريح شديدة حتى بدا وكأنها « سترفع السفينة في الجو » . ومن حسن الحظ ان القمر كان كاملا في تلك الليلة فكان يبعث بأضواء خافتة من بين الغيوم وهكذا تمكنوا من رؤية اليابسة الماثلة أمامهم على بعد خمسة أميـال تقريباً ، وفي الحال قام كولمبوس بالمناورة الخطرة المعروفة لدى كل بحـار قديم وهي الانقضاض على الشاطىء من تحت الريح . كان الشاطىء يمتـد من الشمال الى الجنوب والريح شمالية غربية . ورفع البحارة شراعاً مربعاً صغيراً عـلى المقدمة ، كان مدخراً في الصندوق ، واستداروا في بحر مزبد ورسموا للسفينـة وجهة سير جنوبية على موازاة الشاطىء .

ولا عجب اذا اصبحت نينا سفينة الاميرال المحببة بعد ثباتهـا لكل ذلك اللطم وتجاوبها مع هذه المناورة الصعبة دون ان تصاب ولو بثقب واحد .

تحقق كولمبوس لدى بزوغ فجر الرابع من آذار من رؤية رأس روكا الشهير البارز في المحيط من بين جبال سينترا شمالي مدخل نهر تاغوس . وعندمـا رأى الاميرال ان الدمار الكلي على قيد خطوة منه اختـار الدخول الى تاغوس ثم التعريج على لشبونة لاجراء الترميم اللازم لسفينته بدلاً من محاولة متابعـة السير حول رأس سانت فينسنت الى اسبانيا . وكان يعرف تمـام المعرفة بانه إذ يضع

نفسه تحت سلطة الملك يوحنا الثاني يعرض نفسه لمسؤولية خطيرة لا سيما وان الملك القاسي كان قد خيب آماله مرتين، ولكن دوافعه (كانت حسب الترتيب التالي) : ان يبعث اولاً بخبر اكتشافه الى اسبانيا وان ينقذ بحارته والسفينة ثانياً .

وهكذا دارت نينا حول رأس روكا بعد الغروب ، واجتازت «كاسكيس»، حيث ذهل الصيادون من رؤية مثل هذه السفينة الصغيرة تقترب قادمة من البحر ثم تعبر حاجز الدخان القريب من مصب النهر ، وفي الساعة التاسعة تقريباً ، ترسو في بيليم مرفأ لشبونة الخارجي .

غمر البحارة شعور غريب بالراحة والأمان عندما رست السفينة بسلام في مرفأ امين بعد المشقات الطويلة التي تعرضوا لها في عرض البحر . ولكن كان لا يزال امام الاميرال وبحارته المنهكين الكثير من المنغصات ! ذلك ان نينا كانت بحاجة الى اعادة تجهيزها قبل متابعة السفر الى اسبانيا . ثم هل يسمح الملك يوحنا بذلك ؟ ثم ماذا حدث لبنتا ؟

لم تكن نظرات البرتغاليين الاولى مشجعة . وكانت هناك سفينة حربية كبيرة راسية بالقرب من نينا بقيادة بارثولميودياس ، مكتشف رأس الرجاء الصالح ، وكان ربانها ضابطاً معروفاً في سلاح البحرية الملكية . وبعد فترة قصيرة حضر دياس في زورق مسلح وأمر القائد كولمبوس بالصعود الى ظهر السفينة الحربية لأعطاء الايضاحات اللازمة عن نفسه . ورفض كولمبوس متمسكاً بشرف لقبه كأميرال المحيط . ولكنه كشف عن اوراق اعتماده الرسمية التي رضي بها كل من دياس ومرافقه الربان اللذين صعدا الى ظهر نينا بزيارة مجاملة وسط دقات الطبول وأصوات الأبواق والمزامير وعرضا تقديم المؤن وأية بضاعة يحتاج اليها الاميرال . كان كولمبوس خلال ذلك قد بعث برسالة الى الملك يوحنا يطلب فيها منه ان يسمح له بالدخول الى مرفأ لشبونة ، وفي الثامن من اذار حمل اليه أحد النبلاء الجواب الذي كان يتضمن بالاضافة الى موافقة الملك على طلبه أمراً بتموين نينا بكل ما تحتاج اليه بلا مقابل ودعوة رسمية للاميرال لزيارته في

مقره الريفي . ومع ان تلبية دعوة الملك كانت ستؤخره ، ورغم انه كان يخشى ان تغتاظ الملكة ايزابيلا من زيارته لملك البرتغال قبل المثول امامها ، كما حدث فعلاً ، قرر كولمبوس بأن من الأفضل له قبول الدعوة . وهكذا ، اختار كولمبوس اثنين او ثلاثة من اتباعه وبعض الاصحاء من أسراه الهنود ونزل الى شاطىء لشبونة حيث استأجر قافلة من البغال حملته وأتباعه الى مقر الملك . مساكين اولئك الهنود اذ كان عليهم بعد اللطم العنيف الذي تعرضوا له في عرض البحر ان يتحملوا مشاق الركوب على ظهور البغال فوق طرق البرتغال الضيقة الموحلة ! واستغرقت الرحلة يومين لقطع مسافة الواحد والثلاثين ميلاً المؤدية الى دير سانتاماريا دي فرتود حيث كان يقيم الملك آنذاك .

استقبل الملك يوحنا الثاني كولمبوس بحفاوة بالغة غير متوقعة ، ولكن مؤرخو البلاط يخبروننا ان الملك غضب قلبياً من كولمبوس بسبب اخباره التي بدت كقصة طويلة كما شك في ان تكون الاكتشافات الجديدة قد حصلت في مناطق تتمتع فيها البرتغال بحقوق الأولوية . وقيل ان الندماء ألحوا على الملك بالفتك سراً بهذا المتعجرف حديث النعمة ( بنفس الطريقة التي تخلص بها من صهره المزعج ) ولكن الملك لحسن الحظ رفض ذلك . كما اعترف ان ضيوفه الهنود يختلفون عن جميع الأفريقيين الذين رآهم او سمع عنهم . حتى ان اثنين من الهنود أثرا عليه كثيراً لرسمهم خارطة تقريبية عن جزر الانتيل بحبوب الفاصوليا فاقتنع الملك بقصة كولمبوس وقرع على صدره صارخاً « آه لماذا تركت مثل هذه الفرصة المدهشة تفلت من يدي » . !

والحقيقة ان هؤلاء الهنود كانوا جغرافيين ممتازين . فقد سبق وقالوا لكولمبوس كما روى في كتابه عن رحلته الاولى ، ان جزيرة تدعى ماتينينو كانت أقرب جزر بحر الكريب الى اسبانيا وتليها جزيرة شاريس . الأمر الذي يقارب الحقيقة كثيراً كما أن الاميرال ، كما تبين لنا ، اتجه في رحلته الثانية مباشرة الى تلك الزاوية الاستراتيجية من جزر الانتيل الصغرى .

غادر كولمبوس وحاشيته البلاط في الحادي عشر من آذار بحراسة موكب

من الفرسان وقاموا بدورة لزيارة ملكة البرتغال في دير القديس انطونيو دي كاستينهيرا . وكان الاميرال قد تألم كثيراً من الركوب على ظهر البغـل فترك الموكب في الهاندرا الواقعة على نهر تاغوس واستأجر من هناك زورقاً حمله عـبر النهر الى نينا ، التي كانت قد جهزت اثناء غيابه بعدة جديدة من الاشرعـة والحبال كما نقلت الى ظهرها كمية من المؤن الطازجة والحطب والماء وبرميل من النبيذ بدون شك . وهكذا أصبحت الآن جاهزة لقطع الخطوة الاخـيرة من الرحلة ثم صعد جميع بحارتها الى ظهرها ، وفي صبـاح الثالث عشر من آذار رفعت السفينة الصغيرة الشجاعة مرساتها من مرفأ لشبونة .

ومن غريب ما حدث أن بنتا كانت تسير في أثرها بعيدة عن النظر ولكن على مسافة قريبة خلفها . وكانت بنتا قد اخفقت بالوصول الى جزر الازور ، وهكذا كتب لها ان لا تتعرض لآخر واسواء العواصف التي اجتاحت نينـا وجرفتها ، وهكذا وصلت الى مرفأ بايونا القريب من فيجو شمالي اسبانيـا في اواخر شباط . وحاول مارتين الونسو بنزون الذي اشتبه كولمبوس بأنه يسعى لان يسبقه بنقل خبر الاكتشاف الى الوطن ، ان يفعل هذا حقاً فبعث بخطاب عبر اسبانيا الى الملك فرديناند والملكة ايزابيلا في برشلونة يعلمها فيه عن وصوله ويطلب الاذن له بالمثول أمامها ليخبرهما عن الرحلة . ولكن العاهلين ردا عليه بانهما يفضلان سماع الاخبار من فم كولمبوس . عندئذ أبحرت بنتـا من مرفأ بايونا متجهة الى بالوس .

وفي فجر الرابع عشر من آذار دارت نينا حول رأس سانت فينسنت ومرت بقرب الشاطىء الذي سبق لكولمبوس ان التجأ اليه سباحة بعد صراعه مـع الامواج قبل سبعة عشر عامـاً مضت . وفي ظهيرة الخامس عشر من اذار عبرت حاجز الريو سالتيز فوق تيار جارف وألقت مرساتها بالقرب من بالوس .

ودخلت بنتا على نفس التيار ولكن منظر نينا التي كانت ترسو ساكنة كما لو انها كانت قد وصلت الى الوطن منذ شهر ، قضى على مارتين الونسو بنزون ! كان مارتين اكبر سناً من كولمبوس وقد امضته متاعب الرحلة ومشقاتها وزاد

صد الملك والملكة له من غمه ويأسه فأضحى لا يستطيع تحمل اكثر من ذلك ، وهكذا غادر بنتا الى بيته الريفي القريب من بالوس ، وهناك آوى الى فراشه حيث قضى نحبه قبل مضي شهر على عودته .

وهكذا انتهت أعظم رحلة كاملة في التاريخ بعد مضي ٢٢٤ يوماً من بدايتها. وفيما يلي آخر ما كتبه عنها كولمبوس في دفتره اليومي :

« ان ملاحظاتي عن هذه الرحلة هي ان قدرة الله قد تجلت من خلال المعجزات الكثيرة التي أظهرها تعالى إبانها ، وفيما يتعلق بي شخصياً انا الذي قضيت فترة طويلة من الزمن في بلاط جلالتكم محاطاً بالمعارضة ورغم اراء شخصيات رفيعة الشأن من حاشيتكم الذين كانوا جميعاً ضدي زاعمين ان هذا المشروع كان من وحي الجنون ، لذلك ارجو ان يكون ، بمشيئة الرب ، من أسباب عظمة المسيحية ومجدها الذي تحقق فعلاً الى درجة ما ».

وهكذا كان كولمبوس حتى في لحظات انتصاراته وبعد ما توجت العناية الالهية صبره ومثابرته وسرعة ادراكه ومعرفته البحرية بالنجاح ، لا يستطيع الا الرد على تعنيف الاغبياء والمتشائمين ورجال العلم الذين سخروا منه او شككوا في مقدرته . ان على كل رائد علم او معرفة ان يكابد كثيراً ويتحمل كثيراً قبل ان يستطيع ابراز افكاره الى حيز الوجود . واذا صدف وكان خالي الوفاض لا يستطيع فعل شيء بدون المال ، فعليه ان يتوقع الاستخفاف والتعرض للسخرية والخداع والوقاحة والمباهاة وجميع انواع المعارضة ! ولكن عندما يحصل في النهاية على ما يريد وينجح ، فانه حسناً يفعل اذ يلوذ بالصمت عن مثل هذه الامور بل يجدر به ان يهنىء اولئك الذين شكوا في قدرته بسبب المساعدة التي فشلوا في تقديمها له . ولكن كولمبوس لم يتعلم ان يفعل شيئاً مثل هذا أبداً وكان من الصعب عليه ان يكتب رسالة أو تقريراً واحداً دون حشوه بالتعابير المشينة بحق الذين كانوا يغمطون قدرته مما دفعهم لتحقيره والحط من كرامته بدلاً من تكريمه وتقديم يد العون اليه !

# الفصل التاسع

## ساعة النصر

كان كولمبوس قد ارسل تقريره الرسمي عن رحلتــه ( وهو التقرير المشهور باسم رسالة الى سانتنجيل ) او ( كتاب كولمبوس ) من لشبونة الى برشلونة براً وخشية ان يضيع او ان يصادره الملك يوحنا الثــاني ، بعث بصورة اخرى عنه الى العاهلين مع رسول رسمي ونسخة ثالثة الى بلدية قرطاجنة حيث كانت تقيم عشيقته بياتريز مترقبة عودته مع ابنها فرديناند البــــالغ من العمر خمسة اعوام، وديجو البالغ ثلاثة عشرة عامـــاً . وقبل متابعة سيره الى اشبيلية حيث تريث بانتظـــار استلام الجواب ، اوفى نذوره في كنيستي سانتا ماريا دي لاسنتا في هويلفا وسانتا كلارا دي موغــار بالقرب من بالوس ( التي اخذ اسم نينا منها ) كما قضى اسبوعين مع فراي جون بريز واصدقائه الآخرين المقيمين في لارابيدا . وفي يوم الاحد الواقع في ٣١ آذار ، دخل اشبيلية في ذروة الاحتفالات باسبوع الآلام المقدسة واشترك فيها . وفي احد الفصح الواقع في ٧ نيسان او بعد ذلك بقليل طفح كأس سعادته إذ وافاه كتــاب من فرديناند وايزابيلا معنون الى « الدون كريستوفر كولون اميرال البحر المحيط وحاكم جزر الهند التي اكتشفها ونائب الملك فيها » وكانت هذه هي الألقاب ذاتهــا التي وعداه بها اذا تمكن من الوصول الى تلك الجزر .. وكان وصفه بها دليلاً على ان العاهلين الاسبانيين قد

صدقا بأنه احسن صنعاً ، كما عبرا عن سرورهما بما انجز من الأعمال وأمراه بالمثول الى البلاط ، وأضاف الأمر الملكي قائلاً : « ولما كنا نرغب في ان يكون ما ابتدأتم به بعون الله مستمراً ومتزايداً فقد صدرت الاوامر لاتخاذ الترتيبات اللازمة للقيام برحلة ثانية فوراً » .

حقاً انها لكلمات حلوة ، وسرعان ما نظم كولمبوس مسودة تقرير للعاهلين عن كيفية وجوب استعمار اسبانيولا . وهناك في يومياته شطحات قلم تثبت انه كان يفكر بهذا الامر خلال الاشهر الاخيرة وكانت النتيجة انه عدل فكرته عن مراكز التجارة التي كان يهدف اليها يوم بدأ رحلته الاولى،واقترح الآن ان يصار الى جمع حد اعلى من المستعمرين لا يتجاوز الفي شخص يطلب منهم القيام ببناء البيوت لبلدة محددة المعالم ، مقابل الترخيص لهم بتعاطي تجارة الذهب مع السكان الوطنيين في الداخل ، وكان على كل واحد منهم حسب هذا المشروع ، ان يعود الى بلدته في أوقات معينة ويسلم ما عنده من الذهب بقصد صهره ، الى موظف يطرح من قيمته رسم الخمس لحساب الملك ورسم العشر لحساب الاميرال ورسماً آخر للكنيسة . واقترح ايضاً ضرورة تحديد موسم يحرم فيه السعي وراء الذهب يقوم فيه المستعمرون بزراعة الارض وجني محاصيلها كما اقترح ابعاد الاجانب واليهود والملحدين والهراطقة عن جزر الهند ، أما الكهنة فكان من الضرورة ارسال العديد منهم لتلك الجزر لهداية أهلها .

ومن الواضح ان كولمبوس قد لاحظ نتيجة احتكاكه بقبائل التينو ان حاجات تلك القبائل قليلة سهلة التأمين فلم يكن يتوقع منهم التوافد الى الشاطىء لبيع ذهبهم كما كان مواطنو افريقيا يفعلون ، وربما كان على الاسبانيين ان يعملوا داخل اراضي اسبانيولا وان يزوروا جزراً اخرى لأعمال التجارة . إلا انه كان يتطلب من كل مستعمر ان يراجع شركة التجارة على الساحل وان تقتصر المواصلات عبر المحيط من والى قادس ، لتأمين الرقابة على الرسوم المالية .

وبعد ان ارسل تقريره هذا مع رسول رسمي ابتاع الاميرال ثيابا تليق برتبته

الجديدة وشكل موكباً من نفسه وبعض ضباطه وبعض الخدم الذين استأجرهم لهذه الغاية وستة من الهنود المتعبين من السفر وقد لبسوا زيهم الوطني الكامل المصنوع من الريش بالدرجة الاولى مع عظام السمك والحلي الذهبية ، وكانوا يحملون ببغاوات داخل أقفاص . طار خبر هذا الموكب فتوافد كل من استطاع مشاهدته ، واثارت رؤية اولئك الرجال وسحنهم الغريبة دهشة الناس إذ لم يكن لهم بها عهد في رجال اوروبا . وبعد ان اجتاز موكب كولمبوس بلاد الاندلس الجميلة دخل قرطبة حيث اقام له مجلس البلدة استقبالاً حافلاً ، وهناك التقى بعشيقته وضم اليه ولديه . وحوالي العشرين من نيسان وصل هذا الموكب الى برشلونة حيث هبت المدينة والبلاط الملكي باسره لاستقبال الرجل العظيم !

بلغ كولمبوس ذروة المجد الآن ، وعندما دخل قاعة العرش حيث عقد البلاط الملكي جلسة خاصة وهو يسير بقامته المديدة وشعره الابيض ، وبشرته المهيبة التي لوحتها اشعة الشمس طوال ثمانية اشهر في البحر ، بدا رائعاً مما حمل علماء البلاط على مقارنته باحد شيوخ روما .

ولما تقدم من العرش الملكي حيث جلس العاهل فرديناند وزوجته ايزابيلا ليقدم ولاءه نهضا عن عرشيهما احتراما ، واذ جثا على ركبتيه ليقبل يديهما رجواه النهوض والجلوس الى يمين الملكة . ثم تقدم الهنود وعُرضوا على مرأى من الجميع كما فحصت الزخارف الذهبية وعينات البهارات التي قيل انها من النوع النادر ، وأخذت الاسئلة تنهال كالسيل على كولمبوس ورفاقه الذين ردوا عليها بالتفصيل . ثم انصرف الجميع الى كنيسة الكازار حيث رنموا صلاة الشكر . وعندما وصلت الترنيمة الى السطر الأخير القائل « الهي لقد اتكلت عليك فلا تتركني في حيرة من امري » لوحظت الدموع تنهمر بغزارة فوق وجنتي الاميرال !

كان باستطاعة كولمبوس في تلك اللحظة ان ينال كل ما يصبو اليه : لقباً رفيعاً وقلعة في اسبانيا وراتباً تقاعديا لمدى الحياة او وقفاً يجري عليه خيره . ربما كان من الخير له آنئذ لو رضي بذلك الظفر وأخلد الى الراحة متوجاً بالشرف والكرامة تاركاً للغير مهام التعمير والاستيطان الا انه لم يكن من تلك

الجبلة من الرجال ، ولو انه كان كذلك لما اكتشف اميركا . كان لا بد له من ان يرى الجزر التي اكتشفها تعمر ، وتجارة الذهب تزدهر وتنتظم والاهلين يتنصرون وكان يريد ان يتصل بالخان الاعظم أو بأحد ملوك الشرق العظام ممن هم اعظم من غواكنغاري ... وشعر بأن الحقوق التي منحها بالاضافة الى مهـــام منصبه كنائب ملك وأميرال البحر تحمل في طياتها ( كما بدا له ) شيئاً أكثر ربحـــاً وفائدة مما لو أعطي أي عقار في اسبانيا . زد على ذلك انه كان يتمتـع بصحة جيدة ويفور نشاطاً وفي ربيع عمره ( ٤١ عاماً ) وكان يرى ان المهمـــة التي اختاره الله لها ما تزال في بدايتهـــا . ويتضح شعوره برسالته المقدسة هذه من توقيعه اللاتيني الاغريقي الذي اختاره لنفسه آنذاك ، والذي لا نجد له تفسيراً الان . فحيثما وقـّع كان يكتب حرف $X$ ( ولعله عني بها حرف $Chi$ اليوناني ووضع عليه حرف $S$ يعلوها حرف $M$ وفوقها حرف $S$ وفوق ذلك وضع $Y$ متوجاً بحرف $S$ اليوناني محتفظـاً بالوقت ذاته بالنسب بين الخطوط والنقاط . وها كم الطريقة التي كان يوقع بها :

U. S.A.S X.M.Y :Xpo Ferens

لقد قامت محاولات عديدة لحل هذا اللغز واعتقادي الشخصي ان الأحرف الاولى ترمز الى عبارة لاتينية معناها :

« انني خـــادم المخلص الاعلى ، المسيح ابن مريم » ، والسطر الاخير يشكل صورة لاتينية يونانية من اسمه مؤكداً دوره كحامل لمشعل المسيحيـــة الى البلاد التي لم تعرف المسيح ! وحتى في اوامره القصيرة ومذكراته التي بقيت سليمة الى الآن كان يوقع كما يلي : Xpo Ferens

حضر كولمبوس حفلات البلاط ومناسبات عيد العنصرة ... وأحد الثالوث وعيد الجسد ( القربان ) الا انه يرجح ان تكون حفلة عمـــاد الهنود الستة هي اكثر ما شاقه منها، وفي تلك الحفلة قبل كل من الملك والملكة والطفل دون جوان ان يكونوا آباء في الروح لهؤلاء المعمدين الجدد وقد سمي اكبرهم قدراً وهـــو قريب غواكنغاري ، فرديناند الاراغوني ، وسمي هندي آخر بدون جوان

القاشتيلي ، امـــا الترجمان البارع بينهم فقد سموه : دون دیجو . وقد بقي دون جوان في خدمة بلاط الملك الى ان مات بعد عامين من تعميده ، امــــا الخمسة الآخرون فقد عادوا مع الاميرال الى العالم الجديد .

وإذا كانت حفلات التعميد هذه قد عبرت عن نوايا الملك الطيبة ، ولدرجة ما عن نوايا كولمبوس الحسنة تجاه الهنود فمها لا تحمد معرفته ان تعلم ان التنصير والمعاملة المسيحية في الجزر الهندية لم ينجحـا بالتغلب على الشهوة والطمع وظل الجشع الانساني مسيطراً الى ان شبع . وفي غضون نصف قرن ابيد تقريبـاً كل افراد شعب التاينو . وقد يقال ان التاينويين قد انتقموا بالمقابل لانفسهم مـــن الاوروبيين وان هذا الانتقام لا زال يأخذ مجراه حتى اليوم وذلك بمـــا جلبوا معهم لاسبانيا ، ولو عن حسن نية ، من جراثيم السفلس ( مرض الزهري ) التي كانت عالقة بدمائهم ، وظهر اول وباء للزهري في اوروبا عـــام ١٤٩٤ اذ انتشر بين جنود الجيش الفرنسي الذي زحف على نابولي وارتد عنهـــا ، وكان الاسقف كاساس المعجب بكولمبوس وصديق الهنـــود والذي قضى شطراً كبيراً من حيـــاته وهو يحاول عبثاً حمايتهم من استغلال الآخرين قد أكد بشكل جازم في كتابه « نبذ تاريخية » الذي صدر حوالي عـــام ١٥٣٠ ان هذا المرض انتقل الى جنود الجيش الفرنسي من نساء اسبانيات أصبن بــه من الهنود الذين جلبهم كولمبوس معه الى برشلونة . وأضاف انه اقتنع بعيد الاستفسار مرات عديدة من المواطنين في اسبانيولا ان هذا المرض كان معروفـاً من القديم في العالم الجديد وكان متفشياً منذ زمن طويل حتى ان الاهالي اعتادوا عليه بدون كبير ضرر . . أما الاوروبيون فقد نالهم منه أكبر ضرر إذ أصابهم بابشع الصور واشدها هولا ورعباً ، وادى الى الكثير من الوفيات ، تماماً كما فعـــل الجدري والحصباء بالهنود حينما نقلها اليهم الاوروبيون . ومهما يكن هذا القول موضع جدل كبير يبدو لي ان ما قاله لاس كاساس هو الصحيح إذ ان ملاحي الباخرة نينا لم يكونوا مصابين بالزهري اثناء عودتهم بل ظلوا جميعاً بصحة جيـــدة واستطاعوا ان يصلوا بباخرتهم الى الشاطىء ، ولاحظ كولمبوس نفسه هـــذا

الامر وأبدى دهشته اكثر من مرة لاحتفاظ جميع بحارته بصحة جيدة خلال الرحلة كلها . ولقد قال لي الراسخون في الطب انه ليس بوسع انسان اصيب بالزهري ان يقوم برحلة شاقة تستغرق شهرين من الزمن دون ان يستبد به الداء بشكل يقعده عن العمل !

هذا وليس لدينا تقرير صحيح مشابه عن السفينة بنتا إلا ان جراحاً اسبانياً اسمه روي ديازدي إسلا ... ذكر في كتاب طبع عام ١٥٣٩ انه فيما عدا الوباء الذي انتشر في برشلونة ، فان بحاراً من بالوس اسمه بنزون اصيب بالداء وعالجه هو بنفسه . ومما يجدر ذكره ان ما لا يقل عن ثلاثة من آل بنزون كانوا على السفينة « بنتا » وان قبطانها مارتين الونسو مات بعد وقت قصير من وصولها . ومن المحتمل جداً ان يكون اولئك الهنود الذين اتى بهم كولمبوس الى برشلونة قد لقوا حفاوة بالغة من نساء المدينة فاصبن بجراثيم المرض التي تجري في دماء جميع مواطني اسبانيولا ، وان تكون بعض تلك النسوة قد نقلن الداء بدورهن الى بعض المتطوعين الاسبان في جيش تشارلز الثامن او أنهن رافقن الجيش أثناء تنقلاته .

ومع ان كولمبوس اقام عدة اسابيع في برشلونة الا أنه لم يكن يرتع في أشعة الابهة الملكية او يسلخ وقته في عشرة الاشراف وكبار رجال الكهنوت فحسب ، بل كانت مصالحه الشخصية اول ما يسعى لتحقيقه . ومنحته الارادة الملكية الصادرة بكتب رسمية شعاراً خاصاً وهبه امتيازاً فريداً بأن يقيم في قلعة قشتالة الملكية وقلعة الأسد في مدينة ليون ومجموعة من الجزر ومراسي خمس ، بالاضافة الى شعار الامبرالية !

كما ثُبتت الان جميع الحقوق والامتيازات المشروطة التي كان قد منحها في غرناطة في شهر نيسان السابق ، فأصبح هو وورثته من بعده والى الابد يحملون لقب اميرال البحر المحيط والحاكم العام ونائب الملك في الجزر المذكورة وفي داخل البلاد التي اكتشفها . وبوصفه نائباً للملك كان بامكانه ان يعين كافة الموظفين في جزر الهند ويقيلهم ، وان يمارس بحقهم كافة السلطات المدنية

والجزائية بدون استثناء . زد على ذلك انه كان ، بوصفه أميرال المحيـــط يملك السلطة على كل من ابحر في المحيط غرباً وجنوباً من خط وهمي يمتـــد من جزر الازور الى رأس فيردى . وكانت السلطة الاميرالية تعني ان له ولاقربائه ووكلائه الحق في معالجة أي خلاف بين الصيادين أو البحارة التجار في الميـاه الاميركية وان ينظر في كافـــة قضايا العصيان والتمرد في البحر واعمال القرصنة ومـــا شابه ذلك !

ولم يكن لأحد آنذاك أدنى فكرة عما ستؤول اليه عائلة كولمبوس من الثراء فيما لو روعيت تلك الامتيازات كلها حرفياً . فكلا الملك والمكتشف كان ينويان اقامة مركز تجاري في مجموعة جزر تبعد قليلاً عن شاطىء الصين . حتى ولو تم غرضهما فان كولمبوس كان سيصبح خلال عشرين عاماً أحد كبار الاثرياء في اوروبا . ولكن الذي حدث هو ان فرديناند وايزابيلا شرعـــا دون أي احترام لوعودهما في نقض امتيازاته ولمّا يكن قد جنىمنها الشيء الكثير بعد!

هذا بالاضافة الى ان كولمبوس كان يعمل للعاهلين الى جانب عمله لنفسه . وكان تقريره عن رحلته ( وهو التقرير المعروف عادة باسم رسالة كولمبوس ) قد طبع في كراسة بالحبر من اربع صفحات في برشلونة قبل أو بعد وصوله اليهـا بقليل ، ووصلت صورة عن هذا الكراس الى روما قبـل الثامن عشر من شهر نيسان وظهرت منهـا ترجمة باللغة اللاتينية مؤرخة في ٢٩ نيسان . ولم تكن الغاية من هذه النشرة السريعة اذاعة خبر الاكتشاف بل الحصول على التأكيد البابوي لهذا الاكتشاف الجديد عملاً بأحكام القوانين العامة المرعية في أوروبا آنذاك اذ كان يترتب على كولمبوس ان يبرهن ان ما اكتشفه من الاراضي يقـع خارج نطاق البراءة الممنوحة سابقاً الى ملك البرتغال . وعليـــه فقد سمح البابا الكسندر السادس لفرديناند وايزابيلا ( وكان اسبانياً مديناً لهما بانتخابـــه للكرسي الرسولي ) بأن « يبلغاما يصبوان اليه » في سلسلة من البلاغات البابوية ، التي كان اهمها البلاغ الثالث المؤرخ في ١٤ ايار عام ١٤٩٣ والذي رسم خطـاً فاصلا للحدود بموازاة خط الزوال الشمسي ، يبعد ١٣٠ فرسخاً غربي الازور.

واكد ان أية ارض غير مكتشفة شرقي هذا الخط تدخل في ملكية البرتغال اما ما يقع الى الغرب منه فيعود لاسبانيا !

ومما لا شك فيه ان كولمبوس هو الذي اقترح هذا الخط الفاصل اعتقاداً منه ان البوصلة كانت تتغير من الشرق الى الغرب وان الرياح العاصفة في اوروبا تختفي هناك لتحل محلها الرياح الموسمية الناعمة على طول ذلك الخط الهاجري أو بقربه . اما الأسقف كاساس ... فقد رأى في هذا الخط الفاصل « حداً للحشرات » ايضاً فقد لاحظ أن البحارة والمسافرين بحراً من اسبانيا يتعرضون لمضايقة البراغيث والقمل ، الى ان يصبحوا على بعد مائة فرسخ غربي الأزور حيث تأخذ تلك الحشرات بالاختفاء ، ولكنها ما تلبث اثناء العودة ، ان تبرز من مخابئها في أسراب هائلة . وقد وصفت هذه الاسطورة حياة الحشرات بأنها تختفي عند خط الاستواء ، ولا شك ان قراء كتاب دون كيشوت يذكرون كيف ان فارس « المحيا الحزين » في تلك السفرة المشهورة في القارب المسحور ... امر سانشو بانزا أن يفتش نفسه بحثاً عن الحشرات والديدان لكي يتأكد ما اذا كانوا قد تجاوزوا الخط الفاصل بين نشاط الحشرات واختفائها . ومع هذا فان ذلك الخط الفاصل الذي أقامه البابا بقي دون تنفيذ اذ احتجت البرتغال ولما كانت عداوة جون الثامن لفرديناند وايزابيلا وحروبه معهما مما يهدد طرق مواصلاتها مع جزر الهند الغربية فانها قبلا في معاهدة تورد يسيلاس عام ١٤٩٤ بأن يبعدا الخط الفاصل بما يعادل ٣٧٠ فرسخاً غرباً أي الى بعد ١١٧٥ ميلاً غربي رأس جزر فيردي . ومن ذلك التقسيم الجديد للعالم استمدت البرتغال حقوقها باستملاك البرازيل والادعاء بملكية نيو فاوند لاند ( الارض الجديدة ) .

وخلال الاشهر الثلاثة التي قضاها كولمبوس في برشلونة كانت اخبار اكتشافاته تنتشر بواسطة رسل من الطليان المقيمين في اسبانيا وبواسطة الكتاب المطبوع الذي كانت ترجمته اللاتينية قد طبعت ثلاث مرات في روما عام ١٤٩٣ ، وسبعة عشر مرة اخرى في روما وباريس وانتورب قبل اوائل عام ١٥٠٠ ، اما الى ما وراء جبال الالب فكانت الاخبار تنتقل بطيئة جداً ، ذلك ان العلماء

في نورمبرغ وهي البلدة التي كانت تعد مركز العلوم الجغرافية في اوروباالشمالية، كانوا حتى عام ١٤٩٣ يجهلون ما حدث، وكذلك الاخ بارثولميو المقيم في احدى ضواحي باريس لم يبلغه النبأ في الوقت المناسب ليلتحق بالاميرال في رحلته الثانية.

واعتماداً على ما تذكره الرسائل وسجلات التاريخ نجد ان أهم ما أثار الانتباه من اخبار الرحلة كان الذهب وسكان الجزر العراة وفرصة التبشير بالدين المسيحي. وقد أكد كولمبوس هذه النقاط الثلاث في رسالته المطبوعة كما أشار ايضاً الى أهمية افتتاح طريق تجاري جديد الى الصين وكذلك الى المناظر الخلابة والمناخ الهادىء في الجزر التي اكتشفها. إلا أن أحداً لم يهتم بمثل هذه الأمور إذ كانت اوروبا حينذاك تفتقر كثيراً الى المسكوكات والنقود بحيث أن اكتشاف أي مصدر جديد للذهب كان يثير اهتمام الرأي العام قاطبة ... تماماً كما يحدث اليوم! وكانت الازياء في عـــام ١٤٩٣ تتطلب من المرأة ان تتدثر بالثياب من أعلى الرأس حتى أخمص القدم فكيف إذا اتاك من يقول ان هنالك مجتمعاً يرتدي افراده غلالة رقيقة شبيهة بلباس الحمام البكيني عوضاً عن اللباس الكامل!؟ خل عنك ما في هذا الخبر من الاشارة الى حالة الطهر التي كان رافلا بهـــا جدنا آدم قبل سقوطه!

ولما كانت اوروبا تعاني تأنيب الضمير لتركها المسيحية تتقهقر أمام الأتراك فان هذه الفرصة الجديدة لهدي النفوس واجتذابها لتعاليم المسيحية وبالتـــالي اصلاح ما اعوج من توازن، كل هذا أثار الآمال العراض. أما عن حقيقة أهميـة الاكتشاف بالنسبة لمستقبل اوروبا فلم نجد من علق على ذلك آنذاك بقليـــل او بكثير!!

كما ولم يجرؤ أحـــد على القول أن نبوءة سينكا عن وجود قارة شاسعة قد تحققت!

ولو افترضنا وجود صحافة شعبية على الطراز الاميركي، عـام ١٤٩٣ لكنا قرأنا خـبر اكتشاف كولمبوس على صفحات كبرى كصحف جنوى مكتوباً على الشكل الآتي:

« رجل جنوي يشاهد مواطنين عراة ويعثر على الذهب في رمـــال النهر ! يا لها من ضربة كبرى لصالح ملك اسبانيا » .

« وصل كولمبوس ومراكبه الثلاثة الى الجزر الذهبية المحاذية للهنـد حيث الرجال بدون سلاح والنساء طليقات من كل ثوب !

**برشلونة ٢٠ آذار**

سمع مراسلنا بقصة غريبة مفادها ان اكتشافاً رائعاً قد تم لحساب الملـــك فرديناند ذلك ان الربان كريستوفر كولمبوس ، الذي يقال انه جنوي قد وصل الى جزر جديدة مجاورة للهند بعد ان أبحر ٣٣ يوماً في عرض البحر ابتـداء من جزر الكناري ، في اسطول يضم ثلاث سفن شراعية .

وتفيد التقارير الواردة عن الطقس هناك ان الشتاء في تلك الجزر يشبـــه الصيف . وان السكان الوطنيين يختلفون عن سكان افريقيا وانهم لا يزالون في حالة بدائية فالرجال لا يلبسون شيئاً سوى ريش الطيور ليحلوا بها شعورهم ، والحلى الذهبية على سواعدهم وسيقانهم . امـــا النساء فلا يعرفن الخجل ولا يتسترن بشيء سوى اوراق الشجر الرقيقة . وقد استقبل المسيحيون هنالـــك وكأنهم آلهة هبطت عليهم من السماء فأكرموا وفادهم في جزيرتهم التي تزيـــد مساحتها على مساحة اسبانيا كثيراً ، كما يقول كولمبوس وكذلك قدموا لهم كل ما احتاجوا اليه . وليس لدى هؤلاء السكان كهنة أو محامون ، وهم لا يدينون بدين أو يهتدون بقانون ، وسلاحهم الوحيد حراب من الخشب أمـــا قواربهم فمصنوعة من شجرة واحدة تحمل ما بين ٧٠ الى ٨٠ رجلاً .

اما عن الانهر في تلك الجزيرة فحدّث عنها ولا حرج . إذ هي ملأى بالذهب ، كما يؤكد القبطان الذي أمّ أشبيلية على ان يعود قريبـاً الى تلك الجزيرة ، النبأ الذي أذاعته غرفة التجارة المحلية . ويرفض مكتب الصحافة الملكية تأكيد هذا الخبر أو نفيه !

ولما سئل روفائيل ج . سانشز امين وزارة الماليـة عن رأيه في الموضوع

قال انهـا لأخبار طيبة ان صحت ، فهي تبرر الثقة الهامة في الادارة كما يمكن اعتبارها نصراً في حربنا الباردة مع الاتراك . امـا المحترم جوزيه فاغارتيز ، المدعي العام في اسبانيا فقد صرح بما يلي :

انه أمر طيب شريطة ألا تتسلل الينا افكار شرقية هدامة ! وكان لزامـاً على القبطان كولون ان يأخذ موافقتي قبل جلب هؤلاء الهنود اليـنـا وسأتولى التحقيق معهم حالما يصلون . امـا الدكتور ستيفين غوميز ، استاذ الجغرافيا المشهور في جامعة سلمنكة فقد عبّر عن شكه حينما بلغـه الخبر وقال انه عرف السيد كولون منذ اعوام عديدة ويعتبره مدعيـاً محتالاً فجزر الهند لا يمكن الوصول اليها في ثلاثة وثلاثين يوماً . ويقال ان طلاب الاستاذ الآنف الذكر ازدروا به بعد ان أفضى بهذا التصريح ! ومع ذلك فهناك أشخاص كثيرون يرون ان هذه القصة صحيحة وقد أعدت حفـلة استقبال رائعة في قاعة البلاط للقبطان كولون بانتظار وصوله الى برشلونة !

هذا وبعد ان بحث مراسلنا في كتب الدليل القديمة في المدينة تمكن من ان يعرف شخصيـة المكتشف فهو كريستوفر كولمبوس ابن دومينيكو كولمبو من سكان هذه المدينة . اما الأب لويشي وهو معلم سابق للمكتشف فقد راجـع سجلات المدرسة بحضور مراسلنا وقال انه لا يزال يذكر كولمبوس الذي كان تلميذاً طيباً يواظب على القيام بواجباته الدينية ، الا انـه فشل في الحصول على الشهادة نظراً لضعف معلوماته في الجغرافية ! أمـا والد مواطننا فهو حائك صوف متقاعد عن العمل يقيم الآن في حي القديس يوحنا . ولما اتصلنا به في بيته قال « انني لا أجد أي غرابة في الامر ذلك ان ابني كان دومـاً فتى لا يبالي بشيء سوى النساء والذهب . ولقد قلت عنه انه لا يصلح لشيء بعد ان ترك جنوى ويمّم شطر البحر » !

أما تأكيد كولمبوس بأنه وصل جزر الهند فعـلاً فقد صدقه العاهلان الاسبانيان والبابا على علاته ، بينما لم يقبل به الكثيرون . أما بيترمارتير الأنفيراني وهو عالم ايطالي يعمل في البلاط الاسباني فقد كتب الى احد المراسلين يقول ان

حجم كرة الارض يشير الى ان كولمبوس ما كان ليستطيع ان يصل الى آسيا . ولكنه عاد في تشرين الثاني من عام ١٤٩٣ ووصف الاميرال ، في كتاب ارسله للكاردينال سفورزا بأنه « مكتشف العالم الجديد . وتشير رسائل لاحقة لمارتير ، انه قصد بالعالم الجديد مجموعة من الجزر ، لم يصفها بطليموس وتقـــع بمحاذات ارض الذهب (شبه جزيرة الملايو) وكان هذا الاستنتاج هو عينه الذي توصل إليه كولمبوس عام ١٤٩٨ والذي توصل اليه بعد ذلك بقليل — اميركو فيسبوتشي !:

# الفصل العاشر

## الرحلة الثانية الى امير كا

ما من رحلة أبداً باستثناء رحلة ماجلان ، يمكن ان تعدل رحلة كولمبوس الاولى بأهميتها وبما أثارته . ومع هذا فيجب ألا ننسى ان المكتشف قام برحلات ثلاث أخرى الى اميركا ، كانت كل منها كافية لأن تضعه في المرتبة الأولى بين ملاحي العالم . خصوصاً الرحلة الثانية الهائلة التي اصطحب فيها أعظم اسطول، واكتشف اثناءها جزر الانتيل الصغرى وجميكا ، وبورتوريكو ، كما جاب ساحل كوبا الجنوبي وأتم أول عملية استيطان اوروبي دائم في العالم الجديد .

وقد أعدت الرحلة الثانيـة في قادس . ويقول توملنسون « انك في البحر عندما تكون في قادس ، اذ تسند مرفقيك الى سور المدينة البيضاء العائمـة في زرقة المياه والشامخة كل الشموخ في الفضاء . ووراءك الخليج الكبـير الذي أحكمت اغلاقه الاراضي المحيطة به وخارج أسوار المدينة التي يحكي بياضها بياض الأمواج المكسوة بالزبد في بحر أشرقت الشمس عليه ، يقع مرسى مفتوح حيث ترسو السفن عندما تكون الريح ملائمة . أما الميناء الداخلي الواقع وراء السد حيث رسونا عام ١٩٣٩ ، ونحن في « بعثة كولمبوس » من هارفرد ، فقد أنشىء بعد عهد كولمبوس بزمن طويل .

وبينا كان الامر سنة ١٤٩٢ يتطلب قوة اقناع فائقة لاغراء أي انسان ، ما عدا الأحداث والمغامرين ، بالابحار مع كولمبوس ، وقع القائد هـذه المرة في حيرة من أمره لكثرة المتطوعين إذ ان شهرته وآماله الذهبية من جراء اكتشافه كانت قد بلغت أوجها فتشوق الوف الرجـال والفتيان لمرافقتـه والحصول على الثروة !

وكان العاهلان يعضدان اقتراحـه بانشاء مستعمرة تجاريـة في اسبانيولا فمنحاه عملياً صلاحيات مطلقة فيما يختص باختيار الوسائل. وفي التاسع والعشرين من شهر ايار عام ١٤٩٣ ، اصدرا تعليماتها بذلك. ولما كان الهدف الاول للرحلة الثانية هداية السكان الاصليين لذلك وعين ستة كهنة في الاسطول لهـذه الغاية ، وأنيط بالاميرال الاهتمام بوجوب معاملة الهنـود بحب وحنان. واذا كان ذلك الهدف حقاً ، فمن الغرابة ألا يعين كهنة أكثر عـدداً واقتداراً ، اذ ان الستة الذين رافقوا الرحلة لم يتمكنوا خلال ثلاث سنوات كاملة من ان يهدوا هندياً واحـداً ! وعلى كل حال ، كان عدد العلمانيين الذين جندوا من اجل الهدف الثاني المعلن عنه ، وهو انشاء مستعمرة تجارية ، يفوق عدد الكهنة بنسبة مائتين لواحد ! وكلف قائد الاسطول بالدرجة الثالثة ان يرتاد كوبا ويتأكد مما اذا كانت هي الارض الآسيوية المؤدية الى مدن كاتاي [1] الذهبية ام لا ؟

واتبعت كل دولة استعمارية في اميركا طوال القرن السابع عشر ، هـذه هذه السابقة الاسبانية ، فكانت تصرخ بصوت مرتفع وتكرر القول ان غايتها الاولى هي هداية الهنود الى النصرانية ، وانني ادع الى علماء النفس الحكم فيما اذا كانت هذه الدول تعني ما تقول اصلاً ام انهـا كانت تقوم بهذه التظاهرة للحصول على مرضاة الله ! وقد نكل الجميع بهـذا الوعد باستثناء الفرنسيين في كندا .

ومع ان كولمبوس عين « قائداً عامـاً لاسطول الارمادا » فان امر تنظيم

(١) اي بلاد الصين .

الاسطول قد عهد به الى صديقه « دون جوان دى فونيسكا » رئيس اساقفة اشبيلية ، ليتسنى للقائد العام ان يتمم عمله الديبلوماسي في البلاط ، ويوفي بقية وعوده ونذوره التي تعهد بها في الرحلة الاولى. وفي شهر حزيران تحرك كولمبوس من برشلونة بصحبة الهنود الخمسة المتنصرين وشقيقه الصغير ديجو . وبعد ان مر بمدريد وطليطلة سلك طريق الحجاج الى غوادلوب في جزر الاسترمدوره . واجتاز تروجيللو حيث كان الفتى فرنسيسكو بيزاروا الذي فتح بيرو فيما بعد، يرعى آنذاك قطيعاً من الخنازير لحساب والده وهو ما يزال في الثالثة عشرة من عمره .

وفيما كان كولمبوس يصلي بحرارة وخشوع امام تمثال العذراء في غوادلوب طلب اليه الرهبان ان يسمي احدى الجزر باسم مزارها . وفي طريقه الى اشبيلية مر في بلدة مدلين الصغيرة حيث يبدو ان ولداً صغيراً اسمه هرنان كورتيس [١] قد شاهده وهو يخترق شوارع البلدة .

وفي اوائل شهر تموز بلغ كولمبوس قادس . وبهذا يكون فونيسكا ، حسب مقاييس ذلك العصر قد اجاد كل الاجادة في تنظيم هذه الرحلة التي كانت اعظم حملة استعمارية عبر البحار تسيرها دولة اوروبية . فقد اشترى او استأجر سبع عشرة سفينة شراعية زودها بما يكفي لرحلة تستغرق ستة أشهر ذهاباً وايابا ، وجند على الاقل ١٢٠٠ بحار وجندي ومستعمر وجمع البذور والنباتات والحيوانات الداجنة والأدوات والآلات اللازمة لانشاء مستعمرة ، واصدر العاهلان أوامرهما لجميع موظفي الاندلس ليقدموا لفونيسكا كل التسهيلات اللازمة لابتياع المؤن بالاسعار القانونية وقد وصلت الينا حسابات تبين ما دفع لخمسة وعشرين شخصا مختلفا من اهالي جزيرة جيريز باعوا الحنطة بمعدل ٧٣ مارافديس للبوشل الواحد أي حوالي ١٥ سنتا بالعملة الذهبية . كما دفعت لأناس آخرين اجور طحنها وخبزها بقسماطا — والبقسماط هو المادة القاسية التي تشكل غذاء البحارة الاساسي حتى يومنا هذا تقريبا . وكانت الأبقار والخنازير تجمع وتذبح

(١) وهو مكتشف المكسيك فيما بعد .

وتكبس بماء الملح . بينما كان يجري شراء الخمرة بالمكاييل الخاصة بها وتحفظ في دنان من خشب السنديان تستطيع تحمل السفر . وقد أظهر كولمبوس تذمراً مشروعا من هذا الامر لأن الخمر كان يتسرب خارج عدد كبير من الدنان العتيقة مما جعل الاسبانيين في اسبانيولا يعانون صعوبة لا تصدق في الحصول على شراب غير الماء خلال شهور طويلة ! وكان من أظرف عناصر الحملة فرقة خيالة تتألف من عشرين رماحا باعوا خيولهم العربية الجميلة في قادس واشتروا عوضا عنها كدشا كئيبة المنظر وعاشوا عيشة بذخ من فرق الثمنين ، وقدنجحت هذه الكدش بنشر الذعر والهلع بين أهالي اسبانيولا .

ولا نعرف سوى اسماء بضعة سفن من بين سفن الاسطول السبع عشرة . وكانت اكبرها سفينة سميت « سانتا ماريا » باسم سفينة القيادة في الرحلة الأولى ، وكانت كبيرة عرفت بالبطولة ولقبت « بماريا غالانتي » أي بماريا الشجاعة . وكانت هناك سفينتان أخريان تعدان من فئة السفن الصالحة تدعى احداهما كولينا والاخرى لاغالينا . وكان هناك ما يقارب العشر سفن من ذوات الاشرعة المربعة ، لا نعرف منها سوى نينا الشجاعة ! ثم سفينتان شراعيتان من ذوات الاشرعة المثلثة كما ضم الاسطول قوارب صغيرة استعملت لارتياد المياه القليلة الغور .

اما من حيث الرجال ، فقد اتضح بجلاء غياب أفراد آل بنزون بينما اشترك في الحملة أربعة من أعضاء عائلة نينو من بلدة موغور وكان أغلب البحارة ، شأنهم في الرحلة الأولى ، من المنطقة المجاورة لهويلفا . ولم يكن هناك نساء قط . وكان الجميع يتقاضون اجورهم بموجب مرسوم ملكي ما عدا مائتين من المتطوعين .

ومن المؤسف الا يكون قد بقي أي سجل او دفتر مذكرات عن هذه الرحلة ، ولكن لدينا تقارير مفصلة نظمها ثلاثة ممن أسهموا فيها وهم : الدكتور ديجو تشانكا جراح الاسطول ، ميشال دى كونيو من سافونا قرب جنوى ، واحد اصدقاء كولمبوس في حداثته وكذلك ملكيور مالدونادو وهو ديبلوماسي

اسباني سابق . الذي اعتمد الكاتب بيتر مارتير تقريره أساساً لكتابه « عقود العالم الجديد » . وفضلا عن ذلك فقد روى كولمبوس لاندريه برنالدز ، المؤرخ الاسباني الذي ساكنه عند انتهاء الرحلة تفاصيل كثيرة دونها برنالدز في مؤلفه التاريخي .

وفي الخامس والعشرين من شهر ايلول سنة ١٤٩٣ ، وكان يومـاً خريفياً مشرقاً ذا نسيم ساحلي لطيف ، أقلع « هذا الاسطول » المتحد الجميل كما كان يدعو كولمبوس ، من قادس وكانت كل سفينة ترفع راية قشتيلية[1] الملكية على الصارية الرئيسية فوق مؤخرتها العالية . وقد زين كل ربان سفينته بأعلام العهد الزاهية الالوان كما مدت احزمة البحارة ما بين مقدمة السفن ومؤخرتها وعليها اسلحة المتطوعين بترتيب جميل . وواكب الاسطول حتى عرض البحر على انغام الابواق والقيثارات وطلقات المدافع اسطول من سفن التجذيف التابع للبندقية الذي صادف وجوده آنذاك في الميناء .

وفي الثاني من تشرين الاول بلغ الاسطول جزيرة الكناري الكبرى ، وفي الخامس منه وصل الى غوميرا المدينة التي كانت تحكمها الدونا بياتريز دي بوباديللا . وكان كولمبوس خلال الرحلة السابقة قد تدله بحبها حسب رواية صديقه كونيو . بيد أن استقبالها اسطوله بطلقات المدافع والنيران الموقدة قد لايعني شيئاً — أما اذا كانت الدونا بياتريز قد توقعت ان تمثل معه دور «سيرسي»[2] مع «يوليسس» فقد خاب املها لان كولمبوس لم يمكث سوى بضعة ايام قضى معظمها في تأمين المزيد من المؤن والمواشي لسفنه .

ولا ندري فيما اذا كان كولمبوس قد اسرع بالرحيل لان السيدة قد نبذته ، او انه خلف وراءه سيدة باكية تأبى ان تتعرى ، أو ربما كان حبها قد خبا اواره . لسنا ندري !

وكان من الممكن انتصبح الدونا بياتريز الزوجة الملائمة لصاحب العظمة ...

(١) مملكة صغيرة كانت تقوم داخل اسبانيا وذلك في القرن الخامس عشر الميلادي .

(٢) في اساطير هيرودتس ، ساحرة كانت تحول الرجال الى خنازير .

دون كريستوفر كولون ، اميرال اسطول المحيط المتجه الى الهند الآن وربما انها لم تشأ ، بوصفها ارملة شابة ذات خبرة ، ان يكون زواجها الثاني من بحار أيضاً ، وان تكون رغبت برجل مقيم يعنى بها وبولدها الصغير ! وحدث انها وجدت ذلك الزوج في شخص فاتح جزيرة كناري الكبرى وعاشت معه سعيدة هانئة !

لا يتفق مؤرخان على تحديد التاريخ الصحيح لموعد ابحار الاسطول من غوميرا . ولكن المعروف انه تحرك في موعد سكون الريح في جزر الكناري وأقلع نهائياً من جزيرة فيرو ، أما في ايام الذكرى الاولى لاكتشاف اميركا أو في الثالث عشر من تشرين الاول . وعين القائد اتجاه السير غرباً جنوباً ومع ان وجهته كانت نافيداد إلا انه لم يشأ ان يسلك طريق الرحلة الاولى ، بل اراد ان يختصر عبور المحيط ويقوم باكتشاف جديد في جزر الانتيل الصغرى. والجدير بالذكر ان الهنود كانوا قد افهموه ان ماتينينو ( المارتنيك ) جزيرة النساء الشهيرة ، هي اقرب الجزر الى اسبانيا وان شاريس ( دومينيكا ) تليها من جهة الشمال . وكان الاتجاه الغربي الجنوبي اذن هو الخط الصحيح من غوميرا الى المارتينيك . فكيف تمثل كولمبوس هذا الاتجاه !. في الواقع انه بلغ الجزيرة التالية التي كانت الطريق اليها غرباً ونصف جنوب . وربما حدث ذلك لان بوصلة سفينة القيادة كانت قد ضبطت على نصف نقطة ابعد لجهة الشرق .

لم يكن عبور المحيط هذه المرة ذا حدث يذكر ، فيما عدا عاصفة رعدية هبت ليلة عيد القديس سمعان ( ٢٦ تشرين الاول ) ومزقت عدداً من الأشرعة وأشعلت نيراناً رهيبة على رؤوس الصواري والأعواد المثبتة في أعالي الأشرعة . أمــا فيما تبقى من الرحلة فقد كانت الريح ملائمة ، فقطعت السفن ٢٦٠٠ ميل بحري في فيرو الى دومينيكا في واحد وعشرين او اثنين وعشرين يوماً أي بمعدل ٥ عقد في الساعة !

وينبغي ان يكون مثل هذا الابحار السهل قريباً جداً من حلم البحارة في الحياة الهانئة في عرض البحر . فالاقلاع قبل موعد الرياح الموسمية وفي سفينة

مربعة الأشرعة هو في نظر أي بحار في المحيط شيء سماوي اكثر منه شيء آخر، اذ تستقر حياتك على نمط تقليدي بهيج، لا تزعجك تقلبات الريح أو تغيرات الطقس. وأمامك بصورة مستديمة، تمثيلية الالوان والاضواء على الأشرعة المربعة المتنفخة (فضية في ضياء القمر سوداء في ضوء النجوم، ذهبية عند الغروب، بيضاء كالسحب نفسها ظهراً ! وزرقة الماء الغامقة البديعة، منقوشة بالامواج المكسوة بالزبد الأبيض، ولذة رؤية النجوم الجديدة الطالعة، والبرق الفضي المنبعث من سرب الاسماك الطائرة الذي يقفز من بين طيات موجة المقدمة واللونان الفضي والاخضر تحدثهما جماعة الدلفين في وثباتها !

وكانت سبع عشرة سفينة تترافق في رحلة كولمبوس هـــذه بحيث يمكن للناظر من سفينة القيادة ذات المؤخرة المرتفعة ان يرى أشرعة بيضاء تحيـــط بالافق من جميع الانحاء . وكانت السفن الأكثر سرعة تتقدم في كل يوم لعوبة مرحة، وهي تتسابق حتى اذا مـا أزف وقت الغروب، ودنت ساعة انشاد « السالفي روجينا » تجمعت السفن حول « ماريا غلانتي » ! ولك ان تتصور المشهد وما كان يتطلبه هذا الالتفاف من مهارة في القيادة إذ كان القائد يلح بأن تكون كل سفينة على مسافة سماع النداء منه بحيث يستطيع ان يصدر كل مساء اوامره وثناءه وتأنيبه . واذا ما أقبل الليـــل أضاءت كل سفينة مصباح مؤخرتها أو أوقدت حطباً يابساً، أو خرقا ملوثة بالزيت في مشعل حديدي، وطوال ساعات الظلام، التي تهب فيها الريح الملائمة بقوة وثبات، كان الجميـع يحاولون المحافظة على مواقفهم المعينة، كما هي الحال في قافلة عصرية . وكانت أصوات غلمان السفن تعلن كل نصف ساعة دوران الساعة الرحلية . وكان تبدل الخفر يتم في الحادية عشرة والثالثة والسابعة . وتماماً قبل نوبة خفر الصباح كان الكاهن يقيم ما كانوا يسمونه « قداساً جافا » على ظهر سفينة القيادة حيث تتم جميع الطقوس عدا تكريس الخبز والخمر خشية ان يسبب تأرجح السفينة تسربها أو انسكابها على الارض . وعلى ظهور السفن الاخرى كان الرجـــال ينتظرون رفـــع كأس القربان المقدس ليركعوا ويرسموا إشارة الصليب ثم

ينشدون ترنيمة يتبعها اعلان اشارة تبديل الخفر . وعندئذ ينطلق بحـــارة كل سفينـــة نحو نشر الأشرعة للبدء في مسابقة السفن الأخرى خـــلال ساعات النهار .

وفي يوم عيد جميع القديسين ، وكان القائد واثقـاً بانه سيبلغ اليابسة بعد ٧٢ ساعة لذلك اصدر امراً باعطـــاء علاوة استثنائية من ماء الشرب ، وعند غروب الشمس في ٢ تشرين الثاني عرف ان اليابسة اصبحت قريبة ، شأن الملاح المجرب ، وذلك من تجمع الغيوم في الافق وتحليق الطيور . فأمر بتقصير الأشرعة تلك الليلة خشية الاصطدام باليابسة في الظلام – إذ لم يكن مـــن المتوقع ان يظهر القمر إلا قبل الفجر بقليل . كان ذلك الليل ولا ريب مفعمـاً بالقلق . فكان يخيل للشبان انهم رأوا انواراً وسمعوا صوت تكسر الأمواج على البر ، وكان الادلاء يقومون بعملهم المعتـاد في الميـاه العميقة وهم ينشدون « لا قعر » وكان الضباط في حالة توتر وتهيج . وفي الساعة الخامسة من صبـاح يوم الأحد المصادف ٣ تشرين الثاني ، وقبل ان يبدو في الشرق أول ضيـــاء مادي خافت من أضواء الفجر ، لاحظ أحد مراقبي ماريا غالانتي شكـــلا مخروطياً قاتماً ضارباً على رقعـــة صغيرة من الافق المرصع بالنجوم فهتف : « المكافأة ! ها هي الأرض » وانتقل هتاف الارض . . . الارض « من سفينة الى أخرى واشتد اللغط والهياج فدعا القائد الجميع الى اقامـــة الصلاة على ظهور السفن حيث اخذوا بانشاد ترتيلة « سالفي » ( الشكر ) وترانيم أخرى ورفع الحمد لله بخشوع تام على هذه الرحلة القصيرة الآمنة !

# الفصل الحادي عشر

## ارتياد ساحل جزر الكريب

كانت الجزيرة الكبيرة العالية التي شاهدوها هي جزيرة دومينيكا كما سماها كولمبوس منذ ساعة نزوله الى البر نهار الأحد وما تزال تحمل هـذا الاسم حتى اليوم . وكان الحدث المدهش في هذه الرحلة أن كولمبوس اصاب جزر الانتيل الصغرى تماماً في المكان الذي ظلت تحدده كافة تعاليم الملاحة خلال القرون الاربعة التي تلت ... وفي تلك النقطة بالذات يوجس ممر واضح بـين الجزر لا تتخلله صخور متشعبة خطرة ، فحالما تصبح داخل سلسلة الجزر تستطيع ان تثق بتوفر الرياح المعتدلة سواء كنت متجهاً الى فنزويلا او الى البر الاسباني – الاميركي أو الى فيراكروز وجزر الكريب الغربية ، او الى جزائر ليوارد : بورتوريكو وسانتو دومينغو ، وكوبا . وقد استعملت الغواصات الألمانية هـذا الممر في الحرب العالمية الثانية .

وفيما ازداد ضوء النهـار في الثالث من تشرين ثاني اسرع الاسطول غربا ، واكتشف جزيرة اخرى مستديرة مسطحة سماها كولمبوس سانتا ماريا غالانتي وفاء منه لسفينة القيادة . كما عثر أيضاً على مجموعة جزر سماهـا « تودوس لوس سانتوس » تكريماً لعيد جميع القديسين الذي كان قد انقضى لتوه . ومـا تزال

هذه الجزر تدعى ماريا غالانتي وليسانتي. ونظراً لجهل كولمبوس بوجود موانىء على الجانب الواقع باتجاه الريح من جزر الانتيل الصغرى اندفع يبحث عبثاً عن مخرج طول شاطىء دومينيكا الشرقي ، وأخيراً ألقى مراسي السفينة على الجانب المحجوب عن الريح من جزيرة.ماريا غالانتي . وهنـاك نزل الى الشاطىء في ظل العلم الاسباني واستولى عليها باسم اسبانيا بينما كان أمين سر الاسطول يسجل كل شيء بشكل قانوني صحيح .

وفي وضح النهار شوهدت جزيرة شاهقة على بعد بضعة فراسخ الى الجهـة الغربية . ولما لم يعثروا في جزيرة ماريا غالانتي على أي شيء ذي قيمة او أهمية ، أمر كولمبوس برفع المراسي واتجه حيث الجزيرة الجديدة الكبيرة التي تشبـه الكلية في شكلها والتي سماها « سانتا ماريا دى غواد لوت » كما سبق ووعـد . وتعتبر هذه الجزيرة الآن اقدم مستعمرة فرنسية ، وقد أصبحت فيما بعد منتجة للسكر وبلغت حداً من الاهمية جعلت البريطانيين يفكرون جديا عـام ١٧٦٣ بمقايضتها بكندا !؟

وحينما اقترب اسطول كولمبوس من غوادلوب ، شاهد البحارة منظر شلالات المياه العالية الجميلة بخيوطها الفضية الرقيقة والتي بدت كأنهـا تتساقط من بين الغيوم المرتعة المعلقة فوق قمم الجبال ! ألقت السفن مراسيها جنوبي سفح بركان الجزيرة الذي يبلغ ارتفاعه خمسة آلاف قدم ، وذلك في خليج مأمون يدعى اليوم غراند انسي ( الخليج الكبير ) حيث مكثوا خمسة أو ستة ايام .

ولم يكن بنية كولمبوس البقاء لأكثر من ليلة واحدة لولا أن ديجو ماركوس الذي ذهب على رأس فريق من البحارة الى الشاطىء ضل طريقه في الادغال. ولم يكن ذلك غريباً اذ كانت هذه أول غابة استوائية كثيفة الامطار يصادفهـا الاسبانيون . وكذلك لم يجرؤ الأميرال على تركهم ليعود ويلتقطهم فيما بعد فقـد لا يجد عندها الا عظاماً بالية إذ كان السكان هنا اشنع أكلة لحوم البشر في مجموعة جزر الكريب . وأخـيراً اهتدت احدى الفرق التفتيشية الأربع التي هبطت الى الشاطىء وكل منها يتألف من خمسين رجلاً ، الى ديجو ورجاله . وتعـلم

الاسبان اثناء طوافهم وتفتيشهم مقداراً كبيراً من عادات وأساليب حياة أهالي الكريب ، ذلك الجنس البشري الذي اشتقت منه كلمة « كنبال » ( أي أكلة لحوم البشر ) ففي الأكواخ التي هجرها الاهالي عثر الاسبان على أطراف بشرية وبقايا قطع منتقاة من لحم الانسان مهترئة جزئياً ، وجدوا صبياناً مخصيين يجري تسمينهم لكي يصبحوا الوجبة الاساسية في الولائم والحفلات كما عثروا أيضاً على رهائن من البنات كن يستخدمن بقصد انتاج الأطفال لتوفير المقبلات قبل الطعام . وقد حمل الاسبان معهم ولدين واثنتي عشرة فتاة جميلة ممتلآت الجسم تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشر والسادسة عشر سنة !

وقد استخدمت تلك الفتيات وأفراد التينو الذين جرى أسرهم في غارة على اسبانيولا في عملية الترجمة ، ولأمور أخرى بدون شك ! وبعد جزيرة غوادلوب تمتع الاسطول بسفرة مليئة بالمشاهد الخلابة فيما كانت الريح المحلية الصافية تهب على طول شواطىء جزر الانتيل الصغرى الواقعة تحت الريح . والواقع ان مياه تلك المنطقة توفر أجمل الرحلات البحرية الشتوية في العالم . فكل جزيرة تشكل بذاتها جبلاً عالياً يتراوح ارتفاعه بين الثلاثة والخمسة آلاف قدم عن سطح البحر الكريبي الذي تبدو مياهه العميقة على بعد مئات الياردات عن الشاطىء زرقاء بزرقة الياقوت الغامق ، بينما تختلف الوان مياهه القليلة الغور بين اللون الزمردي المشمع واللون الذهبي الوضاء المائل الى الصفرة . وعند الفجر تبدو الجزيرة التالية كطيف غامض أو شبح مقيم يسبح في وجه خيمة السماء الزرقاء . ومع ازدياد الضوء ولدى الاقتراب بسرعة من الجزيرة ، تأخذ اليابسة بالاتضاح شكلاً وجوهراً ولونا . وبوسع الانسان مشاهدة الشمس وهي تشعل قمم الجبال لهيباً بينما تتغير ألوان الغابات على السفوح من اللون الرمادي الى الأخضر وأخيراً الى زرقة أفتح من زرقة اليم بقليل . وعند الظهيرة تتجمع الرياح وتشكل غيوماً فوق كل جزيرة ، واذا تمكنت من اجتياز الشاطىء الواقع تحت الريح في هذا الوقت شعرت بالهدوء يغمر نفسك في ظل المرتفعات ، وذلك ما حصل لكولمبوس في غواد لوب ! ثم يصبح سطح البحر متماوجاً كالمرآة ، عاكساً

ألوان اليابسة ولا تعكرها سوى فرار الاسماك الطائرة ووثبات الدرافيل . ولكن الهدوء لا يدوم طويلاً ، اذ تهب الرياح فجأة فتغادر الجزيرة متراجعا لتحملق فيها مأخوذاً اذ تهطل زخات المطر بقوة على السفوح المشجرة وتنقلب الغيوم الى ألوان برتقالية مع أفول الشمس . واذا كان الأفق الغربي صافياً بعثت الشمس ، وهي تغيب وراء الأفق ، ومضات زمردية مشعة من طيفها .

وكان كولمبوس متعلقاً بالعذراء حامية البحارة أكثر من أي بحار آخر ، فظل لعدة أيام يسمي كل جزيرة يصادفها تقريباً باسم أحد مزاراتها .

وفيما بعد نقلت بعض الأسماء التي أطلقها الى جزر أخرى بسبب صعوبة حفظ مثل هذه السلسلة الطويلة من الاسماء في الذاكرة . وكذلك بدت الخارطة الشهيرة التي وضعها جون دى لاكوزا ، مساعد الأميرال ، عن الرحلة ، مربكة لكثرة ما حوت من أسماء ، ومع هذا فان بامكاننا تتبع خط سير الاسطول بثقة تامة .

وهكذا بعد مغادرته جزيرة غواد لوب مر الاسطول على جزيرة اطلق عليها كولمبوس اسم سانتا ماريا دى مونسيراتي نسبة الى دير يقع بالقرب من برشلونة ، ولا زالت تدعى كذلك ، ثم وصل الى جزيرة مستديرة صغيرة تبين أنها لم تكن مأهولة ابداً فسماها كولمبوس سانتا ماريا لاردندا . وشاهد منها على بعد عدة فراسخ جزيرة كبيرة في اتجاه الريح لكنه لم يقم بزيارتها وسماها سانتا ماريا لا انتيغوا ، نسبة الى صورة مشهورة للعذراء في اشبيلية . وبات الاسطول ، خلال ليلة ١١ — ١٢ تشرين الثاني امام جزيرة محجوبة عن الريح سماها الاميرال جزيرة القديس مارتين نظراً لحلول عيد القديس مارتين شفيع الجوالين في تلك الليلة . وربما كانت هذه غير الجزيرة الفرنسية الهولندية المعروفة باسم القديس مارتين حاليا ، بل جزيزة نيغز ، الاسم الذي يبدو ان كولمبوس اطلقه على جزيرة سابا التي كانت تعرف بالاصل باسم جزيرة « سانتا ماريا دى لانيف » أي سيدة الثلوج . وقد استوحى هذا الاسم من القصة الجميلة التي تقول أن كنيسة القديسة « ماريا ماغيوري » ثاني أقدم كنيسة في روما شيدت على

« الاسكولين » لان العذراء اشارت الى تلك البقعة بجعل الثلوج تتساقط عليهـ في شهر آب . وبالقرب من نيغز هذه تقع جزيرة سانت « كيتس » الحالية التي سماها كولمبوس حسب العادة باسم شفيعه الخاص نظراً لان شكل الجبل كان يشبه شكل مارد يحمل شخصاً على ظهره . وبعـــد ذلك تأتي جزيرة سانت استاتيوس ، وربما كان اسمها تحويراً لاسم سانت انستاسيا. اما البحارة فيسمونها « ستاتيا » الى يومنا هذا .

قضى الاسطول ليلة ١٢ — ١٣ تشرين ثاني بالسير متثاقلا بالقرب من جزيرة سابا العالية المخروطية الشكل . وكان منظر الاسطول مهيباً اذ كانت السبع عشرة سفينة تسير متمهلة تنحرف ببطء الى الجهة المحجوبة عن الريح وقـــد انعكست الانوار المنبعثة من الفوانيس المعلقة على مؤخرة السفن الكبـــيرة ومشاعل السفن الصغيرة ، على سطح المياه. وكان الصباح يشهد تفرق الاسطول. ولكن ما ان انبلج النهار حتى اسرعت جميع السفن نحو سفينة القيادة لتلقي الأوامر . ثم عين الاميرال وجهة السير غربا باتجاه جزيرة عينهـا الادلاء الهنود وقالوا بأن اسمها « آياي » .

وقد أصبحت هذه الجزيرة التي دعاها كولمبوس سانتا كروز والتي ندعوها الآن باللفظ الافرنسي « سان كروا » ، اول ولاية من الولايات المتحـدة التي اكتشفها كولمبوس ، وكانت سان كروا هذه بخلاف الجزر المثقـلة بالاحراش التي مروا بها ، متقدمة يزرعها سكانها الكريبيون على نطاق واسع بحيث تراءت للاسطول وهو يدلف بالقرب من شاطئها الشمالي كحديقة شاسعة غناء . وبالنظر الى حاجز الصخور الخارجية ، فقد ضل الركب ميناء كريستنستد ، وألقى مراسيه بالقرب من رافد صغير يعرف الآن بخليج نهر الملح . وهنـــا اشترك الاسبان في اول معركة لهم مع أهالي اميركا الأصليين :

أرسل كولمبوس ، عند ظهيرة الرابع عشر من تشرين ثاني ، زورقـاً مسلحاً عليه خمسة وعشرون رجلاً الى رأس الميناء حيث تقوم قرية صغيرة كان الناس قد فروا منها ، ولكن بينما كان الزورق يعود الى سفينة القيادة فوجىء بظهور

قارب كريبي صغير يدور حول رأس الميناء . انذهل الهنود في البدء من رؤية السفن الكبيرة ، ولكنهم سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم وتناول كل منهم القوس والنشاب وأخذ بالرشق ، ومع ان عددهم لم يكن يتجاوز أربعة رجال وامرأتين فقد أصابوا اثنين من الاسبان بجروح كانت جراح أحدهما مميتة . واندفع الزورق الاسباني نحو القارب الصغير وصدمه صدمة قلبته على من فيه ولكن الكريبيين سبحوا إلى صخرة ناتئة واستأنفوا المقاومة كالشياطين الى ان قهرهم الاسبان وأسروهم . وقد أصيب أحد الكريبيين بطلقة تدلت معها امعاؤه خارجاً ، فقذف به الاسبان الى البحر ، ولكنه اندفع باتجاه الشاطىء وهو يمسك مصارينه باحدى يديه ويضرب الماء بالاخرى . فعاد الاسبان وقبضوا عليه ثم اوثقوه يداً برجل وقذفوا به ثانية الى البحر . واستطاع « هذا البربري العنيد » كما وصفه بيترمارتين ان يفك وثاقه ويندفع سابحاً ، وعندها أخذ الاسبان يرشقونه بالسهام على جميع أنحاء بدنه حتى مات ! وعندئذ هرولت زمرة من الكريبيين الى الشاطىء متحمسين للثأر ، وقد طلوا أجسامهم بألوان متعددة بث الرعب في قلوب الاسبان ، ولكن لم يكن بحوزتهم أسلحة تستطيع أن تطال السفن

أوجد هذا الاشتباك عند خليج الملح ، في قلوب الاسبان ، احتراماً عظيماً للكريبيين جعلهم يتركونهم وشأنهم ويتحاشون زيارة جزرهم الا بحماية فرق مسلحة قوية ، كما لم يحاولوا إقامة مستعمرات هناك لسنين عديدة . ولعل اول كريبي امكن التغلب عليه كان فتاة جميلة جداً هي احدى فتاتي القارب الصغير الذي اسره ميشيل دي كونيو في المعركة السالفة الذكر .. وكان الاميرال قد منحها لميشيل كجارية وقد كتب هذا يقول عنها : « بعد ان اخذتها الى غرفتي وكانت عارية كعادة قومها ، اغرتني الشهوة للاستمتاع بها ، لكنها سببت لي خدوشاً مؤلمة بأظافرها فضربتها ضرباً مبرحاً بطرف حبلة مما جعلها تزعق زعيقاً لم اسمع به من قبل ولكننا توصلنا في النهاية الى اتفاق لدرجة استطيع معها ان اؤكد لكم بانها بدت كما لو كانت قد نشأت في مدرسة للمومسات » .

لم يبد كولمبوس أية رغبة للتريث في جزيرة « سان كروا » خشية ان يجلب اهالي الكريب الامدادات ويشنوا معركة حقيقية . ولما كان قد لاحظ القمم المستديرة لعدد من الجزر فوق الأفق الشمالي ، لذلك قرر استقصاء امرها . وبينما كانت السفن تقترب كانت جزر اكثر فأكثر تظهر للعيان . وقد دعاها الاميرال بلباقة : « لاس انس ميل فرجينز » – باسم الأحد عشرة ألف عذراء من كورنول اللواتي قتلن كما تروي الاساطير على يد رجال قبائل الهون قرب كولونيا بعد ان عدن من جولة مرحة في البحار استغرقت اكثر من عام .

استعمل كولمبوس في ارتياد جزر العذارى هذه السفن الصغيرة والزوارق الشراعية وأرسلها عبر الممر الشرقي للتطلع الى جزيرة انغادا . وبعد ذلك انسابت على طول القناة التي دعيت فيما بعد باسم السير « فرنسيس دريك » حيث تقوم على كلا الجانبين جزر عالية انيقة . واعجب البحارة برؤية الالوان الباهرة لبعض الصخور والشواطيء التي كانت بلون الزمرد الاحمر . وفي هذه الاثناء ابحرت ماريا غالانتي والسفن الكبيرة في المياه العميقة جنوبي جزيرتي القديس جون والقديس توماس الكبيرتين ثم عاد الاسطول وتجمع في صباح الثامن عشر من تشرين ثاني غربي جزيرة القديس توماس ، اليوم الذي اكتشفوا خلاله جزيرة سماها كولمبوس « غرتيوزا » باسم السيدة النبيلة التقية والدة صديقه إلساندرو جيرالديني الذي سبق واستضافته وأكرمت وفاده في ايام فقره . ولسوء الحظ استبدل ذلك الاسم الذي يرمز الى بر البنوة والصداقة العميقة باسم فيكوس أي « جزيرة السلاطين » .

وبعد قضاء ليلة أخرى قطع الاسطول الشاطيء الجنوبي لجزيرة كبيرة يسميها الاهالي بوركوين ، ولكن الاميرال سماها باسم القديس يوحنا المعمدان . بينما قرر بونس دى ليون أحد معاوني كولمبوس في هذه الرحلة ، بان بوركوين هذه تصلح له وفعلا أسس عليها في مستهل القرن التالي مدينة سان جوان دى بورتوريكو . وهكذا اقتبست هذه الجزيرة اسمها الحديث من تلك المدينة .

ظل الاسطول مبحراً طول اليوم التاسع عشر من تشرين الثاني على طول

شاطىء بورتوريكو الجنوبي الشديد الانحدار ، وفي صباح العشرين منه دخـــل خليج بوكويرون الفسيح عند طرفه الجنوبي الغربي . حيث ذهب جميع الرجال لصيد السمك وتزودوا بالمياه العذبة وزاروا قرية كريبية كبيرة أخلاها سكانها لدى اقترابهم .

ومن بورتوريكو عبر الاسطول ممر مونا في عشية الثاني والعشرين من تشرين ثاني ورسا على رأس انجانيو في اسبانيولا وهي الجزيرة العظيمة التي اكتشفها في الرحلة الاولى . وقد عرفها أحد الهنود الذين التقطهم كولمبوس من خليج سامانا في شهر كانون اول فوجه الاسطول صوب قريته . وهنـــاك انزل الى الشاطىء مزوداً باصناف لائقة من البضائع على أمل ان يخفف من مخاوف الهنود المرتابين . ويبدو ان الخطة قد نجحت إذ قام عدد من الاهالي بزيارة السفن وتقايضوا معهـا بعض البضائع . وهنا ايضاً تم دفن البحار الذي جرح في معركة جزيرة سانـ كروا حسب المراسيم المسيحية .

وبعد ذلك راح كولمبوس يجوب الشاطىء الذي كان قد اكتشفه . وبالرغم من أنه كان يتوق للاتصال برجاله في نافيداد ، فقـــد رسا خلف جزيرة مونتي كريستي كيما يبحث عن مركز مناسب لاقامة مستعمرته . وهناك شاهـد افراد فرقة كانت تجوب الشاطىء ، أول اشارة الى ما حدث لحامية نافيداد فعـــلى ضفاف نهر ريو ياكوديل نورتي وقعت انظارهم على جثتين عاريتين لرجلين ميتـين وقد تآكلتا بصورة لا يمكن معهـا التعرف على هويتها ، ولكن كان الميتان ملتحيين ، والهنود لا يطلقون لحاهم !

وفي مساء السابع والعشرين من تشرين أول رسا الاسطول خــــارج الممر المؤدي الى ميناء رأس هيتيان وخليج كاراكول ، وبالنظر الى ما سبق وحدث في عشية عيد الميلاد رفض ألاميرال الدخول في الظـلام ، فأشعلت نيران عالية وإطلقت نيران المدافع ، إلا انه لم يأت اي جواب من الشاطىء . وفي ساعـــة متأخرة من الليل تقدم قارب يعج بالهنود الذين كانوا ينادون « الميرانتي » وعندما تحققوا من كولمبوس قدموا له بعض الهدايا من رئيسهم غواكنغاري وأكدوا له

ان الاسبـــان الموجودين في نافيداد يعيشون بسلام إلا ان عدداً ضئيلاً منهم قد توفي .

يا له من تضليل فظيـع ! ولكن ديجو كولون ، الترجمان الهندي ، استخرج الحقيقة منهم وكانت شيئاً فظيعاً رفض كولمبوس ان يصدقه بادىء الامر .

لقد تصرف الاسبان في نافيداد دون أي تعقل او رادع . فقد شكل اثنان من القادة ، وأحدهما بدروجوتيريز ، ممثل التـــاج ، عصابة ، أخذت تطوف الجزيرة بحثاً عن ذهب ونساء اكثر مما كان باستطاعة غواكنغاري ان يقدمه أو يرضى بتقديمه . فأخذوا يشددون الوطأة على كاونابو ، رئيس قبيلة ماغوانا في اسبانيولا ، وكان كاونابو أصلب عوداً وأكثر خشونة من رئيس قبيـــلة المارين اللطيف الضعيف . فقبض على عصابة جويتريز وفتك بأفرادها ثم هاجم نافيداد ليقضي على مصدر المتاعب . ولكن معظم الاسبان كانوا آنذاك في جولة مخلفين وراءهم عشرة اشخاص فقط لحراسة القلعة بقيادة صديق كولمبوس القرطجني ، ديجو دي هارانا . ولمـا كان كل فرد من هؤلاء يعيش منفرداً مع عدة نساء فقد انشغل عن الحراسة ، مما سهل لكاونابو مهمة القضاء عليهم بسرعة بالرغم مـــن محاولات غواكنغاري المستكينة لمنعه . وبعد ان قضى على كل من في القلعـــة طارد الذين هربوا الى الغابات وذبحهم .

وضع هــذا العمل حداً للعلاقات الطيبة بين المسيحيين والاهالي الوطنيين كما اضعف احترام الاسبان لكولمبوس ، الذي كان يفاخر باستكانة رجــال التينو ونقص اسلحتهم الحربية . وقد اوصى فراي بويل،رئيس فرقة رجال الاكليروس ان يعدم غواكنغاري ليكون اعدامه امثولة للآخرين ، ولكن الامــيرال رفض اقتراحه وظل غواكنغاري حليفاً مخلصاً للاسبان .

وكانت القضية المستعجلة امام كولمبوس الآن هي البحث عن مكان مناسب لإقامـــة محطته التجارية . وقد رفض الدكتور شانكا ، طبيب الاسطول الموافقة على اختيار شواطىء خليج كاراكول المليئة بالمستنقعات بالرغـــم من

لطف ومعشر سكانها ، كما قال بأن رأس هيتيان بعيد جداً عن سيباو حيث يحتمل العثور على الذهب ! وهكذا قرر الاميرال الابحار شرقاً للمرة الثانية للبحث عن ميناء مناسب . وكانت التجربة شاقة وطويلة بسبب السير بوجه الرياح الموسمية والتيار الغربي الجارف ، وقضى الاسطول خمسة وعشرين يوماً قطع خلالها حوالي اثنين وثلاثين ميلاً فقط وانهك تبديل الأشرعة باستمرار والتبلل برذاذ المياه المالحة قوى البحارة وأثار غضب المستعمرين كما قضى على عدد كبير من المواشي . وهكذا قرر كولمبوس في الثاني من كانون ثاني عام ١٤٩٤ عندما رسا الاسطول بالقرب من شبه جزيرة محجوبة عن الرياح توفر الحماية ضد الرياح الشرقية ، أن يقيم مدينته هناك وفي الحال . وهكذا نشأت هذه المستعمرة في ساعة شؤم رغم انها سميت ايزابيلا باسم الملكة .

وهنا انتهى عهد الاكتشاف مؤقتاً كما غاض السرور من قلب كولمبوس للمصير الذي آلت اليه نافيداد . ومع ذلك فلا بد انه قد رضي كثيراً عن رحلته هذه الى اسبانيولا . فقد قاد عبر الاقيانوس سبع عشرة سفينة كان الكثير منها صغيراً جداً وبلغ اليابسة بدقة واتقان ، ثم تابع السير عبر سلسلة من الجزر غير المرسومة على الخارطة ، كل ذلك دون التعرض لأي حادث خطير يستحق التسجيل . كما اكتشف عشرين جزيرة كبيرة واكثر من اربعين جزيرة صغيرة لم يسبق لأي اوروبي ان وقع نظره عليها . هذا بالاضافة الى انه حفظ النظام في اضخم اسطول عبر خضم المحيطات حتى الان ، فقد كانت سفنه تحمل على ظهرها ١٢٠٠ رجل من بحارة ومستعمرين وجنود خلال رحلة استغرقت اربعة عشر اسبوعاً . كما تحاشى اي اشتباك في منطقة مأهولة بأكلة اللحوم البشرية ، الكريبيين ، اللهم سوى اشتباك قصير كلفه حياة شخص واحد . وكانت متاعب كثيرة تنتظر الاميرال عندما غادر ظهر سفينته « مارياغالانتي » متوجهاً الى اليابسة ليستبدل مهام منصبه كقائد عام بمهام نائب الملك .

كان انقلاب طالعه حاداً كما جاء بسرعة مذهلة . اذ ظل كولمبوس في السنوات التالية ، يتعرى كلما اعتراه الألم من التهاب المفاصل او ثار عقله ضد

عقول الأمراء ، بذكرى تلك الايام البهيجة من تشرين ثاني عام ١٤٩٣ حينما كان الاسطول ينتشر على طول شواطىء جزر الأنتيل المتعالية والمكسوة بالخضرة ، وقد تراكمت غيوم الرياح الموسمية فوق القمم بينما راحت أقواس القزح تنصب جسوراً فوق الوديان السحيقة بصخورها المشققة ، وكذلك الليالي كانت تنقضي متثاقلة وسفنه المقدامة تحيط به من كل جانب وقد انتشرت النجوم فوقها تبعث بريقاً لا يوصف فيما كانت الأصوات القلبية تشترك في المساء بترنيم التسابيح للعذراء المباركة .

# الفصل الثاني عشر

## المستعمرة الاولى

عزم كولمبوس ، وقد خبر ماهية المحطـــات التجارية من خلال رحلاته الى الوكالة الجنوبية في تشيوس والوكالة البرتغالية في ساو جورج دامينا في افريقيا ، ان يؤسس محطة مماثلة في اسبانيولا لاعتقاده انه سيتعامل مع شعب شرقي غني ، يملك كميات وافرة من المعادن الثمينة والدرر والبهارات التي يسره كثيراً مقايضتها بالبضائع الاوروبية . كان الرأي سليمـــاً ، او لعله سيكون كذلك لو كانت فرضيته صحيحة كما اثبت الاسبـــان والبرتغاليون ذلك بواسطة المؤسسات التي اقاموها فيما بعد في جاوا في الهند وماكاو في الصين ومانيلا في الفليبين .

ولكن لسوء حظ كولمبوس كان فرضه خاطئـــاً . وكان قد لاحظ ببعض الامتعاض اثنـــاء رحلته الاولى ان ليس لدى الهنود سوى القليل الصالح للبيع كما ان حاجياتهم كانت اقل ، لكنهم ظلوا يغرونه بحكاياتهم عن الذهب الوفير في سيباو . وعلى كل حال ، ألم تكن جزيرة كاتاي الذهبية على بعد خطوات فقط ؟!

وهكذا اسست ايزابيلا كمحطة تجارية ، وحتى لهذه الغاية كان اختيارهـا خاطئاً . بل ان معظم المحطات التجارية الاوروبية الأولى في اميركا شيدت على مواقع غير مناسبة ، كجزيرة رونوك مثلاً وجزيرة دوشيت الواقعـة بالقرب من

نهر « سان كروا » ولم تكن ايزابيلا مستثناة من ذلك إذ تندر فيها مياه الشرب كما لم يكن هناك ميناء مناسب اللهم إلا ممراً بحرياً مكشوفاً يمتد باتجـــاه الشمال والغرب ، وكانت المنطقة تعج بالبعوض الناقل لوباء الملاريا . ولكن كولمبوس كان يتعجل انزال رجاله الى الشاطىء واعــادة السفن الى الوطن بعد ان اضاع شهراً كاملاً بالبحث عــن مركز كان من واجب افراد حامية نافيداد ان يجدوه قبل وصوله ، كما ان البرميــل الذي كان عليهم ان يملأوه بقطع الذهب لم يكن هناك ! لذلك وجد ان عليه ان يباشر التجارة بسرعة وينتج شيئاً ثمينـــاً يسر به عاهليه .

وهكذا هبط جميع المستعمرين وبعض البحارة الى البر في ايزابيلا ، حيث وضعوا مخططاً لمدينة على نمط كلاسيكي ( إذ لم يكن هناك ما يرضي الأميرال أقل من قادس مصغره ) مدينة تضم كنيسة وقصراً للحاكم يشيد بمواجهة ساحـة كبيرة مربعة ! وشرع الرجال بالعمل وراحوا يقطعون الاشجـــار والحجارة الزمردية ويحفرون قناة لجلب الماء من أقرب نهر ، كما شيدوا حوالي مائتي كوخ من غصون الشجر للسكنى المؤقتة . ولكن كميات النبيذ والمؤن التي جلبوهـا معهم لم تكن كافية . وبالرغم من أن الدكتور شانكا كان يجرب كل صنف جديد من الاطعمة على كلب ، قبل ان يسمح لاي مسيحي بمسه او تذوقـــه ، أصيب الرجال بالملاريا بسبب شرب مياه الآبار او أكل لحوم السمك الغريب !

وكان كولمبوس ، بسبب تعجله إنجاز الأعمال ، يدفع بالسادة المتطوعين الى القيام باعمال مرهقة مما أثار في نفوسهم سخطاً عظيماً ، فقد جاءوا معه للقتال او الحصول على الذهب وليس للقيام بأشغال حقيرة ! وكانوا لا يحصلون على حصتهم من الطعام إذا رفضوا القيام بالعمل ، الأمر الذي اعتبر طريقة سيئـة في معاملة سيد من قشتيلة .

ومهما كان الأمر ، فان سخط الكثيرين منهم قد هدأ عندمـا سنحت فرصة مبكرة لجمع الذهب !إذ لم يمض أربعة أيام على تأسيس ايزابيلا حتى جهز الأميرال فرقة مسلحة لارتياد سيباو والعثور على المنجم المزعوم ! وكانت الفرصة بقيادة

الأندلسي الرشيق الصلب، الونسو دى هوجيدا الشاب الأنيق الذي لفت انظار الملكة ونال منها قيادة إحدى السفن بمأثرة فريدة إذ دار على نفسه فوق دعامة بارزة من برج يعلو مائتي قدم فوق احد شوارع أشبيلية .

توغل هوجيدا مع عشرين شخصاً او أكثر من الاسبان وعدد من الادلاء الوطنيين في وادي اسبانيولا العظيم حتى وصل الى سفوح التلال في سلسلة جبال كورديللرا الوسطى في سيباو وهناك عثر على دلائل كثيرة عن وجود الذهب وحصل على ثلاث كتل كبيرة كانت احداها كافية لسك خمسين دولاراً ذهبياً .

وفي غضون اسبوعين عاد الى ايزابيلا في العشرين من كانون الثاني حاملا معه أول اخبار سارة خلال عدة اسابيع ، اخباراً وصفها كونيو بقوله... « جعلتنا جميعاً نشعر بالمرح ولم نعد نهتم بالبهارات بل بذلك الذهب المبارك » .

وكان الأميرال يخشى ان يتلفظ الملك ، اذا هـو أرسل السفن الى الوطن بدون ان تحمل اكثر مما جلبه هوجيدا ، بملاحظات ساخرة عن نوع العينات التي يرسلها اليه . ومع ذلك فقد كان لا بد له من ان يخاطر ويتحمل النتائج اذ كانت رواتب بحارة سبع عشرة سفينة تتراكم وكاد الرجال يستنفذون المواد الغذائية ، كما أصيب عدة مئات منهم بالمرض ونفذت عقاقير الدكتور شانكا ولم يبق من مؤن الاسطول اكثر مما يكفيه للعودة الى الوطن . وهكذا استبقى لديه ، ماريا غالانتي وغاليا ونينا وسفينتين صغيرتين وأرسل الاثنتي عشرة سفينة الباقية بقيادة انطونيو دى توريز ، قبطان سفينته الخاصة . وان سخر موظفو الملك من ألوان البضائع التي حملتها السفن بقولهم : « ما هذه القرفة التي طعمها كطعم الزنجبيل الرديء ، وما هذا الفلفل الحار الذي ليس له نكهة بهار الملابو ؟ وهذا الخشب الذي يدّعون بأنه خشب السنديان وليس هو كذلك» . فان كمية لا بأس بها من الذهب بقيمة ٣٠ ألف دوكات [1] كانت تتوج بالحقيقة تلك الاصناف بالاضافة الى ستين ببغاء وستة عشر هنديا . والحقيقة انها كانت حمولة لا بأس بها !

---

(١) دوكات . تعادل تقريباً قيمة ١٤ ليرة ذهبية .

وبعد خمسة وعشرين يوماً من مغادرة اسبانيولا وصل الاسطول الى قادس في السابع من آذار ، وبذلك يكون توريز قد قام برحـــلة سريعة موفقة الى الوطن . وبما انه كان شقيق مربية دون جوان الصغير ، فقد كان من السهل عليه الاتصال بالعاهلين ، ولذلك أودعه كولمبوس خلاصة تقرير شفهي ليقدمــه الى العاهلين . وكانت « مذكرة توريز » كما عرفت ، مشوقة جداً لمـــا تضمنته من نتائج اختبارات كولمبوس الاستعمارية في الأسابيع الاربعة الاولى من رحلته ، وبالتالي لتعقيبات الملك فرديناندو الملكة ايزابيلا عليها .

خول كولمبوس توريز ان يخبر العاهلين بكل ما يتعلق بالذهب ، لا سيما عن طريقة استخراجه من رمال النهر . وانه يعتذر لعـــدم إرسال كميات اكثر من الذهب بسبب مرض العديد من رجاله ، واضطراره لإبقـــاء حامية قوية في ايزابيلا ، واخيراً لعدم توفر الدواب القوية التي تستطيع حمـل المعدن الثقيل ، ذلك المعدن الذي يتطلب نقل حمولة سفينة واحدة منه وقتاً طويلاً جـــداً . أبدى العاهلان موافقتهما الملكية على هذه الملاحظات مـع « الشكر العظيم الى الله » لاكتشاف الذهب !

وكان توريز يحمل توصية من الاميرال لأن يخبر جلالتيهما أن أسباب تفشي الامراض تعود الى اختلاف الماء والهواء ... وان صحة الجميع تتوقف على مدى ما سيقدم لهم من الاطعمة التي اعتادوا تناولها في اسبانيا . ( ولان وقتاً طويلا سيمضي قبل ان يغل القمح والشعير الذي زرعه ، وتنتج الكروم عناقيد العنب وتصبح عقد القصب صالحة لاستخراج السكر منهـــا ، فهو يرى من الضروري تزويدهم بالطعام من اسبانيا خاصة بالخمر والبسكويت ولحم الخنزير المقدد ولحم البقر المحفوظ في الخل . وبما أن عدداً قليلا من المواشي التي حملهـا معه ، بقيت على قيد الحياة ، فهو بحاجة الى ابقار واغنام وحمير وخيل لتوليد البغـــال . وكذلك فهو يتمنى عليهما إرسال بعض « الكماليات » التي تساعد على الترفيــه من المرض كالسكر والزبيب والرز واللوز والعسل . وهناك مشكلة الملبوسات أيضاً ، إذ كان الاسبان يستهلكون الثياب والاحذية بسرعة في تلـــك المنطقة

الحارة الخشنة . فطلب كولمبوس كميات من كل صنف منها بالاضافة الى كميات الاقمشة والجلود ليجري بيعها بأسعار معقولة . كما أكد حاجته الى مئة قطعة إضافية من الاسلحة النارية ومئة قوس ، ومائتي درع للوقاية من السهام السامة وكمية من مسحوق البارود والرصاص !

وكانت قضية تموين وايواء الرجال المشكلة الرئيسية لجميع الرواد الاوروبيين ، فلن تنسى ابداً قصة هلاك المستوطنين الانجليز الاوائل في فرجينيا وكيف قضوا جوعاً لعدم توفر الخبز البلدي ولحم البقر والجعة في بلد تكثر فيه الذرة والصيد والمياه الصالحة ! وكيف كان آباء هؤلاء المغتربين يغرقون بالديون بسبب شحنات الألبسة والاحذية التي كانوا لا يملكون الوسائل لصنعها بأنفسهم .

شعر كل من فرديناند وايزابيلا أن طلبات نائبهما معقولة فأمر رئيس الاساقفة فونيسكا الذي أشرف على تنظيم شؤون الاسطول ، ان يقوم بترتيبات سريعة لارسال كميات إضافية من البذور والجذور والماشية وان يهيء جميع المواد الأخرى التي طلبها الاميرال ، غير انهما لم يوافقا على اقتراحه المتعلق بالألبسة الرسمية وكمية الأحذية .

وقال كولمبوس ايضاً انه مرسل الى الوطن بعض آكلي لحوم البشر الذين قَبَض عليهم في سان كروا لكي يصار الى تنصيرهم وتخليصهم من شهيتهم الوحشية وتعليمهم اللغة الاسبانية للافادة منهم كمترجمين . ثم اوضح فكرته — التي سبق وأشار اليها في رسالته عن رحلته الأولى — بأن أهالي الكريب او أي عبيد آخرين من الهنود يشكلون مادة دسمة للتصدير من اسبانيولا ، ولذلك فانه يرى تجنيد بعض الرجال للهجوم على جزر الكريب بقصد تحقيق ذلك الغرض . كانت العبودية من الأمور المسلم بها في تلك الأيام عند الاوروبيين والمسلمين على السواء ( وهؤلاء ما زالوا يمارسونها ) ، لذلك لم يكترث كولمبوس كثيراً للناحية الخلقية لمشروعه ، حتى ولو فعل ذلك لكان قد وجد مبرراً ، بدون شك ، في ان الهنود كانوا يستعبدون بعضهم البعض ، فلماذا نستعبدهم نحن ؟! وخصوصاً بأننا سننصّرهم ايضاً وننقذ أرواحهم وهم احياء ! ولكن العاهلين لم

يرحبا بمشروع تجارة العبيد وأجابا بأنهما سيحتفظان باعطاء رأيهما فيه الى ان يتمكنا من الاحاطة بتفاصيل اوسع عنه . ولقد حرمت ايزابيلا تجارة العبيد فيما بعد ولكن ليس قبل اقتناعها بأن العملية غير مربحة تجاريا !

واختتم الاميرال مذكرته باسداء المديح للدكتور شانكا وبعض المعاونين الآخرين طالباً رفع رواتبهم ، كما أوصى بأن تقيد أسماء المائتي سيد المتطوعين على بيان الرواتب الملكي لكي يصبح بالامكان مراقبتهم والتحكم بتصرفاتهم .والواقع ان هذه المذكرة تبين في معظمها عن تمتع المكتشف بإدراك سليم وليونة لم يكن يتحلى بها عادة . اما فكرته عن المحطة التجارية كانت تسير في طريق التصفية ذلك ان هنود اسبانيولا لم يكونوا تجاراً كما تضاءل اهتمامهم بالبضائع الاوروبية بعد ان اشبعوا فضولهم منها . ولم تعد محطة تلك التي يريدها كولمبوس بل رأس جسر وممر للغزو ! واقترح كولمبوس على العاهلين على هامش تقريره تزويده بفرقة من عمال مناجم الفضة في استرمدوره . فقد أدرك سلفاً بان جمع أية كمية من الذهب كان يتطلب من الاسبان الذهاب لجلبه بانفسهم ، وقد سببت هذه الطريقة التعاسة للمواطنين الهنود !

وبعد مضي شهر على إرسال الاسطول الى الوطن بقيادة توريز نظم كولمبوس حملة استكشاف كاملة العدة وقادها بنفسه الى داخل الجزيرة . وكان هذا اول زحف مسلح يشنه الاسبان على البر . حيث تبع ذلك زحف كل من بالبوا وكورتيز وبيزارو ، وكورونادو على التوالي .

كان انطلاق الحملة من ايزابيلا في الثاني عشر من آذار عام ١٤٩٤ إذ بدأ عدة مئات من الرجال بالسير جنوباً في صفوف عسكرية ، تحت ظل الاعلام وبين قرع الطبول ونفخ الابواق ، وبعد ان عبر كولمبوس سلسلة جبال كورديللرا الوسطى عن طريق ممر سماه كولمبوس البورتو دى لوس هيدلغوس – خلف رجال الطليعة ، وجد نفسه على مرأى واد فسيح وصفه كاساس بقوله كان « غاية في الازدهار والاخضرار والاتساع وتعدد الألوان كما كان غارقاً كله بالجمال » واضاف : « حتى ان الاميرال الذي تأثر جداً بما رأى قام بتلاوة

الشكر الى الله ، ثم سماه فيجاريال « أي السهل الملكي » . ومشى الاسبان بين حقول الذرة ، وتحت اشجار الماهوكوني والآبنوس وشجيرات القطن والحرير ، ومروا بقرى قدم لهم سكانهـا رزماً صغيرة مملوءة بالتبر . وبعد ان عبروا نهر ريوياكوديل‌نورتي بواسطة القوارب الخشبية الصغيرة او الطوافات او محمولين على ظهور اصدقائهم الهنود اندفعوا فوق منحدرات جبال كورديللرا الشمالية باتجاه ارض فسيحة تطـل على منعطف يؤدي الى الريوجانيكو حيث ترك كولمبوس خمسين رجلاً لبنـاء قلعة بسيطة من التراب . وعين أحد أقدر معاونيه بدرو مارغرت قائداً لها وسماها قلعة سانت توماس ، دعابة وهزءاً بأحد مرافقيه من علية القوم، الذي اكثر التشكك بوجود الذهب في اسبانيولا . وبينما بقي البعض منهم هناك ، تسلق الآخرون الجبال سعياً وراء الذهب وجمعوا منه كمية حسنة ! وكتب كونيو عن هذه الرحلة القصيرة يقول : «كان الطقس فظيعـاً خلال التسعة والعشرين يوماً التي قضيناها في تلك السفرة القصيرة وكنا نأكل طعامـاً رديئاً ونشرب ماء ملوثاً ، ومع ذلك احتفظنا بقوانا وعافيتنا في سبيل جشعنـا للحصول على الذهب » !

امـا اولئك الذين تركوا في ايزابيلا ، فلم يكونوا اقوياء أو جشعين . ولم يعثروا على الذهب للتعويض عن الحيـاة والعمل الشاق في تلك المنطقة الوبيلة ، لا سيما وانهم قد استهلكوا آخر كمية من المؤن الاسبانيـة . فتفشى الملل بينهم ، وأخذت عوامل التمرد تغلي في نفوسهم ، فقيّد كولمبوس العديـد من المشاغبين منهم بالحديد ، ووضع من باب الاحتراس ، جميع الأسلحة والذخـيرة على ظهر سفينة القيادة وعين أخاه ديجو حارساً عليها . كما وضع، لإعادة الثقة الى النفوس والتخلص من المشاغبين خطة لحملة مسلحة ثانيـة بقيادة هوجيدا قوامها اربعمائة رجل وزودها بأوامر للزحف الى قلعة سانت توماس لنجدة الحامية التي يقودها بدرومارغرت والتي كانت تعاني اخطار الهجوم عليها ، ثم لارتيـاد المنطقة والعيش هناك بعيداً عن الأهـالي . وكان هذا أسوأ قرار اتخذه كولمبوس . فمع انه امر هوجيدا بألا يلحق الأذى بالهنود وذكره بأن رغبـة العاهلين بتخليص

أرواح العبيد تفوق رغبتها بالحصول على ذهب بلادهم ، إلا ان أول عمل قـام به هوجيدا هو ان اقدم على قطع اذني احد الهنود لأنه سرق بعض الثياب الاسبانية البالية ، وكبل رئيس القبيــلة بصفته مسؤولاً ، حسب رأيه ، وأرسله مقيداً بالسلاسل الى ايزابيلا .

وبعد ذلك أنجــد هوجيدا بدرومارغرت الذي كان يجوب الفيجاريال – السهل الملكي – على رأس حملة يتراوح عدد افرادها بين الثلاثمائة وخمسين رجلاً والأربعمائة أخذت تسلب الأهالي ذهبهم وتستنفذ مؤنهم من الطعام وتقبض على الأولاد كعبيد وعلى الفتيات لاستخدامهن كعشيقات .

وقبل ان يتسنى لكولمبوس معرفة هذه الأعمال ، أبحر بقصد ارتياد كوبا ، تاركاً ايزابيلا بمسؤولية اخيه الصغير . ووصف لاس كاساس ، ديجو الذي كان يرغب بان يصبح مطراناً بقوله ، انه : « شخص فاضل كتوم ، مسالم ، وبسيط لم يستطع رفع معنويات المستعمرين ، اكثر مما كان يستطيع كبت جماح الأنانيين من أمثـــال هوجيدا ومارغرت ولكن لم يكن باستطاعة كولمبوس ان يثق بأحد سواه » .

# الفصل الثالث عشر

## اكتشاف كوبا

كان يستحيل على كولمبوس تقريباً عندما يعتنق نظرية جغرافية ما ، ان يتخلى عنها . لقد ارتاد من اسبانيولا حتى الآن ، ما يكفي لاقناعه بأنها لا تشبه اليابان التي وصفها ماركو بولو . ولكن اذا كانت سيباو هي غير سيبانجو ، أفلا يجوز ان تكون سبأ مملكة الذهب التي جاءت ملكتها الشهيرة مثقلة بالهدايا للملك سليمان ؟؟ وكيفما كان الحال ، أليست كوبا بمثابة الرأس لآسيا ؟ وكان ذلك أحد الأمور التي أمره العاهلان باستقصاء حقيقتها ، وقد اشار كولمبوس في كتابه الشهير عن الرحلة الأولى إلى أن كوبا جزيرة ومقاطعة من أعمال الصين ولكنه خلال رحلتيه الاخريين كان قد قرر في نفسه ان كوبا كانت ولاية مانجي الصينية . ومانجي هو الاسم الذي اطلقه ماركو بولو على جميع مناطق الصين الجنوبية !

وهكذا بعد ان أرسل هوجيدا الى سيباو ، عاد الاميرال يمارس دوره الطبيعي كمكتشف فجعل نينا ، السفينة البحرية الامينة ، سفينة القيادة ، إذ كانت سفينتا الاسطول الكوبي سان جوان وكارديرا ، من الطراز الذي يستعمل الأشرعة المثلثة ، وقد وصفتا بانهما أصغر حجماً من نينا وتحمل كل منهما على ظهرها

من ١٤ الى ١٦ بحاراً بالمقارنة مع نينا التي كانت تستوعب من ٢٨ الى ٣٠ بحاراً . وبما ان حمولة نينا كانت تقدر بين ٥٥ الى ٦٠ طناً ، ولم يزد طولها عن ٧٠ قدماً، فمن المعقول جداً ان تكون حمولة كل من السفينتين الصغيرتين أقل من ٤٠ طناً وان لا يزيد طول الواحدة عن ٥٠ قدماً . أما عن الضباط فكان يصحب معه واحداً من افراد عائلة تينو المخلصين وبدرو دى تيريروس ، وعدداً آخراً من المحاربين القدماء الذين رافقوه في رحلته الاولى . ومن حسن حظ التاريخ ان ميشيل دى كونيو صديق كولمبوس الثرثار ، رافقهم كمسافر ، كما انضم اليهم جون دى لاكوزا ، واضع الخرائط بصفة بحاراً كفؤاً . أما ديجو كولون الذي يعتبر من أفضل افراد قبيلة التينو المتنصرين ، فقد التحق بهم كترجمان كما رافقهم كاهن لا نعرف اسمه .

أبحرت السفن الثلاث من ايزابيلا في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٤٩٤. وكان ذلك أنسب فصل للابحار حول جزر الانتيل الكبرى ، حيث يمكن الاعتماد على الرياح الموسمية اثناء النهار وعلى النسيم الذي يهب من الشاطىء في الليل ، كان الهواء لا يزال بارداً ولم يكن ثمة خطر من الاعصار . وفي التاسع والعشرين عبرت السفن الممر الواقع باتجاه الريح والمؤدي الى رأس ماسي الذي سماه كولمبوس رأس الفا وأوميغا وذلك في رحلته الأولى . وهناك نزل إلى البر ونصب عاموداً علق عليه صليباً ، وأعلن الاستيلاء على كوبا رسمياً باسم اسبانيا. ثم قرر ان يعمل بنصيحة ضباطه بأن يطوف الساحل الجنوبي بدلاً من الشمالي ، وذلك لأنه اذا كان ثمة شيء حسن فسيكون بالاحرى في الاتجاه الجنوبي بدلاً من الشمالي . وكانت هذه نظرية أرسطو طاليس القديمة التي أيدتها خبرة البرتغاليين في افريقيا ، والقائلة : « كلما ابحر المرء بعيداً الى الجنوب ، كلما وجد كميات أكثر من الذهب والاشياء الاخرى الثمينة » .

وبعد رأس ماسي اكتشف الاسبان اراضي جديدة . ثم اتجهوا غرباً — جنوباً على طول شاطىء محاطبالصخور لمسافة خمسين ميلا متمتعين بالاريج الطيب المنبعث من اليابسة والذي كان مزيجاً من روائح عشب البحر والصبير والنباتات

ذات الرائحة الذكية ( كما حدث لنا نحن البحارة المعاصرين ، على ظهر سفينتنا ماري أوتس التي كانت بحجم السفينة كارديرا تقريباً ) .

وعندما أقبل مساء اليوم الاخير من نيسان دخلوا في ميناء عظيم يشبه المنجل سماه كولمبوس بورتوغراند ( الميناء العظيم ) . وهو خليج غوانتانامو حيث تقوم الآن في القرن العشرين قاعدة بحرية اميركية هامة . ووجدت الفرقة التي نزلت الى الشاطىء أن الاهالي كانوا قد هربوا رغم انهم كانوا منهمكين بطبخ وجبة غداء هائلة من السمك والسقايات لرئيسهم الذي كان على وشك ان يقيم وليمة لتكريم رئيس قبيلة قادم لزيارته . غير أن ديجو كولون نجح باقناع الطباخين بالعودة والاشتراك بالوليمة مع الاسبان الذين كافأوهم بهدايا من اجراس الصقور وبعض الادوات الأخرى التافهة عما تكبدوه من مشقة في صيد كمية اخرى من السمك لتكريم رئيس القبيلة . واغتبط الهنود لان ضيوفهم غير المدعوين رفضوا ان يلمسوا لحم السقايات المحمر التي يعتبرونها الوجبة الوطنية المحببة ، كما لاحظ الاسبان من جهتهم أنهم يفضلون أكل لحم التماسيح عليها !

وفي صباح اليوم الاول من أيار انطلق الاسطول مع نسيم البر . وتناقل هنود غوانتانامو نبأ الاسبان بواسطة جذوع الكرمة ، وهكذا ، بينما كانت السفن تبحر قريبة من الشاطىء الوعر هرعت جماعات من الهنود الى حافة المياه ، ومنهم من جذّف بقاربه الصغير حاملاً للبحارة خبز الكاسافا والمياه العذبة متوسلا الى « الرجال الذين جاءوا من السماء » ان ينزلوا بضيافته . والجدير بالذكر انه لم تقع اية حوادث مشؤومة بين الاسبان وأهالي كوبا ، كما وان العلاقات بين الأجناس المختلفة لا زالت هناك ، كما كانت منذ العصر الذهبي ، ويكفي كولمبوس فخراً انه حافظ عليها الى نهاية رحلته .

وعلى بعد اربعين ميلاً غربي غوانتانامو ، شاهد الأميرال ثلمة في سلسلة الجبال الوعرة فأبحر في بوغاز الصخور الشاهقة ، ولا يزيد عرضه عن ١٨٠ ياردة ، حتى وصل الى الخليج العظيم حيث شيد السيد فيلاسكويز ، بعد عشرين عاماً ، مدينة « سنتياغو دي كوبا » . وهناك ايضاً ظلت العلاقات بين الاسبان والأهالي

الذين كانوا ينعمون « بأروع الجنائن في العالم » مثالية جداً . وعندمـــا أقلع الأسطول في فجر الثاني من ايار مر بالمياه التي شهدت معركة سنتياغو بعد أربعة قرون ، تلك المعركة التي انهت الاستعمار الاسباني في كوبا .

وبعد انطلاقة سريعة نزل كولمبوس الى رأس سمـاه «كابو دى كروز» أي رأس الصليب (كما لا يزال يسمى) لأن تاريخ بلوغه وافق التـاريخ المعترف به لاكتشاف الصليب الحقيقي . وهناك ، بدلاً من ان يدور ليلج خليج غواكتانايابو، قرر الاميرال السفر الى جميكا التي اخبره عن وجودها ، هنود سنتياغو . وكان وقع اسمهـــا المحلي - جميكو - على الاذن يشبه وقع اسم جزيرة - بابيكو - الذهبية التي كان قد سمع عنها في رحلته الاولى ، ولذلك امل ان يجد ذهباً فيها بعد ان بدا له ان لا أثر للذهب في كوبا .

قضى الاسطول يومين وهو يسير متمايلا في بحر هـائج بسبب اشتداد الرياح الموسمية . وبعد ان أمضى البحارة وقتاً طويلاً وهم على ظهر السفن ، سمح كولمبوس لربان نينا ، الونسو ميديل ان يأذن لهم جميعاً بالنزول الى العنـابر للاستراحة الضرورية حالمـــا تهدأ السفينة . وبعد قليل لاحظ الأميرال ان الطقس اخذ يميل الى الاعتدال ، فصعد بنفسه الى ظهر السفينة لينشر الأشرعة لكي لا يزعج نوتية الحراسة المتعبين . ولا أتصور بأنه استطاع ان يقوم باكثر من نزع حبال شراع المؤخرة وترتيب دعامات القلع الأمامي الصغير قبـــل ان استفاق البحارة على صوت الأشرعة وتبدل السرعة ! بيد ان الحادث أوضح مدى التقدير الذي كان يبديه كولمبوس لبحارته ، كما أنه ساعد على تفسير ولائهم له بالرغـــم من المشقات العديدة التي زجهم فيها والاتاوات القليـــلة التي جنوها من رحلاته .

وفي الخامس من ايار رسا الاسطول في خليج القديسة حنة في جميكا الذي سماه كولمبوس خليج سانتا غلوريا . وقد وصف الأميرال هذه الجزيرة بقوله : « أجمل ما وقعت عليه العين واكثر كثافة بالسكان من جزر الأنتيل الكبرى» . وخرج ستون أو سبعون محاربا هنديا بقواربهم الخشبية الصغيرة لمجابهة الاسطول،

مظهرين عزمهم على القتال ! ولكن طلقة مدفع واحدة أعادتهم الى الشاطىء . ولما كان كولمبوس يريد خشباً ومـاء وفرصة لسد شقوق إحدى سفنه ، تابع سيره الى ميناء ريوبينو الواقع لجهة الغرب . وهناك قام الهنود بتظاهرة عدائية اخرى ، ولكنه في هذه المرة ، أنزل قواربه خلفهم ، وعليها بحارة مسلحون بالقوس والنشاب قاموا برميهم وقتلوا البعض منهم . وعندما نزلوا الى الشاطىء اطلق كولمبوس خلف الهنود كلبـاً هائلاً نهش بعضهم بوحشية وراح يطارد الآخرين . وقـد استمر العمل بتكتيك ازعاج الهنود بالكلاب الوحشية في اسبانيولا كما كان قد عمل بها في جزر غوافشي الواقعـة بين جزر الكناري ، ولكن أهالي ريو بينو ، وهم من قبيـلة التينو عمدوا الى تهدئة الاسبان بتقديم المؤن لهم فوراً ، ولكنهم عجزوا عن تقديم الذهب . وهكذا قـام الاميرال بزيارة أخرى لجميـكا في خليج مونتيغو ثم عاد وأبحر الى رأس الصليب بموافقة الريح .

استأنف الاسطول الان جولاته على شاطىء كوبا الجنوبي متيقظـاً للبحث عن المدنية الصينية . فأبحر حول خليج غواكنايابو ومع بزوغ شمس الخامس عشر من ايار شاهد مجموعـة من الجزر الصغيرة ( أرخبيـل ) قرب شاطىء لابرينتو دى دوزي ليغاس فسماه كولمبوس أرخبيل « الـ جاردن دى لا رينا » – أي جنينة الملكة – وقد وصف كولمبوس هذه المجموعـة من الجزر الصغيرة بقوله انها كانت جميلة جداً ، وكان الاهالي يستثمرون بعضها في الزراعة بيـنما كانت أشجار النخيل الباسقة واشجار القرع تزين بعضها الاخر. واعجب الاسبان بمشاهدة الطيور الضخمة التي تشبه طيور ابو لهب وطيور الكركي لكن بلون أحمر زاه ، كما شاهدوا الاهالي وهم يصطادون « السلاحف » بواسطة طعم من الاسماك الأليفة . فكان الهندي يصطاد سمكة بحرية مدربة واضعاً الشفاطات على رأسه ثم يقذف بها في الماء ويطيل لها الخيط عند اقتراب السلاحف منـه . وكانت السمكة تتعلق بالسلحفاة فلا يبقى على الهندي إلا ان يشدها اليـه . وكانت هذه إحدى قصص كولمبوس التي وجد الاوروبيون صعوبـة عظمى في

تصديقها ، ولكنها كانت صحيحة ، وما زال أهالي كوبا يمارسون صيد الترسات بنفس الطريقة !

لقد وجدنا ارخبيل « جنينة الملكة » في عام ١٩٤٠ مخيباً للآمال . فقد فتكت الاحراج بمعظم النباتات الأخرى فيها ، كما يبست هذه الاحراج نفسها . غير ان قنوات المياه بين تلك الجزر كانت معقدة وضحلة بحيث جعلتنا نشعر أن كولمبوس كان ملاحاً ماهراً في المياه القليلة الغور كما هو فوق مياه المحيط .

أبحرت السفن الثلاث عبر بوكا غراندي ، ثم جددت سيرها باتجاه سلسلة جبال ترينيداد . وفيما كان الاسطول يمخر المياه بموازاة هذا الساحل الوعر القريب من سلسلة جبال ترينيداد ، كان الاهالي يهرعون الى الشاطىء وهم يحملون الهدايا ويرحبون بالاسبان « الهابطين من السماء » . ولكن ، وحق القديس فرناندو ، لم تظهر أمامهم أية سفينة صينية او قارب او معبد او جسر ! أيمكن ان تكون حضارة كاتاي[1] لم تصل بعد الى الاجزاء النائية من املاك الخان العظيم ؟! أم ترى ان هذه ليست سوى جزيرة أخرى كبيرة ؟!

اخطأ كولمبوس الممر الضيق المؤدي الى الخليج حيث شيدت مدينة سينفوغس فيما بعد واكتفى بارتياد خليج كوشينوش حيث لاحظ جداول المياه الجوفية المتدفقة من تحت مياه البحر الى أعلى والتي تمكن البحارة من ان يملأوا منها براميل الشرب دونما حاجة للنزول الى الشاطىء . وقد ذكر كولمبوس ان تلك المياه كانت « بالغة البرودة والعذوبة بشكل ليس له نظير في العالم » . ثم هبط هو وفرقة من البحارة الى الشاطىء حيث « استرحنا على العشب الأخضر قرب الينابيع المتدفقة وسط عبير الزهور الرائعة وعذوبة تغاريد العصافير الصغيرة الكثيرة المبهجة ، وفي ظل اشجار النخيل الباسقة والجميلة بشكل يجعل الناظر يلتذ برؤيتها كلها » . وقد دون اندري بيرنالديز هذه الكلمات كما وردت على شفتي كولمبوس نفسه .

---

(١) الصين .

ولسنا بحاجة الى كبير جهد لأثبات ان تقدير كولمبوس لجمال الطبيعة كان شبيهاً بتقدير مثاليي القرن الثامن عشر، وفريدا بين روّاد ذلك العصر الاكتشافي.

دخل الاسطول الصغير الآن خليج بتبانو ، حيث شاهد الأميرال ظاهرة غريبة أربكت العديد من الملاحين بعده ، وهي اصطباغ المياه بلون ابيض كالحليب ثم تحولها الى لون اسود كالحبر . وكان اللون الابيض ينجم عن التراب الأبيض الناعم الذي كانت تحركه الأمواج في تلك المياه القليلة الغور ، والاسود من تحريك الرمل الاسود بنفس الطريقة .

وذكر كولمبوس باسلوب بليغ حي ان شواطىء هذا الخليج كانت كثيفة باعشاب الغابات الى درجة كبيرة بحيث لا تستطيع قطة عبورها الى الشاطىء ! وفي السابع والعشرين من ايار وصل كولمبوس الى الطرف النهائي من شبه جزيرة زباتا التي دعاها بونتاديل سرافيم [1] لموافقة يوم وصوله يوم عيد جميع الملائكة ، ثم عبر اسينادا بروا حيث ألقى مراسيه بالقرب من مدينة بتبانو الحالية .

ومع ذلك لم تظهر في الافق أية دلالة عن الصين ! وقال الهنود القاطنون قرب ترينيداد ، إما بدافع إرضاء الأميرال ، أو لانهم كانوا لا يعرفون افضل من ذلك ، ان الشاطىء يمتد غرباً الى ما لا نهاية ، وان المنطقة الغربية كانت تدعى ماغون ، التي فسرها كولمبوس بأنها مقاطعة مانجي ! وصرح أحد الصيادين الهنود أيضاً بانه رأى ، وهو يصطاد في الغابة القريبة من بتبانو بعض الأهالي من ذوي البشرة الفاتحة وهم يتجلببون بأثواب بيضاء طويلة حتى ركبهم . وسر كولمبوس باستنتاجه أن هؤلاء الناس مسيحيون فلا بد ان يكون قد تخطى الصين اذن ، ووصل الى الحبشة ولكن تلك الفكرة لم تدم طويلاً .

وبينما السفن تسير غربا على طول شاطىء مقاطعة « بينارد ديل ريو » الجنوبي تورطت في منطقة مياه ضحلة كانت أسوأ ما تعرضت له حتى الآن .

---

« ١ » عيد جميع الملائكة

ولم تستطع السفن عبور تلك الأقنية الا بواسطة الطريقة الشاقة بسحبها بالمرساة وكانت هذه العملية تقضي بان يجذفوا اماماً الى طول مرمى المرساة ثم يسحبون السفينة اليها بالملونية بينما تحتك قاعدتها بالوحـــل ، ثم تخطوا في سيرهم حدود حضارة قبائـــل التينو ودخلوا في آخر معقل لقبائل سيوني ، حيث لم يكن باستطاعة ديجو كولون ان يفهم من لغتهم شيئا .

ويقول القبطان ليكي في مقدمة كتابه الشهير « تعقيدات في الملاحة العملية » : « ونجد بالمقارنة ان قلة من البحارة يجيدون الرياضيات ومن حسن الحظ ان تكون الحال كذلك إذ يندر ان تجمع الطبيعة بين نبوغ أحد تلاميذ كمبردج في العلوم الرياضية وبين تلك اللباقة العملية والقدرة على مراقبة الاشياء السطحية والتأهب في الأحوال الطارئة التي تبدو في غاية الضرورة لربان ناجح في البحر » . كم ينطبق هذا الوصف على كولمبوس ! فقد قرر الآن اعتماداً على الرياضيات ، بانه قطع على الأقل نصف الطريق حول العالم ، بينما لم يقطع في الحقيقة سوى أقـل من ربعهـا ، أي ٨٤ درجة من خطوط العرض غربي غرينتش . وبينما كان كولمبوس في بهايا كورتيس حيث تنحرف أراضي كوبا جنوبا ، توهم انه اصبح في خليج سيام وظن انه لن يحتاج لاكثر من يوم واحـــد ليدور حول شبه جزيرة الملايو ثم يدخل بعدها في مضيق ملقه . اذن فلماذا لا يعود الى اسبانيا بالدوران حول العالم متتبعاً أثار بارثولميو دياس وفاسكودى غاما ؟!

ولكن من حسن الطالع ان عاد الادراك السليم الذي يتحلى به البحار الماهر لانقاذ الموقف . فقد كانت المياه تتسرب الى السفن بسبب الارتطامات المتتالية بالأرض ، كما اوشكت أشرعتها على ان تتمزق كلها وتصبح خرقاً بالية ، وقلت المؤن ، كما شرع البحارة يزمجرون ويتذمرون . وهكذا قرر الاميرال ان يعكس اتجاهه ، ورأى ان يتبع السابقة التي وضعها دياس عندما اضطر للعودة عام ١٤٨٨ وهو على أبواب الهند تماماً ، فانتزع من كل بحار تقريباً اعترافا بمعنى ان كوبا لا بد ان تكون جزءاً من قارة وبأن من العبث الابحار الى أبعد ممـــا وصل اليه اذ لا يمكن أن يكون هناك جزيرة بمثل هذا الطول . والحقيقة انهم

كانوا على بعد خمسين ميلاً فقط من رأس كوبا الغربي . ولكن هذا الادعاء لم يقنع حتى جون دى لا كوزا الذي أظهر كوبا على خريطته الشهيرة كشريط ضيق من اليابسة محاطة بالمياه من كل جانب . وقد ظل رسامو الخرائط في اوروبا لسنين عديدة يرسمون صورتين مختلفتين عن كوبا ، الاولى تمثل الجزيرة الحقيقية والأخرى تمثل جزيرة قارية تشبه الصورة الذهنية التي تخيلها ماركو بولو عن مقاطعة مانجي والتي أصر كولمبوس على انها صحيحة !

بدأت رحلة العودة الى جزيرة ايزابيلا في الثالث عشر من حزيران عام ١٤٩٤ . وكانت التجربة في معظمها شاقة جداً لأنها كانت ضد الريح وضمن الجزر الصغيرة نفسها كما كان الحال في رحلة القدوم وذلك لأن كولمبوس لم يستطع التقدم في المياه العميقة بوجه الرياح الموسمية والتيار المتدفق غربا . وقد كتب عن ذلك يقول : اذا كانت السفن تسير في جزر الهند والريح تضربها من العرض باتجاه المؤخرة فان ذلك ليس بسبب التصميم الخاطىء وجهل القيادة بل لأن التيارات الهائلة التي تسير هناك بنفس اتجاه الريح ، تجعل من العسير على أي انسان ان يحاول مقاومة الشد لأنه في هذه الحالة سيخسر في يوم واحد ما أحرزه من التقدم في سبعة أيام ، ولا استثني من ذلك السفن الكبيرة أو حتى السفن البرتغالية ذات الأشرعة المثلثة !

أما سجله الرائع بالإبحار باتجاه الريح مع نينا وبنتا عام ١٤٩٣ فقد احرزه يوم كان يبحر في مياه عميقة خالية من التيارات . والحقيقة ان السفن الشراعية لم تستطع مواجهة الحالات التي وصفها كولمبوس الى ان تم بناء يخوت السباق الحديثة . وحتى هذه اليخوت نفسها كثيراً ما تجبر على مواجهة تلك الحالات بالدوران على نفسها . ويخبرنا وليام هيكي وهو يكتب في بلدة القديسة ماري في جميكا في السنوات الأخيرة للقرن الثامن عشر عن سفينة راحت تحاول مقاومة الريح من كينغستون الى مرفأ مورانت ، أي لمسافة لا تزيد عن العشرة أميال فيقول : « كانت السفينة تقاوم البحر يومياً ، ففي الصباح تسير وأشرعتها مشدودة الى أقصى ناحية اليسار ، وفي المساء وأشرعتها مشدودة الى أقصى

ناحية اليمين ، ومع ذلك كانت تتقهقر الى النقطة التي تنطلق منها . وظلت تقوم بذلك لمدة ثمانية ايام متتالية بدون ان تتقدم ميلاً واحداً الى الامام » !

وتعلم كولمبوس من تجاربه عام ١٤٩٤ ان الطريقة الوحيدة لاحراز بعض التقدم باتجاه الريح تنحصر في البقاء في المياه الهادئة وتلافي التيار ، ثم الاستفادة من هبوب النسيم في الليل . وقد احتاج كولمبوس الى خمسة وعشرين يوماً كي يقطع حوالي مائتي ميل . وفي الوقت الذي وصل فيه الى ارخبيل « جنينة الملكة » لم يعد يطيق الابحار في المياه الموحلة فغير وجهة السير خارج جزر لابرينتو دي دوزي ليغاس ليصل الى المياه الزرقاء حيث قضى عشرة ايام قطع فيها مسافة مائة وثمانين ميلاً قبل ان استطاع الابحار باتجاه الريح وأصبح من الواجب تحديد حصة البحارة من البسكويت المتعفن الى رطل انكليزي ، ونصف ليتر من النبيذ المر يومياً بينما كان البحارة يتذمرون ابداً . وأخيراً وصل الأسطول الى رأس الصليب في الثامن عشر من تموز حيث رحب به اصدقاؤه الهنود وأكرموا وفاده . قرر الأميرال مراجعة خرائطه ليحصل على معلومات أكثر عن جميكا لئلا يتعرض لرحلة طويلة اخرى ضد الريح بموازاة ساحل المقاطعة الشرقية المكتنف بالصخور .

دخل الاسطول خليج مونتيغو ثانية في الواحد والعشرين من تموز . ومن ذلك المشهد الذي كتبت له الشهرة فيما بعد ، أبحر حول الطرف الغربي من جميكا . وانطلق الى الشاطىء الجنوبي الذي ظلت السفن تسير بمحاذاته ملقية مراسيها في الليل ، كان الهنود لطفاء مسالمين ، وبالغ أحد رؤسائهم بكرمه لدرجة مربكة ، فقد خرج الى سفينه القيادة برفقة اسطول من القوارب الخشبية الصغيرة حمل أفراد عائلته وحاشيته وهم يغطون رؤوسهم بريش الببغاوات الرائعة الالوان وبعض الاشياء الصغيرة الاخرى . وكان رئيس القبيلة يضع على رأسه اكليلاً مرصعاً ببعض الاحجار الكريمة المصقولة وأقراص الذهب والنحاس التي لا بد ان يكون قد حصل عليها من أميركا الوسطى . وكان يقف على مقدمة قاربه مناد يرتدي ثوباً مصنوعاً من الريش الأحمر ويحمل بيده شعاراً أبيض .

وكانت زوجته تتحلى مثله بجواهر محلية بالرغم من انها لم تكن ترتدي شيئاً نستطيع ان نسميه ثياباً اللهم إلا قطعة قطنية صغيرة بحجم قشرة البرتقالة ! أما ابنتاه البالغتان الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمريهما فقد كانتا عاريتين تماماً وجميلتين جداً . وفيما اقترب هذا « الموكب من الروعة البدائية » من السفينة ، لم يدر كولمبوس بما كان يدور خارجاً ، إلا عندما صعد الجميع الى ظهر السفينة فقد كان منهمكاً بتحضير مهام الحراسة في غرفته. واقترح رئيس القبيلة بواسطة الترجمان الهندي ديجو كولون ان يبحر هو وأفراد عائلته مع الاميرال الى اسبانيا لزيارة العاهلين الكاثوليكيين ولمشاهدة عجائب قشتيلة . وكانت هذه فرصة ذهبية لكولمبوس كي يصيب منالا من البلاط ، ولكن انسانيته تغلبت عليه . وتذكر الطقس البارد الذي سيرافقهم في رحلة العودة ومدى الاهانات التي ستتعرض لها البنتان الجميلتان من البحارة وما سيكون للتغيير الحياتي الكامل من تأثير في نفوس هؤلاء الابرياء . وبعد أن تقبل كولمبوس ولاء الطاعة والاخلاص من رئيس القبيلة نحو الملك فرديناند والملكة ايزابيلا ، أعادهم الى الشاطىء مزودين بالهدايا .

وفي التاسع من آب جلا الاسطول عن مورانت بوينت ، رأس جميكا الشرقي ، وعبر الممر الواقع فوق الريح حيث شاهد رأس تيبورون في هايتي . ومع نهاية الشهر وصل الاسطول الى صخرة ألتافيلا التي تشبه الشراع والواقعة في اقصى نقطة جنوبية من اسبانيولا . وهناك جاءت حشود كبيرة من الهنود وأخبرت الاميرال أن كل شيء في ايزابيلا يسير على ما يرام ، ولكن قولهم هذا كان بعيدا عن الحقيقة . وبالقرب من موقع سانتو دومينكو أنزل كولمبوس فرقة مؤلفة من تسعة رجال وأرسلهم عبر الجزيرة ليعلنوا نبأ قدومه .

سمى كولمبوس جزيرة ساوونا التي رست خلفها السفن الثلاث تفاديا لأعصار هائل باسم بلد ضيفه المرح ميشيل دى كونيو .

وبينما السفن هناك ، حصل خسوف كلي للقمر في الرابع عشر من أيلول وكان لدى كولمبوس تقويم يبين الوقت الذي حصل فيه الخسوف في نورومبرغ ،

فأخذ يسعى لمعرفة خطوط الطول من توقيت الخسوف في ساوونا . وهي عملية حسابية بسيطة اذا عرفنا ان كل ساعة من الوقت تعادل خمس عشرة درجة على الخارطة ، ولكن خطأ ما حدث ! فحسب الاميرال خط الطول بما يعادل احدى وتسعين درجة وثلاثين دقيقة غربي غرنيتش ، اكثر من المسافة الحقيقية بثلاث وعشرين درجة غربا ، أي بالقرب من شاطىء غواتيمالا على المحيط الباسفيكي . وكان من السهل على كولمبوس ان يقنع نفسه بعد اعتماده على هذه الغلطة الفظيعة ، بأنه كان يسير سيراً حسناً في طريقه حول العالم منذ ان ارتد عن كوبا .

وعزم الاميرال على القيام برحلة خاطفة الى بورتوريكو ، لكنه أصيب بمرض شديد بينما كان يعبر ممر مونا ودلت عوارضه على انه انهيار عصبي نتيجة قلة النوم والتبلل المتواصل بمياه البحر ورداءة الطعام ، وربما ظهرت عليه أيضاً بوادر اصابته بداء المفاصل ، الذي ضايقه جداً في السنوات العشر الاخيرة من حياته . وعندئذ عقد الضباط اجتماعاً قرروا فيه الانسياق مع الريح الى إيزابيلا حيث القت السفن الثلاث مراسيها في التاسع والعشرين من ايلول عام ١٤٩٤ . وهناك نزل الاميرال الى الشاطىء محمولا على اذرع بحارته .

ومع ان كولمبوس لم يعثر على امبراطورية الخان العظيم ، فانه حقق عملا كبيراً خلال رحلة الخمسة شهور هذه من والى ايزابيلا . فقد اكتشف الجزر التي ظهر فيما بعد أنها أثمن ما ملكته اسبانيا ، وكذلك اكتشف جميكا التي تعتبر أبهى جوهرة في تاج الامبراطورية البريطانية القديمة . كما أثبت بأنه لم يكن أقل اقتداراً في ارشاد السفن على السواحل والتنقل بين الجزر ، منه في رسم خطط السير عبر المحيط وقيادة الأسطول فوق المياه الزرقاء . كما ان معاونيه لم يكلوا من تعظيم مآثره في الملاحة وشدة حنوه عليهم وكذلك شهامته تجاه الاهالي المحليين !

# الفصل الرابع عشر

## الجحيم في اسبانيولا

كان النبأ الأول التي تلقاه الاميرال لدى نزوله الى البر في ايزابيلا نبأ طيباً . لقد وصل اليها اخوه بارثولميو الذي لم يره منـذ ست سنوات . لم يكن بارثولميو قد تسلم الرسالة التي بعث بها كريستوفر اليه في فرنسا وأخبره فيها عن نجـاح رحلته الأولى كما انه وصل متأخراً الى اسبانيا فـلم يتمكن من الاشتراك بالرحلة الثانية ولكن الملك فرديناند والملكة إيزابيلا تأثراً جداً « بالدون بارثولميو » كما كانا ينادیانه ، فوضعا تحت قيادته ثلاث سفن كبيرة لنقـل المؤن الى اسبانيولا تلبية لطلب كولمبوس .

طرب كولمبوس لرؤية أخيه الذي كان شريكه في تنمية هذا المشروع العظيم كما كانت شخصيته متممة لشخصيـة كولمبوس . فلم يكن بارثولميو رساماً ماهراً للخرائط فحسب ، بل رجل اعمال وإداري فذ يستطيع تنفيذ افكار أخيـه العبقرية . كان ذكياً دون ان يكون مثقفاً ، كان لغوياً ماهراً كما كان يمتـاز باستعداد فطري للقيادة . كان مقلِّ الكلام ، شديداً إزاء معاونيه ، ولكنـه يفتقر الى «الرقة والرأفة » التي لمسها لاس كاساس في تصرفات كريستوفر وفوق ذلك كله كان بارثولميو من النوع الذي يمكن الاعتماد عليه فلم يفقد رباطـة جأشه أبداً ولا شعر مرة بالمرض، بل جابه مواقف كثيرة غير منتظرة، في البر والبحر

بحزم وثبات .

ومن المؤسف حقاً ان بارثولميو اخفق بالوصول الى السفن قبل اقلاعهـا في الرحلة الثانية . لأنه ، لو كان باستطاعة أحـد ان يتلافى الوضع المخيف في اسبانيولا ذلك الوضع الذي ساعـد الاخ الأصغر ديجو الضعيف على تطوره بتصرفاته ، فلا شك أن ذلك الشخص كان بارثولميو . وممـا يجدر ذكره القول بان الاخوان الثلاثة تعرضوا منذ البداية لعقبتين اثنتين الأولى انهم كانوا جنويين بينما كان المستعمرون اسبان . وكانت اسبانيا في ذلك الحين ، وربمـا لا تزال ، أشد الشعوب الاوروبية تمسكاً بالقومية ، كما لم يكن الاسبان الذين ذهبوا الى أميركا للبحث عن المجد والثروة غلاظاً فحسب بل غاية في الجشع وقلة الاعتدال. وقد كتب اوفيدو في « تاريخ جزر الهند » الصادر عام ١٥٣٥ يقول : « كان على كل حاكم من حكام اسبانيولا الاوائل ان يكون خارقاً وفوق مستوى الطبيعة البشرية ، لكي ينجح ». والثانية ان كريستوفر كان قد ارتكب غلطتين فادحتين سلفاً ، احداهما بتعيينه ديجو نائباً عنه والاخرى اطلاقه يد هوجيـدا وبدرو مارغرت في داخل البلاد .

سمع ديجو اثناء غياب الاميرال عن القسوة والفظاعة التي يستعملهـا بدرو مارغرت فأرسل يأمره باصلاح أمره وما ان سمع الاسباني بهـذا الامر حتى اغتاظ واندفع الى ايزابيلا مزمجراً يطالب بسحب الامر والا ... وعندمـا لم يتلق جواباً انضم الى صفوف الساخطين الآخرين الذين استولوا على السفن الثلاث التي جاءت مع بارثولميو من اسبانيا ، وعادوا بها الى الوطن . وكان من بين زعماء العصاة ، الكاهن فراي بويل ، المسؤول عن اعمال التنصير ، والذي لم يفز بعملية تنصير واحدة بين شعب التينو بل كان دائم المعارضة لكل ما يفعله الاخوان كولمبوس .. ولما وصلت السفن الثلاث المسروقة الى اسبانيا في أواخر عـام ١٤٩٤ ، ذهب فراي بويل توا الى البلاط ليكيـل الافتراءات ضد كولمبوس واخويه ، بينما أخذ صائغ من أشبيلية يصرح علنـاً أن جميع الذهب الموجود في اسبانيولا ليس ذهباً اصيلا . وربما كان الغرض من هذه القصة تغطيـة موقف

العصاة الذين باعوا مسروقاتهم خلسة وبدون ان يسددوا نسبة العشرين بالمئة حصة التاج او حصة كولمبوس البالغة عشرة بالمئة .

وفي غضون شهر او شهرين من عودة كولمبوس الى ايزابيلا وصلت الى المرفأ أربع سفن تحمل كميات إضافية من الزاد والمؤن بقيادة انطونيو دى توريز الذي سلم الاميرال رسالة ودية من الملك والملكة الحا عليه فيها بالحضور الى إسبانيا لمساعدتها في مباحثاتها مع البرتغال بعد ان يعين أخاه أو أي شخص آخر حاكماً لاسبانيولا .

وكانت هذه فرصة كولمبوس ليدحض افتراءات بويل ومارغرت . لكنه لم يتحرك من مكانه ! إما لأنه كان يخشى الرحلة عبر المحيط بسبب مرضه او لرغبته بالسيطرة تماماً على الموقف المحلي قبل سفره ، وفوق ذلك ، فمن أجل أن يصدر كمية رابحة من البضائع الى الوطن ، وخصوصاً ان كمية الذهب المجموعة للتاج كانت ما تزال اقل مما يجب ! اتبع كولمبوس الآن السياسة المشكوك بحكمتها في جمع واستعباد الهنود الذين قاوموا رجال بدرو مارغرت . وكان كولمبوس قد أكد مراراً وتكراراً بان شعب التينو كان الطف واسلس واكرم شعب في العالم وان العاهلين قد اوصياه بصورة خاصة بان « يعاملهم بالمثل إلا اذا تمردوا . . . فيعاملون بقسوة ويخيرون بين الموت والعبودية » .

وفي أواخر شباط ١٤٩٥ ، عندما كان توريز مستعداً للعودة الى اسبانيا ، كان الاخوان كولمبوس قد حشدوا ألفاً وخمسمائة أسير هندي في ايزابيلا . ولم تستطع سفن توريز الأربع استيعاب اكثر من خمسمائة أسير منهم . فسمح الاميرال للاسبان في ايزابيلا بأن يختار كل منهم العدد الذي يريده من الباقين ، وصرف الباقي . وقد ذكر كونيو كيف انطلق هؤلاء الاسرى التعساء هرباً من الاسبان عندما أطلق سراحهم « حتى ان النساء تركن أطفالهن وهربن يأساً وقنوطاً وخلاصاً من عذاب اكثر » . لقد أصبحوا على الاقل أحراراً ، اما العبيد الذين ارسلوا لاسبانيا فقد ساءت حالتهم ، ومات منهم مائتا شخص اثناء الرحلة وأصيب نصف الباقين بالمرض لدى وصولهم . وهناك انزلوا [illegible]

اشبيلية حيث شاهدهم اندري بيرنالديز كاتب الاحداث يعرضون للبيع « عراة كما ولدتهم أمهاتهم » . وأضاف يقول انهم لم يكونوا صفقة رابحة إذ مات معظمهم بسبب عدم ملاءمة الحياة الجديدة لهم .

وكان من بين الأسرى الذين سيقوا الى ايزابيلا رئيس قبيلة يدعى غواتغوانا الذي تمكن من الهرب بقطع وثاقه قرضاً . وراح يسعى لتوحيد الهنود في اسبانيولا الذين كان يقدر عددهم بحوالي ٢٥٠ الفاً ، ضد الاسبان . ومع ان جميع سكان الجزيرة كانوا من نفس الجنس والثقافة الا انهم عجزوا عن القيام بعمل موحد . اما الزعيم غواكنغاري في الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة فقد ظل مخلصاً لتحالفه غير المكتوب مع كولمبوس . كما ان رئيسي قبيلتي كراغوا وهيجوي في أطراف الجزيرة الأخرى فقد اقنعا نفسيهما انباستطاعتهما البقاء على الحياد ، ومع ذلك ، فقد استطاع غواتغوانا ان يحشد جيشاً عرمرماً في فيجاريال للزحف على ايزابيلا . وقد أحسن الاسبان التصرف بأخذهم زمام المبادرة بالهجوم قبل ان يحاصروا ويؤخذوا على حين غرة . إذ زحف الاميرال وبارثولميو ومعهما هوجيدا الى بورتودي لوس هيدا لغوس على رأس جيش قوامه عشرون خيالا وعشرون كلباً وحشياً ومائتا رجل من المشاة نصفهم مسلح بالبنادق .

ولقد أفزعت نيران هذه البنادق رجال التينو أكثر مما أوقعت فيهم من اصابات . ولكن عندما انقض هوجيدا على رأس فرقة الفرسان وسط الجموع المتراصة من الهنود ، وأفلت بينهم الكلاب المتوحشة انتهت المعركة بهزيمة كاملة للهنود . وكانت هذه أول معركة دامية بين البيض والهنود ، وقد وقعت في أواخر اذار عام ١٤٩٥ .

وتوج هوجيدا انتصاراته بالقبض على كاونابو أشد رؤساء القبائل بأساً والمسؤول عن إبادة حامية نافيداد . وقد دعي هذا لزيارة ايزابيلا بصفة رسمية ، وأقنعه هوجيدا الذي قاده الى هناك بان يضع طقماً من الأصفاد والأغلال حول يديه باعتبار انها من الحلى الدارجة في اسبانيا . وعندئذ ألقى بالهندي التعيس في سجن ايزابيلا حيث كان يزمجر ويصر على اسنانه « مثل الأسد » . وبعد ذلك

تقهر هوجيدا صهر كاونابو ، رئيس قبيلة كراغوا الذي كان يجهز جيشاً بقصد الثأر لقريبه .

اتسع رأس الجسر الاساسي في ايزابيلا حتى شمل الجزيرة باسرها . وقام الأميرال نفسه بزحف مظفر عبر اسبانيولا التي استسلمت تماماً عام ١٤٩٦ .وصار بوسع أي اسباني الذهاب الى حيث شاء والاستئثار بطعام الهنود ونسائهم وذهبهم .

وقد اصبحت طريقة الاستيلاء على اسبانيولا نموذجاً احتذت به شعوب اوروبية مختلفة للاستيلاء على المناطق الاميركية . والحقيقة ان هذا الاحتلال لم يتم بسبب تفوق اسلحة البيض فحسب إذ كانت قوة النار في البنادق ومدافع الميدان التي بلغ عددها حوالي الألف وخمسمائة ، ضعيفة كما لم يكن لتأثيرها أي مفعول أكثر من السهام وقد استطاع بعض الهنود الذين يستعملون السهام المسممة ان يبقوا البيض بعيداً عن معاقلهم حتى الى ايامنا هذه . صحيح ان الخيول والكلاب ساعدت المهاجمين على احتلال سلطنات الاهالي ، ولكن هذه ليست القصة بكاملها – بل يعود السبب الأساسي الى ان الأوروبيين وجدوا لانفسهم حلفاء من بين السكان المحليين في كل اصطدام وقع ، بينما عجز الهنود من الجهة الاخرى عن تحقيق وحدتهم . أما بالنسبة الى اولئك الذين كانوا أقرب الى الشاطىء ، فقد قضى عليهم بالهزيمة فقدانهم لاية قوة بحرية . وكان باستطاعة الاوروبيين دائماً ان يؤلبوا قبيلة ضد اخرى ، حتى ان كولمبوس استخدم بعض رعايا غواكنغاري في صراعه مع غواتغوانا . وكان الاهالي الهنود احياناً – كما حدث في نافيداد وبيلين – يتغلبون على حامية اوروبية بتفوق عددهم او يطبقون على سفينة بأسطول من قواربهم الخشبية الصغيرة ، ولكن البيض كانوا يعودون دوماً على ظهر المحيط – وريد الحياة بالنسبة اليهم .

انهمك الاخوان كولمبوس طوال سنة تقريباً في اخضاع وتنظيم اسبانيولا سعياً للحصول على أقصى ما يستطيعون من الذهب . فبنوا عدة حصون في الداخل ، وأرسلوا الرجال المسلحين لارغام الهنود على تقديم أتاوة من الذهب بدلاً عن

تعرضهم للقتل . فكان على كل هندي بلغ الرابعة عشرة وما فوق ان يقدم ملء أربعة أجراس للصقور من التبر سنويا وكان على رؤساء القبائل أن يدفعوا ما يعادل ٢٢٥ ، أو خمسة وأربعين جنيهاً من الذهب كل شهر . وكتب لاس كاساس عن هذا المشروع فقال انه سخيف ، وممقوت ولا يطاق .

وبعد ان سلم الهنود جميع الحلى الذهبية التي تجمعت لديهم خلال عدة أجيال، أصبحت الطريقة الوحيدة التي يستطيعون بواسطتها تقديم الجزية هي الكد المتواصل لاستخراج حبات الذهب من بين الحصى التي تجرفها الجداول أو بتطهير الأرض من الاشجار وكسحها . حتى وبعد ان خفضت الأتاوة الى النصف كان من المستحيل على معظم الهنود تنفيذ القانون ، فالتجأوا الى الجبال وراح الاسبان يطاردونهم بواسطة الكلاب الضارية ، فمات الذين نجوا من التعذيب جوعاً ، وتناول البعض الآخر سم الكاسافا ليضعوا حداً لمآسيهم وعذابهم . وأخيراً كما سنروي ، استبدلت الأتاوة بنظام التعويض لكن الاستغلال استمر بشكل آخر . ودل احصاء عام ١٥٠٨ ان ستين الف شخص ظلوا أحياء في عام ١٤٩٢ . هذا بالاضافة الى قيام الاسبان بغارات أخرى على جزر البهاما وكوبا للحصول على عدد أكبر من العبيد . وبعد مضي خمسين عاماً لم يبق من الأهالي الاصليين اكثر من ٥٠٠ شخص على قيد الحياة . وهكذا كان من نتيجة السياسة البربرية التي دشنها كولمبوس واتبعها خلفاؤه من بعده ، انقراض جنس السكان المحليين .

أثرت الوشايات التي نقلها فراي بويل ومارغرت وغيرهم ضد كولمبوس على العاهلين فأرسلا جون اغوادو أحد المستعمرين الذين عادوا الى اسبانيا برفقة توريز ، للتحقيق في التهم ورفع تقرير عنها اليهما . فوصل الى ايزابيلا في شهر تشرين الاول عام ١٤٩٥ على رأس اربع سفن محملة بالمؤن ، وبدأ فوراً بنشاط ملحوظ . وعندئذ تأكد كولمبوس من انه كان من الأفضل له ان يعود الى الوطن لرتق اخطائه السياسية . وكان عدد سكان الجزيرة الاسبان قد تضاءل بعد ان احتشد معظمهم في ايزابيلا ، الى ٣٦٠ شخصاً ،

وذلك بسبب موت بعضهم بالأوبئة وعودة الكثيرين منهم الى الوطن . كما وقع عدد كبير من الذين تخلفوا فريسة المرض . بينما كان الجميع متذمرين ، ففي هذه الأرض الغنية الخصبة ، وهذا المناخ الجميل ظل الاسبان يعتمدون على المؤن المستوردة . ولم يكن واحد منهم ليكلف نفسه مشقة زرع الحبوب الا بالضغط وذلك ، كما قال كونيو « لان أحداً منهم لا يرغب بالعيش في هذه البلاد » ، وكان القسم الفعال الاعظم الذي يردد في ايزابيلا هو : « يشهد الله الذي سيوصلني الى قشتيلة بانني أقول الحقيقة » .

مضى بعض الوقت قبل ان يتمكن كولمبوس من الرحيل . واخيراً عين بارثولميو قائداً أثناء غيابه وامره بهجر ايزابيلا والبحث عن عاصمة جديدة على الشاطىء الجنوبي وقفل عائداً الى اسبانيا في العاشر من آذار عام ١٤٩٦ على ظهر السفينة نينا .

كانت هذه العودة من الرحلة الثانية تعيسة اذا قورنت بمظاهر الروعة والعظمة وضخامة المعدات التي تميزت بها عودة رحلة الانطلاق عام ١٤٩٣ . وكانت رفيقة نينا الوحيدة في هذه الرحلة سفينة تزن خمسين طناً تدعى إنديا – الهند – بنيت في ايزابيلا من حطام السفينتين سان جوان وكارديرا اللتين دمرهما الاعصار . كانت السفينتان مكتظتين بشكل خطر إذ احتشد عليهما ٢٢٥ إسبانياً وثلاثون عبداً هندياً بما فيهم رئيس قبيلة كاونابو الذي قضى نحبه في عرض البحر . بينما لم يزد عدد بحارتها على الخمسين .

وكان كولمبوس تواقاً لأن يصل بأقصى سرعة الى الوطن ، ولكن عدد رحلات العودة التي تمت حتى الآن لم تكن كافية ليعرف الانسان أي السبل أسرع . وبسبب تأخره في الرحلة الطويلة شمالاً في عام ١٤٩٣ قرر الآن ان يتخطى الجزر الواقعة تحت الريح وكانت تلك أقصر الطرق على الخط اللوزنجي ، ولكن ، ظهر بانها اطولها من حيث الوقت وذلك لاضطرار السفن الى مقاومة الريح الامامية معظم الطريق .

استغرقت السفن ١٢ يوماً لقطع اقليم مياه اسبانيولا واسبوعين للوصول الى

غواد لوب ، حيث قرر الاميرال لحسن الحظ تزويد السفن بالمؤن المحلية . وهنا التقت الفرقة الأولى التي هبطت الى الشاطىء بجيش من النساء الكريبيات مسلحات بالاقواس والسهام فاستنتج الجميع أن هذا المكان لم يكن سوى جزيرة الامازون وقد فهموا ذلك من أقوال امرأة القوا القبض عليها وادعت ، كما سجل فرديناند كولمبوس ، ان الجزيرة مأهولة بالنساء فقط ما عدا أربعة رجال من جزيرة أخرى حدث وكانوا هناك الآن بطريق الصدفة ، وانهم – أي الرجال – يأتون الى الجزيرة في وقت معين من السنة بقصد القنص والاضطجاع معهن . ولكن لم يكن شيء مما قيل صحيحاً سوى ان النسوة كن ماكرات حاذقات إذ كان أزواجهن يصطادون في مكان آخر من الجزيرة ! ولم ينجح الاسبان بإرغام الرجال على تزويدهم بجذور الكاسافا إلا بعد ان قبضوا على ثلاثة اولاد وعشر نساء كرهائن ، كانت إحداهن زوجة رئيس القبيلة . وهذه الجذور لو أُعدت كما يجب ، وأزيل السم منها كما أوضح الهنود للاسبان لغدت صالحة لصنع خبز مغذ ولذيذ الطعم أفضل بكثير من وجبة الذرة الهندية . وقد صرح كولمبوس ان زوجة رئيس القبيلة وابنتها تطوعتا لمرافقته الى اسبانيا ، وأنه وافق على ذلك .

غادرت السفينتان نينا وانديا ( الهند ) غوادلوب في العشرين من نيسان عام ١٤٩٦ . ولم تصلنا أية ايضاحات عن تفاصيل الرحلة خلال الشهر الذي تلا سوى انها كانت بطيئة جداً انقضى معظمها في مقارعة الريح . وبعد مرور شهر في عرض البحر خفضت الجعالة لجميع البحارة الى ست أونسات من خبز الكاسافا وقدح من الماء في اليوم . وفي ذلك الوقت ، شاءت لهم العناية الالهية الا يدركوا هبوب النسيم الغربي جنوبي جزر الازور ، ولكن جوعهم كان يزداد يومياً . فاقترح بعض الاسبان ان يأكلوا الهنود مبتدئين بالكريبيين الذين كانوا انفسهم من اكلة لحوم البشر ، مدعين بانهم لا يرتكبون أية خطيئة بمعاملتهم بالمثل ، ( اذا دفعوا لهم من نفس العملة ) . واقترح آخرون ان يلقوا بجميع الهنود في البحر توفيراً لما يستهلكونه من مؤن . ورد كولمبوس في احدى لحظاته

الانسانية بان الكريبيين بشر ويجب معاملتهم على أساس ذلك ، وقبل وصولهم الى اية نتيجة في مناقشتهم وجدوا أنفسهم في الثامن من حزيران على الشاطىء البرتغالي وعلى بعد ٣٥ ميلاً شمالي رأس القديس فينسنت حيث كان يقصد الأميرال . كان هناك العديد من المرشدين على ظهر السفينة وكانوا جميعهم يعتقدون بانهم ما زالوا بعيدين مئات الاميال عن الشاطىء ومئات الأميال شمالي مركزهم الحقيقي . ولكن نجاح كولمبوس باصابة اليابسة « على أنفها » تقريباً بعد اسابيع ستة في عرض البحر التزم طوالهـا خطة متعرجة جعل جميع افراد عشيرة البحارين يعترفون بقدرته الخارقة على الملاحة الدقيقة الحاسمة . والغريب ان الشكوك الوحيـدة التي تثار حول قدرته تلك ، تثار فقط من قبل اميرالات اليوم المتربعين على الكراسي الوثيرة وملاحي الكتب الحديثة .

وفي اليوم الحادي عشر من حزيران عام ١٤٩٦ انتهت الخطوة الأخيرة من رحلة كولمبوس الثانية الى اميركا في خليج قادس . نشر الاسطول جميع الأعلام الموجودة لديه ورفع كافة الدريات المزخرفة لاضفاء أقصى ما يمكن من مظاهر الاقدام على السفن ولكن المشهد ظل كئيباً محزناً بمشهد الهنود البائسين والركاب الاسبان الذين وصفهم أحـد المتفرجين بقوله : « تراءت أجسادهم هزيلة ووجوههم بلون الزعفران » .

مضت سنتان وتسعة شهور على مغادرة اسطول الأميرال العظيم المؤلف من سبع عشرة سفينة ، مدينة قادس بقلوب قوية وآمـال عظيمة لانشاء محطة تجارية ولمعرفة مكان امبراطور الصين – وكان ذلك من وجهـة نظر الاسباني العادي الذكي مجرد أوهام وبدا كولمبوس الآن في اعينهم كحالم لجوج غير عملي . فلم تكن كوبا جزء من الصين وكان باستطاعة كل من تحدث مـع فرد من أفراد حملة الاستكشاف ان يتأكد من ذلك ، كما أضحت جزيرة ايزابيلا مستودعـاً تنبعث منه رائحة العفونة ، هجره الاخوان كولمبوس أنفسهم بدلا من محطـة مينا البرتغالية على الشاطىء الذهبي من افريقيـا ، وعوضا عن منجم الذهب الموعود في سيباو اكتشفوا وجود كميات ضئيلة منه مبعثرة هنـا وهناك فوق

الجزيرة لا يمكن استخراجها الا بواسطة العمال العبيد . وبدلا من بساطة العصر الذهبي وأمنه أخذ الاهالي يظهرون الرغبة بالقتال . حتى الأمل بقبول الهنود فكرة الخلاص والفوز بالحياة الابدية قبل الموت ، حتى هذا الأمل تلاشى ، إذ لم يجر تنصير أحد منهم سوى اولائك الذين أخذوا الى اسبانيا . وبلغ صراخ الاسبانيين العائدين الى الوطن واحتجاجهم على الاخوان كولمبوس مبلغاً كاد يغري العاهلين بالاطاحة بهم ، ونسيان كل شيء عن جزر الهند . وكان من المحتمل ان يفعلا ذلك لولا انهما سمعا ان الملك البرتغالي على وشك تجهيز حملة جديدة الى الهند وان هنري السابع ملك انجلترا أخذ يبدي اهتماماً كبيراً باكتشاف طريق عبر المحيط الى كاتاي .

لذلك تقرر التمسك باسبانيولا ولو بقصد ابقاء الخصوم بعيداً فقط !

# الفصل الخامس عشر

## الرحلة الثالثة الى اميركا

ظل تقلب الظروف من سيء الى أسوأ بالنسبة لكولمبوس أحجية مربكة له ! فقد كان يقوم بواجباته الدينية بانتظام، وكان يناشد الله لا في لحظات التجلي فحسب بل وفي كل يوم — ومن المؤكد ان الله كان يريد لاسبانيا ان تهدي الهنود الى الدين الحقيقي !؟ لماذا اذن تعبس العناية الالهية في وجه مشاريعه ؟ لقد خدم العاهلين باخلاص واحترم كل ما كانا يريدانه وحافظ على مصالحهما وكسب لهما ملكاً جديداً فيما وراء البحار . لماذا اذن يصغيان « لفراي بويل » ويرسلان هذا الشاب اغوادوليهينه ؟! لقد قام بكافة الاستعدادات العملية فحافظ على متانة سفنه وحيوية بحارته وجفاف باروده ، ومع هذا يبدو الآن ان كل اسباني أصبح مناوئاً له لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لقد وجد العزاء في كتاب ايوب ، ولكنه لم يجد الحل . ربما كان ذلك بسبب إنزلاقه في أحضان خطيئة الكبرياء الشنيعة بعد رحلته الأولى إذ أخذ يرتدي الملابس التي تليق برتبة الاميرالية بصورة مفرطة — ويشعر بلذة كبيرة في رفقة الباذخين وتناول المأكولات الدسمة وشرب الخمور النادرة ؟ من المسلم به ان الكبرياء خطيئة مميتة ! وهكذا ، اتخذ لنفسه حال وصوله الى قادس ، وبصورة دائمة فيما بعد ، رداء بنياً خشناً كالذي يرتديه رهبان الفرنسيسكان رمزاً لاثبات ندمه وتواضعه . وبدلاً من قبول الدعوات الى

القلاع والقصور ، ذهب للعيش في بيوت الدين بالرغم من مساكنها الفظة وطعامها الخشن . وبينما كان ينتظر أمراً ملكياً للمثول الى القصر ، اقام مع كاهن يدعى اندرى برنالدز ، الراعي الخاص لمطران مدينة اشبيلية . وربما كان كولمبوس بسيطاً في عاداته حباً بالتظاهر ، ولكنه كان يدرك تماماً أهمية الشهرة والظهور للتأثير على الاسبان . لا سيما وأنه لم ينفض يديه بعد من العالم الجديد . وهكذا ، عندما تسلم دعوة لطيفة من العاهلين لزيارتها ، أقدم على تنظيم موكب مؤثر آخر . ورافق الاميرال ركوباً على ظهور البغال كل من شقيق كاونابو الذي تنصر على يد برنالدز باسم دون ديجو وشخص آخر من افراد عائلة رئيس القبيلة . كما مشى الخدام في المقدمة يحملون الاقفاص وفيها عدد من الببغاوات الظريفة الالوان والتي كان لزعيقها دعاية ناجحة تليق بلقب بارونوم[1] . وكانوا كلما اقتربوا من احدى المدن يتناولون من الاخراج عمرات الرأس المصنوعة من الريش وبعض الحلى الذهبية ليزينوا بها الهنود . وكان دون ديجو يضع حول عنقه طوقاً من الذهب يزن تقريباً ٩٠ نسراً[2] مزدوجاً أو ٣٦٠ جنيهاً ذهبياً ، ويضع على رأسه تاج كاونابو . وقد وصف برنالدز ذلك التاج بانه كان « كبيراً جداً وطويلاً ، مع أجنحة على جوانبه تشبه الدرع وعيون من الذهب بحجم فناجين الفضة » وقد نحتت عليه صورة تشبه انسانا غاية في البشاعة جعلت برنالدز يقول بانها صورة الشيطان . ومن سوء الحظ ان لا يبقى شيء من هذه الأشياء الثمينة التي أحضرها كولمبوس الى الوطن ، فقد صهرت جميعها . ولكن عدة نماذج عنها استخرجت من بعض البلدان الكريبية ويمكن مشاهدتها في متاحف اوروبا وأميركا .

وجد كولمبوس الملك والملكة في « فالادوليد » وبرفقتها ولداه ديجو وفرديناند ، وصيفي الملكة آنذاك وقد جاءا للترحيب به هناك . استقبل كولمبوس بلطف خصوصاً بعد ان قدم للعاهلين قبضة من حبات الذهب بحجم

(١) اسم عارض اميركي شهير ، يطلق الان على محي ومتكلفي المظهر .

(٢) عملة ذهبية اميركية تساوي ١٠ ريالات

بيض الحمام . وفي الحال قدم لهما التماساً بتجهيزه لرحلة ثالثة . وطلب خمس سفن محملة بالمؤن لاسبانيولا ، وثلاث سفن لنفسه للبحث عن قارة جديدة قال : « ان ملك البرتغال يعتقد بوجودها في المحيط جنوبي أو شرقي جزر الانتيل ، وان وجودها ثبت من التلميحات التي حصل عليها من الهنود » .

كان جون الثاني ملك البرتغال الكثير المطالعة والحاذق في الشؤون الجغرافية قد تأثر ببعض المؤلفين أمثال فينسنت البوفاري وأسيدور الأشبيلي اللذين تكهنا بوجود جزء رابع من الدنيا ( الانتيودس ) جنوبي خط الاستواء لحفظ التوازن مع القارة الافريقية . مات جون ولكن اعتقاده بوجود مثل هذه القارة حفزا فردیناند وايزابيلا على التفكير بالوصول الى هناك اولا وخصوصاً بعد ان علما بأن مانويل المحظوظ ، خليفة جون ، كان دائباً على تجهيز حملة كبيرة عبر البحار .

والجدير بالذكر ان كولمبوس لم يستطع الحصول على شيء من العاهلين سوى الوعود الى أن جاءت الاخبار من البرتغال بأن فاسكودى غاما على وشك الرحيل وان وجهة سفره سرية . اذن ربما كان يعتزم البحث عن الجزء الرابع من الدنيا !

اكد فردیناد وايزابيلا ، في الفترة الواقعة بين آخر نيسان ومنتصف حزيران عام ١٤٩٧ جميع حقوق كولمبوس وألقابه وامتيازاته وأمراه بتجنيد ثلاثمائة مستعمر للذهاب الى اسبانيولا على نفقة التاج . وكانت الرواتب تتراوح بين ١٤ سنتاً للعامل العادي أو الجندي وبين ٤٢ دولاراً ذهبياً في السنة اجرة المزارعين والبساتنة ، بالاضافة الى ٨ سنتات في اليوم بدل اغتراب . وسمح لكولمبوس ايضاً بتجنيد ثلاثين امرأة لمرافقة الحملة بدون راتب أو نفقات . وكان ينتظر منهن العمل في ما يخصهن ، ثم الزواج عند الوصول . ولولا أن توريز سبق وأحضر معه بعض النسوة الى اسبانيولا في عام ١٤٩٥ ، لكانت هذه المجموعة النسوية أول مجموعة نساء مسيحيات يذهبن الى العالم الجديد . وأصدر العاهلان أمراً عاما بالعفو عن المجرمين السجناء عدا المدانين منهم بجرائم

كبرى كالخيانة والهرطقة ، وذلك مقابل مرافقة الاميرال الى جزر الهند والبقاء معه هناك لسنة أو سنتين . كانت سمعة اسبانيولا قد وصلت الى الحضيض بحيث كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكسب مهاجرين جدد الى الارض الموعودة . وهكذا أرسل كولمبوس هؤلاء رأساً الى اسبانيولا ، الأمر الذي جعله يشعر بالندم ، فيما بعد .

مضى اثنا عشر شهراً جديداً قبل ان تمكن كولمبوس من إنجاز جميع ترتيباته وذلك بسبب وعود العاهلين العرقوبية وافتقارهما الى الأموال النقدية ولأن أحداً غير السجناء لم يرض بالاشتراك في الحملة الى اسبانيولا قبل الحصول على راتب مقدم . وقد تم جمع قسم من المال من بيع شحنة من الهنود الذين جلبهم الونسو نينو لدى عودته عام ١٤٩٦ .

اقلعت السفينتان نينا وإنديا في كانون الثاني عام ١٤٩٨ متوجهتين الى اسبانيولا ، كما استؤجرت ثلاث سفن أخرى لا نعرف أسماءها ، للسفر الى اسبانيولا رأساً حاملة المؤن بقيادة الونسو دى كرفجال الذي كان قد ترك عمله كرئيس لبلدية بازا ليقود سفينته في الرحلة الثانية ثم أصبح أحد أخلص قباطنة كولمبوس . اما السفن الثلاث التي ادخرها كولمبوس لرحلته الاستكشافية فكانت سفينتين كبيرتين وسفينة القيادة التي بلغ حجمها حجم سانتا ماريا الأصلية تقريبا ولم يكن كولمبوس يشير اليها باسمها أبداً ، بل اكتفى بتسميتها « لاناو » — السفينة — لكي يميزها عن السفينتين الاخريين . وكانت احداهما الكبرى تدعى لافكوينوس وتبلغ حمولتها ٧٠ طناً بينا دعيت الصغرى التي كانت أسرع ، إل كوريو . واجه الأميرال صعوبات جمة في تجهيز هذا الاسطول الصغير نظراً لان معظم هذه التجهيزات كان لا بد من استدانته . كما حدث بينه وبين فونيسكا ، المسؤول المباشر عن التجهيزات ، عدة منازعات ، وفي احدى المناسبات اغتاظ كولمبوس جداً من هذا الممون الماكر للسفن فضربه ضربة طرحته أرضاً .

تجمعت سفن كولمبوس الثلاث مع السفن الاخرى بقيادة كرفجال في

أشبيلية وأبحرت في آخر اسبوع من أيار عام ١٤٩٨ أي في نفس الاسبوع الذي وصل فيه فاسكودي غامـــا الى كلكوتا في الهند . وبعد ان هبطت نهر غوادلكويغر ألقت مراسيها في ميناء القديس لوسار دى بارامیدا حيث صعد الاميرال الى ظهر سفينة القيادة ... وفي ٣٠ أيار ابتدأت الرحلة الثالثة الى اميركا .

قرر كولمبوس هذه المرة أن ينحرف جنوبا اكثر من المرات السابقة وذلـك بقصد اكتشاف القارة التي تحدث عنها الملك جون البرتغالي ثم البحث عن ذهب اكثر ، فكما سبق ورأينا الاعتقاد السائد ، أن الأشياء الثمينة تكثر قرب خط الاستواء . وهكذا وضع خطته كي ينحدر الى خط العرض المزعوم المـــار « بسيراليون » حيث وجد البرتغاليون ذهب غينيا الأصيل ، ثم يتجه غربا . وكان الاميرال يعرف تمام المعرفة أن عليه ان يحقق شيئاً مثيراً في هذه الرحلة أو ان ينتهي مشروع جزر الهند بأ كمله الى الفشل والاهمال . وكثيراً ما كان كولمبوس يقارن نفسه بداوود الذي أمر بتحقيق المهـــام الجسام ، فكان كلما حقق المطلوب منه يزداد غضب شاؤول عليه .. لقد اكتشف طريقـاً جديداً لجزر الهند ، ولكن ذلك لم يكن كافيا . لقد قاد اسطولا عظـيما الى اسبانيولا واقام مستعمرة واكتشف جزر الانتيل الصغرى وبورتوريكو ، وجميـــكا وارتاد كوبا .. ولكن ذلك لم يكن كافيا . وعليه الان ان يكتشف ذهبـــا اكثر وقارة كاملة ! ( الامر الذي حققه — ولكن حتى ذلك لم يكن كافيا ) .

طبعا لقد كان باستطاعة الاميرال ان يعتزل العمل بعدعودته من رحلتـه الثانية فيتقاعد بلقب وقلعة وراتب تاركا بارثولميو او غيره يحـكم اسبانيولا ، ولكنه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذين يتخلون عن العمل ، ولو كان كذلك لما سمعنا به ابداً .

كان اول ميناء وصل إليه في هذه الرحلة هو فونشال في جزر المادیرا حيث أقام زمنـــا وهو شاب ، وحيث استقبل الآن استقبـــال الابطال . ومن هناك أبحر في رحلة ٣ أيام الى مرفـــأ القديس سبستيان في غوميرا .. ويتضح من مجرى الأحداث ان غرامه بالدونا بياتريز قد انطفأ نهائيـا اذ لم يذكر

أحد ممن وصفوا تلك الزيارة لعاصمة الدونا شيئاً أكثر من القول : « وهنـــاك تزودنا بالجبن » .

وفي غوميرا انفصلت سفن كرفجال الثلاثة المتجهة الى اسبانيولا عـــن باقي الاسطول . وكانت احدى هذه السفن بقيادة غيانيتو كولمبو ابن عم الاميرال . وقد أصدر الاميرال تعليماته لهذه القافلة بالابحار غرباً جنوباً باتجاه دومينيكا التي وصلوها حسب الارشادات ، ولكنهم فيما بعد ، قابلوا بعض المشاكل كما سنرى .

ومن جزر الكناري انطلق كولمبوس باتجاه جزر رأس فيردى قاطعاً ٧٥٠ ميلاً في ستة ايام ، وتوقف لفترة قصيرة في مينـــاء بوافيستا لتمليح لحوم الغنم — اللحم الوحيد الذي وجدوه في الجزيرة . وفي ١ تموز وصل الى « ساوتيـاغو » بأمل العثور على بعض المواشي الحية لتربيتها في اسبانيولا . وبعد اسبوع قضـاه في طقس حار جداً سبب مرض الكثير من رجاله ، غادر الميناء بدون ماشية . هدأت السفن لفترة ثلاثة أيام على بعــد النظر من فوغو بسبب هبوط الريح . ولكن مـــا كاد يحل اليوم السابع من تموز حتى هبت الرياح الموسمية . واتجه كولمبوس الى الغرب الجنوبي بحثـــاً عن خط سير مواز لخط سيراليون ولكن سرعان ما اخذت الريح بالهبوط تدريجيـاً حتى هدأت تماماً في ١٣ تموز ، ولم يكن الاسطول قد تجـــاوز خط العرض الواقع على الدرجة التاسعة والدقيقة الثلاثين شمالا وخط الطول ٣٩ درجة غرباً . ووجد كولمبوس نفسه في منطقة هدوء الريح حيث اخذت سفن الاسطول تندفع مع تيارات منطقة خط الاستواء طوال ثمانية ايام بينما ظل البحارة المساكين متدثرين بثيابهم الصوفية الثقيـــلة لاعتقادهم ان خلع الثيــاب والتعرض لأشعة الشمس في تلك المنطقة ليس سوى عملية انتحار ! واستفاد الاميرال ( حسبما اعتقد ) من فترة الهدوء لمراقبة نجمة الشمال بمنظاره ، ولكنه ارتكب اخطاء كثيرة كعادته عند استعماله الملاحـــة الفلكية واستنتج أنه على الدرجة التاسعة شمالاً ، أي أبعد بمئتي وخمسين ميـــلاً الى جهة الجنوب من موقعه الحقيقي . وقد سر لاعتقاده بأنه على الدرجة الخامسة لسبب غريب . فقد ذكر احد ملاحي الملك جون البرتغـالي قبل عدة سنوات

خلت بانه قاس خط العرض لجزر لوس قرب سواحل سيراليون ووجد نفسه على الدرجة الخامسة شمالاً . تماماً كما صدق كولمبوس نفسه الآن .

والغريب ان هذا الملاح البرتغالي وصل الى ذات النتيجة الخاطئة التي ارتكبها كولمبوس . اما موقع جزر لوس الحقيقي فعلى الدرجة التاسعة والدقيقة الثلاثين شمالا اي قريباً جداً من موقع الاسطول ... وهكذا كان الاميرال بالفعل حيث اراد ان يكون ( ولكن لسبب آخر ) وكانت النتيجة الوحيدة لخطئه باربع درجات ونصف ان عدلت حساباته اللاحقة المخطوءة عن خطوط العرض .

هبت في ٢٢ تموز رياح موسمية جديدة من الشرق والشرق الجنوبي فاشتدت الحبال المرتخية وانتفخت الاشرعة المتدكية واندفعت السفن مسرعة بينما سقطت درجة الحرارة وعاد البحارة ، الذين ظنوا بانهم سيهلكون في وسط المحيط ( إذ لم يسبق ان جرب احدهم مرور ايام طويلة على هبوط الريح ) الى حديث الذهب الذي سيعثرون عليه. ورسم الاميرال خط السير باتجاه الغرب واندفع الاسطول طوال ٩ أيام قاطعاً ٦ عقد بحرية او اكثر في اليوم الواحد بمساعدة دفعات وافرة من الرياح الموسمية .

وكانت هذه المرحلة من الرحلة بهجة خالصة للاميرال ورجاله .. ولقد تحققنا من ذلك يوم تبعنا خط السير نفسه بسفينتنا كابيتانا . كان الاسطول يندفع بسرعة رائعة طوال الليل والنهار .. ومع ان السفن تتمايل عادة كثيراً في الرياح الموسمية إلا ان الريح البديعة الثانية التي كانت تزغرد بين القلوع والبحر الزمردي المتوج بالزبد الأبيض ، وتدفق المياه على جوانب السفن وتتابع الغيوم الحقيقية تدفعها الرياح الموسمية ... كل ذلك يرفع من معنويات البحارة ويجعلهم يهتفون وينشدون .. وقد اطلق البحارة الاسبان القدامى على هذه المياه اسم « غولغو دى لادام » ، أي بحر السيدات ، لسهولة الملاحة فيه ولطف الطقس وأنسه ... وقد يصدف ان تظهر غيمة سوداء من مهب الريح ولكن سرعان ما تختفي بعد زخة مطر قصيرة دون ان تترك أثراً ضاراً . وقد تمضي أيام دون

أية حاجة للعناية بالحبال والأشرعة والواح المعدن الا بتغيير امكنة العقد لئلا تبلى من الاحتكاك . والسمك والدرافيل تلهو بالمياه من حولك بينما تحلق فوقك الطيور البحرية كطيور النوء وامثالها في زيارات قصيرة ، وفي الليالي التي يختفي فيها القمر كانت الاشرعة تبدو كأشباح سود تنتصب أمام السماء المرصعة بالنجوم وكلما ابتعد الاسطول جنوباً تتلألأ نجوم وأبراج جديدة في كبد السماء — سهيل والجدي وبرج السفينة بصليبها الكاذب وبرج الصليب الحقيقي الى الجنوب منه .

وكان كولمبوس قد شاهد هذا البرج من اسبانيولا في شتاء العام الماضي غير ان معظم رجاله كانوا حديثي عهد بالمياه الجنوبية وباستطاعتنا تصورهم وهم يتكئون فوق حاجز السفينة مأخوذين دهشة ، يرون في مياه البحر المضيئة بريق الذهب في جزر الهند .

لا بد للبحارة من ان يجدوا شيئاً يتذمرون منه .. وكان هذا الشيء هذه المرة الرياح الطيبة التي كانت تدفعهم برفق وسرعة ، فأخذوا يقولون .. كيف يمكن ان نعود الى الوطن اذا استمر الأمر على هذا الحال ؟!

ومع ان حسابات الاميرال كانت تبعث على الأسى إلا أنه كان يسير بالاتجاه الذي اراده . ويعرف تقريباً أين هو بالضبط بالنسبة لاكتشافاته في الرحلة السابقة . وفي ٢١ تموز أعلن بانه على خط جزر الانتيل الصغرى .. وكان هذا الادعاء صحيحاً .. وبسبب النقص الكبير في المياه العذبة لدى الاسطول ، قرر الصعود شمالاً للتزود بالمياه من دومينيكا أو أي جزيرة أخرى من جزر الكريب ، وفعلاً غير الدفة باتجاه الشمال الشرقي .. ولو استمر على السير بهذا الاتجاه لوصل حتما الى جزيرة بربادوس أو توباكو .

وعند ظهر ذلك اليوم صاح خادم الاميرال ، ألنسو بريز ، وكان قد صعد الى أعلى السفينة ،صاح قائلاً انه شاهد ارضا باتجاه الغرب على شكل ثلاث تلال. والحقيقة اننا شخصيا وصلنا على الكابيتانا الى بعد ميل أو ميلين من المكان الذي رسا بقربه كولمبوس وذلك بعد مسيرة ٢٠ يوما من جزر الكناري.. وقد صرخ المراقب من عل « امامنا ثلاث تلال يا سيدي » ثم اخفتهم عنا سحابة ثقيلة وبعد

ساعة واحدة ابتهجت انظارنا برؤية التلال ذاتها التي بدت في آخر يوم من شهر تموز عام ١٤٩٨ فألاً حسناً لكولمبوس الذي كان قد وضع رحلتـــه هذه تحت حمايـــة الثالوث المقدس ، وهكذا ودون تردد ، أطلق على الجزر الثلاث اسم « ترينداد » .

غير الأميرال خط سيره ليقترب من اليابسة ، وبعد قليـــل شاهد الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة ، فسماه رأس لاغليرا اذ بدت قمم صخوره شبيهـــة بالأشرعة المثلثة بينما الخطوط المنحرفة على الصخور كانت تشبه صفاً من المجاذيف. وفي الساعة التاسعة مساء وقد كاد القمر يكتمل بدراً مرت السفن بهذا الرأس وانطلقت منه باتجاه الغرب طوال الليل .

استمر الاميرال مندفعاً بموازاة الساحل الجنوبي ، طوال اليـوم التالي أي اول يوم من آب باحثاً عن خليج يقع على مصب نهر .. ويعرف هـذا الموقع اليوم باسم خليج ارين حيث ينساب نهر عذب بارد مخترقاً الشاطىء الى المحيـــط . واندفع الرجال الى الشاطىء حيث اغتسلوا بالمياه العذبة نافضين عن أجسامهم طبقات الملح والعرق المتراكمة وقضوا وقتاً جميلاً بالصراخ فرحاً والتراشق بالمياه ثم الزعيق في أرجاء الغابة عسى بعض الفتيات الجميلات يلبين النداء .

وقبل دخول الاسطول خليج إرين شاهد كولمبوس ولأول مرة القـــارة الأميركية الجنوبية دون ان يعرف ذلك ، فقد شاهد رأساً منخفضاً عرفنا نحن انه كان رأس بومبيدور في فنزويلا بينما ظنه هو مجرد جزيرة أخرى .

كان خليج إرين لا يقدم حماية كافية ضد الرياح فرفـع كولمبوس مراسيه في ٢ آب وأبحر عبر بوكادي دى سيرب الى خليج باريا العظيم الواقع بين ترينداد والبر الاميركي ولا بد انه أبحر هناك في مياه هادئة اذ لم يأت على ذكر التيارات التي تدور بشكل خطر حول الصخرة القائمة في وسط الممر والتي تربك وتعوق سير البواخر الآن . وأخيراً ألقى مرساته في موضع محجوب عن الريح في طرف ايكاكوس في ترينداد وأمر جميع البحارة بالنزول إلى البر بالتناوب لقضاء بضعة أيام بقصد الراحة . وهكذا متع البحارة انفسهم بالصيد وجمع القواقع بيـــنما

انشغـل الاميرال بسبر غور مياه بوكا مندهشاً لقوة وسرعة التيار عند اكتمال المد والجزر .

وكان الاتصال الوحيد الذي تم مع المواطنين هنا مثيراً للضحك والغـم على السواء ... كان الاميرال يأمل ويرجو أن يجد هذه المرة المتمدنين الصينيين أو زنوجاً مقتدرين كسكان الساحل الذهبي على الأقل .. ولكن عندمـا دنا قارب محفور من جذوع الشجر من سفينته شاهد لخيبة أمله هنوداً ذكوراً عراة يشبهون تماماً هنود جزر الكريب الا انهم لحسن الحظ كانوا اكثر تهذيباً وألطف اخلاقاً — وشعر بعزاء قليل عندما عرف انهم يرتدون خرقاً قطنية تشبه تلك التي حصل عليها البرتغاليون من سيراليون . وتبعاً لنظرية أرسطوطاليس القائلة بأن المناطق الواقعة على نفس خط العرض تنتج ذات الأشياء ، تأكد من العثور على ذهب غينيـا على بعد خطوات منه ! وعلى أمـل البدء بتجارة المقايضة أمر الاميرال بعرض بعض الحلـل النحاسية وغيرها من الأواني البراقة على حواجز السفن .. ولكن الهنود لم يأبهوا بهذه الأواني العادية للبيت الأوروبي .. عندهـا حاول الاميرال ان يقيم مسرحاً للفت أنظارهم فأمر عازف « المنجيرة » بالعزف وضارب الدف بالهز والبحارة بالرقص . ولكن الهنود ظنوا أنهـا رقصة الحرب وأجابوا عليها بزخة سخية من السهام التي لم تصب أحداً .. وكانت هذه آخر مرة يرى فيها الاسبان أحداً من هنود تريناداد .

# الفصل السادس عشر

## عالم آخر

وفي الرابع من آب ، وبينما كان الاسبان يرفعون مراسي السفن تأهباً لارتياد الخليج اصابهم أعظم فزع اختبروه في حياتهم . فقد اندفعت موجة هائلة ناجمة عن انفجار بركاني ، تهدر عبر البوكا وقذفت بمرساة السفينة فكوينوس بعيداً ورفعت سفينة القيادة الى علو شاهق لتتركها تسقط في لجج اليم الى مسافة خيل للبحارة انهم رأوا فيه قعر المحيط .

قرر الاميرال ان المكان لا يصلح للبقاء فتركه بعد ان سماه « فم الثعبان » واندفع شمالا يجذبه منظر الجبال في شبه جزيرة باريا .. وبينما كان يقترب من الطرف الآخر لشبه الجزيرة شاهد المنظر الرائع الذي يحيي البحار اليوم ... وخلف السفينة اضطجع الخليج الهادىء تتراءى سواحله تحت خط الافق .. وباتجاه الغرب .. تحت الشمس الغاربة امتدت سلسلة من الجبال والرؤوس الوعرة والى جهة الشرق انتشرت الجزر العالية المتجزئة التي تفصل « البوكاس ديل دراغون » الشهيرة وخلفها بدت رؤوس جبال ترينداد سلسلة بعد سلسلة .. وفي أقصى الشمال الشرقي شاهد كولمبوس ، وقد كان المساء صافياً ، جزيرة ... لا بد أنها كانت توباكو . والحقيقة اننا استطعنا نحن أيضاً مشاهدتها في رحلتنا عام ١٩٤٠ من قمة سفينتنا كابيتانا وهي تتهادى قرب المكان الذي شاهدها منه

كولمبوس عام ١٤٩٨ . هذا بعد ان أكد لنا احد ربابنة المكاتب أن من المستحيل رؤيتها من ذلك البعد .

ألقى الاميرال مرساته تلك الليلة في باهيا سيلست بقرب طرف شبه الجزيرة. وفي صباح اليوم التالي بدأ ارتياد ساحلها الجنوبي على طول الخليج حيث تنتشر المرافىء بكثرة ، ويبدو ان كولمبوس اختار اجملها كمرسى ، وهو موقع انسنادا باكو – فجوة صغيرة مستديرة بساحل رملي تحيط به أطراف صخرية . وهناك وجد بيتاً من قش وموقد نار . أما السكان فقد هربوا واحتلت بيوتهم قطعان من السعادين اخذت تثرثر بغضب لدى مشاهدة الاسبان .. وكان هذا اول مكان تطأه أقدام كولمبوس ورجاله من البر الاميركي ، بـــل اول مرة تطأه قدم أي اوروبي منذ أيام رحلات الفنلنديين الأولى ، اللهم إلا اذا كان جون كابوت قـد وصل الى نوفاسكوشيا في الصيف السابق ! الأمر الممكن !.. وكعادة الاميرال لم يعرف ما اكتشفه...وظل يعتقد ان شبه جزيرة باريا عبارة عن جزيرة..وكان ذلك في يوم الاحد الموافق ٥ آب ١٤٩٨ .

أما ولم يكن في المنطقة غير القردة فقد أجل كولمبوس مراسيم اعلان ملكية اسبانيا للاكتشاف الجديد الى يومين آخرين عندمـــا ظهرت على مصب نهر ريو غوريا جماعة من المواطنين المسالمين .

وكان الاميرال نفسه يعاني ألماً في عينيه ظل بسببه على ظهر السفينة وارسل معاونه الاول القبطان بيدرو دي تيروس ، زميله القديم المجرب في الرحلتـــين السابقتين لاعلان امتلاك اسبانيا رسمياً لتلك « المقاطعة » التي أخبره الهنود انها تدعى باريا .

وبعد ان وزع الخبز والسكر وأجراس الصقور خرج الهنود في اسطول من القوارب حاملين فواكه البلاد وكمية من البيرة تعرف محلياً بالشيشا وتصنع من الذرة ولا تزال تخمر في فنزويلا حتى يومنا هذا . وكانوا يتزينون بطباق كبيرة مصقولة من خلائط النحاس والذهب ، يسمونها « غوانين » ويسميها علمـــاء العادات تومباغا . وكان صهر الذهب والنحاس يتطلب تخفيض درجـة الحرارة.

من ١٠٠٠ سنتغراد الى ٢٠٠ درجة للمركب الامر الذي يعتبر ميزة عظيمة لمثل هؤلاء المعدنين البدائيين .. وبما انهم كانوا يضطرون لاستيراد النحاس من اواسط أميركا فقد قدروه اكثر من الذهب . ومما أفرح الاسبان ان هؤلاء النـاس كانوا على استعداد لمقايضة أية قطعة يغلب فيها الذهب مقابل وزنهـا من النحاس او البرونز .

ولم يكن كولمبوس قد وصل البر الاميركي الشاسع فحسب بل دخـل الى منطقة حضارية جديدة تمتد من غوانز الى هندوراس .

وفي الثـامن من آب استأنف الاسطول ارتياده منطقة الخليج والتف حول النقطة الطويلة المستدقة الطرف ، بونتا الكاترز (التي سماها كولمبوس اغوجا أي الابرة) وهناك وجد اراضي منبسطة غنية بحدائق وبساتين شاسعة مملوءةباشجار الماهوكوني ذات الاوراق المصقولة ، واشجار الفستق ، وقد اطلق كولمبوس على هذه المنطقة اسم لوس جاردين –الحدائق– واتفق ان صعدت نساء إحدى القرى الى سفينة الاميرال وهن يتحلين بعقود اللآلىء البديعة . فأكد كولمبوس انها مجلوبة من الجانب الآخر من شبه الجزيرة مما أثار الحماسة والهياج بين الاسبان ، لا جشعاً الى اللآلىء فحسب بل لأن اللالىء كانت تعني الشرق ! ابدى الهنود رغبتهـم باستبدال اللالىء ببضاعة الاسبان اياها . ولكن لسوء الحظ لم يكن لديهم مـا يزيد عن حاجتهم فتوسل اليهم الاميرال بلغـة الاشارات أن يجمعوا له منها ما يستطيعون لحين عودته .. ولكنه لم يعد أبداً . كان الهنود في هذا المكان البهيج مسالمين لدرجة ان لبت فرقة من البحارة دعوة الى وليمة أقيمت لهم في بيت كبير من القش .. وفعلاً ذهبوا وعادوا منتفخي البطون سعداء .

وللمرة الثانية أبحر الاميرال باتجاه الغرب بحثاً عن مخرج الى المحيط وعندما لاحظ ان المياه أصبحت ضحلة ومالحـة ثم عذبت وتعكرت أرسل السفينة كوريو لاستكشاف المنطقة فعادت لتقول ان هناك أقنية أربعة انهار تصب في البحر من جهـة الغرب ، وكانت هذه مصبات نهر ريوغراندي الثلاثة ومصب نهر ارينكو على بعد أميال قليلة منها .

وبسبب عناد كولمبوس المعتاد بما يتعلق بآرائه الجغرافية لم يقتنع بأن هذه المياه آتية من نهر ، وانــــه يرتاد الآن قارة ضخمة وليس جزيرة .. أخرى ... ولكنه توقف عن البحث عن مخرج ليس له وجود ، وعاد شرقـــاً عند طلوع القمر في اليوم الحادي عشر من آب .

واستمر نسيم البر طوال النهار ، وبمساعدة التيــار المتدفق من الانهر وصل الاميرال الى بوكاس في الليلة ذاتها والقى مراسيه في ميناء سماه غاتوس أي ميناء السعادين في جزيرة شاكا شاكار . وفي ساعات اليوم الثالث عشر رفــع الاسطول مراسيه ووقف في خليج بوكاغراندي ، وهناك شاهدوا الصراع المعتاد بين المياه العذبة المتدفقة من الأنهر والمياه المالحة تزأر متدفقةالى الامام.واعتقدوا بأن نهايتهم قد دنت عندما هبطت الريح وأخذت السفن تنجرف نحو الصخور . ولكن المياه العذبة تغلبت على المالحـــة فحملتهم ببطء خارج منطقة الخطر . سمى كولمبوس هذا البوغاز بوكاديل دراغون ، لأنهم فعـلاً نجوا من فم التنين . وما يزال هذا الاسم يطلق على جميع الاقنية الاربعة التي تصل بين خليـج باريا وجزر الكريب .. والتي لا تزال مياهها خطرة على السفن الصغيرة .

وشاهد كولمبوس في طريق خروجه وعلى بعد خمسين ميلاً الى الشمال جزيرة غرينادا وسماها أوسنثيون لمناسبة حلول أمسية عيد « الحبل بلا دنس » ، وعند فجر الخامس عشر من آب شاهد جزيرة سماها مارغريتا ( ومــا تزال تدعى كذلك حتى اليوم ) لكنه لم يعرج عليها للبحث عن اللؤلؤ الذي يكثر فيهـــا ، فقد كان يتعجل الوصول الى سانتو دومينكو . ولقد ظهر خطأ قراره هذا فيما بعد ، فان اكتشاف ساحل اللؤلؤ كان خليقاً بأن يرفـع من قدره في الوطن .. اذ كانت الأحوال في إسبانيولا قد بلغت حداً من السوء ما كان ليزداد لو انـــه تأخر شهراً آخر في ارتياد تلك المنطقة .. وهكذا كانت مهمتـــاه كمكتشف وكحاكم استعماري تتعارضان وتؤذي الواحدة منها الأخرى !

وفي يوم عيد « الحبل بلا دنس » خطرت للاميرال فجأة حقيقة باريا التي سبق وظنها جزيرة أخرى .. فكتب في يومياته « اعتقد ان هذه قارة عظيمة غير

معروفة حتى الآن . والمنطق يؤيد اعتقادي ، فهناك النهر الكبير ومياهـــه العذبـــة التي تتدفق الى البحر وهناك قول اسدراس .. ان ستة أسباع الدنيا يابسة والباقي مـــاء .. والذي أثبته ايضاً القديس امبروز في كتابه « المدقق » والقديس أغسطين في مقالته حسب زعم فرانسيسكو دى مايرونز ، وكذلك يؤكد ظني ما سمعته من الهنود الكريبيين الذين أسرتهم في اوقات سابقة عن وجود بر شاسع غني بالذهب الى الجنوب من مناطقهم .. فاذا كانت هذه فعـــلاً قارة فسيكون ذلك أمراً مدهشاً وسيعتبره كذلك كافـــة العقلاء .. طالما ان نهراً عظيما يتدفق هكذا جاعلاً مياه البحر عذبة الى بعد ٤٨ فرسخا ».

ويؤكد لنا لاس كاساس ان هذه الفقرة « بكلماته ذاتها » نموذج عن طريقة تفكير كولمبوس . فقـــد ظل طوال اسبوعين يبحر على طول شواطىء قارة يبحث عنها ومع هذا رفض ان يصدق بأنها القارة التي ينشدها لمجرد انهـــا لا تنطبق على فكرته عن القارة .. واخيراً وبسبب غزارة المياه العذبة المتدفقة الى البحر غير فكره .. واختلطت في ذهنه فوراً عبارة اسدراس « ستة اجزاء من سبعة » ، سخافات من العلوم الفكرية ، مـــع بعض اقوال الهنود الغامضة وانسجمت معاً لتبرهن حدسه الجديد !

وقال كولمبوس : « ان هذه الاراضي عـــالم آخر ( اوترو موندو ) » ... وهكذا كانت فعلا. وكان الحظ وحده المسؤول عن عدم تسميتها «العالم الجديد» بدل « عالم آخر » ، فلو فعل ذلك لنال الفخر الذي كسبه امير كوفيسبوشي .. والحقيقة ان العبارتين كما استعملتا من قبل كولمبوس وفيسبوشي ( وكما استعملها بيتر مارتير ) كانتا تعنيان الشيء ذاتـــه ، أي منطقة مجهولة لدى الاوروبيين لم تأت على ذكرها جغرافية بطليموس . ولم تكن أي من العبارتين تحمل معنى « العالم الجديد » كما نستعملها الآن للدلالة على الاميركتين . فكولمبوس اعتقد ان البر الذي ارتاد شواطئه كان بالنسبة للصين والملايو بمثابة اندونيسيا اليوم ... ولكن كولمبوس لم يرض ان يكون حاصل جمع ٢ + ٢ = ٤ بل اراد ان يكون حاصل الجمع ٢٢ !.

وبعد يومين أسرّ في يومياته « هذه القارة هي الجنة الارضية ، جنة عدن !»
وقد وضع عدد من كتاب العصور الوسطى الذين كان يلذ لكولمبوس قراءة نبذ من اقوالهم المجموعة في كتابه المفضل « اما غومندي » أي « صورة العالم » وضعوا هذه الجنة الشهيرة في أقصى نقطة من الشرق الاقصى ، حيث بزغت الشمس يوم الخليقة ، وذلك اعتماداً على قول سفر التكوين « زرع الرب جنة في الشرق في عدن » .. وكذلك قرأ كولمبوس ما ورد في الفصل الثاني من سفر التكوين عن الاشجار ... « مفرحة للنظر وطيبة للأكل » ... وقرأ أيضاً عن النهر « باربعة رؤوس » الذي يسقي تلك الجنة .. او لم تذكر السفينة كوريو بانها شاهدت أربعة مصبات ... « وذهب تلك البلاد يكون حسناً » ... وفعلا كان حسناً بالرغم من تفضيل الهنود السخفاء النحاس عليه ... أليس من المدهش ان يصف ذلك الفصل من سفر التكوين خليج باريا بهذه الدقة ؟!...
ومع كل هذه التصورات لم تفرغ جعبة خيال الاميرال .. بل قفز به الخيال بسبب تقديره الخاطىء عن ارتفاع نجمة الشمال في هذه الرحلة الى استنتاج مدهش من ان للكرة الارضية انتفاخاً في تلك المنطقة يشبه انتفاخ ثدي المرأة ترتفع عليه الجنة الأرضية « لتصبح أقرب الى السماء » !

أولم تبرهن التيارات العنيفة في بوكاس على أن المياه هناك تنساب من أعلى المرتفع ؟!

ومع ان كولمبوس كان يعاني الكثير من داء المفاصل والتهاب العيون إلا انه لم يفقد رشده كما قد توحي بذلك هذه الاستنتاجات الغريبة ... فقد كانت مثل هذه النظريات المستغربة شائعة بين المكتشفين والجغرافيين المتخلفين في الوطن في ذلك العصر . ولكن الاميرال احتفظ خلال كل هذه التصورات بمعرفة دقيقة لموقعه اليومي .. وفي الخامس عشر من آب انطلق من مارغريتا باتجاه الشمال الغربي — الشمالي ميمماً شطر جزيرة ساوانا على مقربة من اسبانيولا كنقطة انطلاق مناسبة مع الريح الى سانتو دومينغو — جزيرة العاصمة الجديدة. وهذا هو بالواقع الخط الجوي الصحيح للطيران . ولك ان تتصور جميع العوامل

التي كان على كولمبوس اعتبارها في بوصلة عقله ليصل الى تلك النتيجـــة — من اسبانيولا الى رأس القديس فنسنت ثم قادس كل ذلك عام ١٤٩٦ ! ومن سنتياغو الى الدرجة ٩ والدقيقة ٣٠ شمالاً ثم الى الغرب وعبر خليج باريا ثم الى مارغريتا ! كيف فعل كل ذلك ؟ لست أدري ... ولا أستطيع تفسيره ..

ومع ان الاتجاه الى الشمال الغربي غرباً كان الطريق المباشر الى ساوانا فان عاملين اثنين منعا كولمبوس من اتخاذه · كان الاول خارج نطاق معلومـــات الاميرال وفوق طاقته ، الا وهو تيار خط الاستواء المتجه الى الغرب إذ لم يكن يملك الوسائل لقياسه . اما الثاني فكان قيادته الحذرة الواعية خشية الاصطدام بشعب الصخور القريبة من سطح المـــاء في ظلمة القمر .. وقد أدى ذلك الى تطويل الرحلة والى اضطرار الاميرال الى الانحراف مع الريح . فكان يأمر السفن بالتوقف أو السير الهوينا في الليل ، ونشر الاشرعة في النهـــار حيث يصبح بالامكان تحديد مواقع الصخور من لون المياه .

وكانت النتيجة ان وصل كولمبوس اليابسة عند ألتافيلا ، على بعد ١٢٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من سانتو دومينغو .. وكتب لاس كاساس يقول :

« تأثر الأميرال كثيراً لنزوله على هذا البعد الكبير عن هدفه ولكنه اعتبر ان الخطأ في حساباته يعود الى تيـــار قوي سبب انحرافه . وكان هذا التعليل صحيحاً وصادقا » .

ترى ماذا كان يحدث لملاح حديث سار على خط سير الرحلة الثالثة دون خرائط أو طريق مرسوم ودون أية وسائل لضبط موقعه عن طريق مراقبـــة الأجرام السماوية ؟!

وعلينا ان نذكر ان جميع الاراضي التي أصابهـــا بعد جزر رأس فيردي كانت جديدة الاكتشاف .

هل كان باستطاعة أحد منا وفي تلك الظروف اكتشاف الخط الصحيـح الواصل بين مارغريتا — فنزويلا وسانتودومينغو ؟! « فاذا لم يكن ذلك كله

معرفة مدهشة رائعةفانه بلا شك ، عنايةالهية ، أو ربما كان السببين معاً ».

وفي الحادي والعشرين من آب ألقى الاسطول مراسيه في ملجأ جزيرة بيتـا ( التي سماها كولمبوس مدام بيتـا ) أي السيدة المباركة وهناك شاهد الاميرال سفينة صغيرة تقترب من ناحية سانتو دومينغو .. أطلقت السفينة الغريبة مدفعاً ثم اقتربت من جانب سفينة القيادة . ويا لسرور الاميرال عندما سمع أخـاه بارثولميو يحييـه بحرارة . كان بارثولميو يحاول اللحاق باسطول المؤن بقيادة كرفجال الذي اقترب من الشاطىء . ثم أخطـأ الطريق الى سانتو دومينغو . وبعد هذا اللقاء السعيد اندفعت السفن الاربع نحو العاصمة الجديدة ووصلتهـا بعد ثمانية ايام اعتبرت رحلة موفقة اذا أخذنا بعين الاعتبار سيرهـا ضد الريح والتيارات الجارفة .

انتهت رحلة كولمبوس الثالثة عمليا يوم ٣١ آب عام ١٤٩٨ عندمـا ألقت لاناو وكوريو وفكوينوس مراسيها في مصب نهر اوزاما ، الميناء الداخلي لجزيرة سُيداد تروجيللو الآن ، وبهذا تمت رحلة أخرى رائعة ، اكتشف فيها الاميرال مدخلاً لقارة شاسعة ، تمهيداً لتوسع الجنس الاسباني وامتداد لغته وحضارته ، قارة تمتد اراضيها من الجبال الوعرة الصخرية الى مضيق ماجيلان . ولكن وما قيمة اعتقاده بأن ما اكتشفه كانجنائن عدن ؟! لاحظ ما كتبه في دفتر يومياته عن هذه الرحلة يوم وصوله الى ابعد نقطة غربي خليج باريا :

« سيكون من أعظم الامور لاسبانيا ان تحصل على ايراد من هذا المشروع ، وليس باستطاعة سموّك ان تترك أثراً اعظم ذكراً من هذا ... سيفوز سموّك بهذه البلاد الشاسعة التي هي عالم آخر حيث ستتمتع المسيحية بكثير من المباهج ويزداد المؤمنون بديننا كثيراً مع الوقت . أقول هذا بنية صادقة ولأنني أرغب بأن يكون سموكم أعظم سادة الارض ، سادتها جميعـا ، كل هذا في خدمة ومرضاة الثالوث المقدس » .

يا له من ايمان رائع وحدس مدهش ! ففي الوقت الذي كانت أول مستعمرة

لإسبانيا تضمحل وكان المستعمرون يأتون من بين نزلاء السجون ، وعندما كانت قلة من الناس العظام تؤمن بكولمبوس أو تعتقد بان كل اكتشافاته لا تكاد تساوي جزيرة من جزر الكناري ، تنبأ هو بالدخل والايراد الضخم الذي ستنالهاسبانيا من هذه الفتوحات لتصبح الدولة الاولى في أوروبا ، وعرف بان المسيحية ، التي كان نطاقهـــا ينكمش ويتقلص منذ بزوغ الاسلام ، ستعود وتتقدم منتصرة في « عالمه الآخر الجديد » .

# الفصل السابع عشر

## اميرال البعوض

كان الفارق بين باريا، ذلك الفردوس الأرضي ، وبين اسبانيولا التي أضحت جهنم بذاتها ، كبيراً ومحزناً . وكان النبأ السار الوحيد لكولمبوس هو اخلاء ايزابيلا البغيضة وغير الصحية وتأسيس سانتو دومينغو . فقد استطاع بارثولميو تدبير أمر الانتقال بمقدرة وسرعة . وكانت سانتو دومينغو لا تزال مدينة أكواخ مصنوعة من الشيل والعيدان ، لكنها كانت حسنة الموقع على مصب نهر كبير مع مرسى واسع وميناء محمي ، وقد أصبحت بعد ان سميت سيداد تروجيللو عاصمة الجمهورية الدومينيكية الان ، وإحدى مدن جزر الكريب الرئيسية .

أما أسوأ الاخبار فكان نبأ العصيان الذي قاده فرنسيسكو رولدان الذي كان الاميرال قد عينه رئيساً للقضاء في اسبانيولا . لقد وعد رولدان ، الدهمائي الأصيل ، كل الناس بكل ما يريدون — وعد الاسبان ذهباً اكثر وفضة اكثر وطعاماً اكثر من اسبانيا . وتسهيل سفر كل الذين يرغبون في العودة الى الوطن وتحريرهم من حكم الجنويين المكروه .. كما وعد الهنود بساعات عمل أقل مما كانوا يعملون وان يسقط عنهم الضريبة وغزوات الأسر العبودي . وهكذا التحق برولدان كل من غوارينكس زعيم قبيلة مغوانا ، وافراد قبيلة سيغايو ، سكان

شبه جزيرة ساماناً ، غير ان بارثولميو أخضعهم في بادىء الامر . وعندما استعد لمواجهة رولدان تواجعزعيم العصاة مع حوالي سبعين رجلاً مسلحاً الى كزاركوا، شبه الجزيرة الجنوبية الغربية من الجزيرة . وهناك وقع أسوأ طارىء للادارة إذ ظهرت فجأة سفن كرفجال الثلاث التي ضلت سانتو دومينغو على ساحل كزاركوا قرب مقر قيادة رولدان ... ظل كرفجال نفسه ثابتا في وفائه لكولمبوس لكن نزلاء السجون من بين ركابه وقسماً من جنده اندفعوا الى الشاطىء وانضموا الى الثوار ... وهكذا تقدم رولدان بهذه النجدات الى حصن لافيكا في قلب الجزيرة. وبما ان الكثير من الاسبانيين الاوفياء كان فريسة لداء الزهري وغيره من الامراض ، لم يستطع الاخوان كولمبوس تهيئة جيش يعادل جيش العدو ولذلك لم يخاطر بالدخول في معركة ... فحاولا ترضيته ...

وبعد سنة تقريبا من المفاوضات التي ظل رولدان اثناءها يشتط في شروطه، أعاد كولمبوس رولدان الثائر الى منصبه كرئيس للقضاء واعلن ان كل الادعاءات ضده لا أساس لها من الصحة ووعد اتباعه الذين يرغبون بالعودة الى الوطن بالذهب والعبيد ، ومنح الذين يرغبون في البقاء في كزاركوا أراضي جيدة .

تخلى كولمبوس عن آخر متبقيات سياسته الاستعمارية باقامة مراكز تجارية وذلك كجزء من التسوية مع رولدان ولصالح كل من الثوار ورجاله الاوفياء وتبنّى نظام توزيع الأراضي الذي انتشر في نهاية الأمر في قسم كبير من أميركا الاسبانية ... وكان ذلك يعني منح المستوطن الاسباني قطعة من الأرض الصالحة للزراعة وكل من عليها من الهنود عبيداً له ... وافق الامراء الهنود على هذه الضربة ضد سلطاتهم كوسيلة للتخلص من ضريبة الذهب التي لا تحتمل . كما ان هذه التسوية أرضت الاسبان انفسهم لأنها وفرت لهم عمالاً سخرة كما ضمنت لهم كل الذهب الذي يعثرون عليه في اراضيهم بعد حسم النسبة المئوية التي تذهب الى الملك والأميرال...غير ان نظام توزيع الاراضي لم يعد على المستعمرة بالدخل السريع ولم ينقذ كولمبوس من الخزي لكنه ألغى نظام ضريبة الذهب

القاسي وأغرى المستعمرين بالاستقرار ... إلا ان مشاكل اخرى كانت تترا كم على عاتق الاميرال ... ولم يكن في وثيقة عقده ( الأصلية ) نص أوضح من سلطته التامة كنائب للملك وكحاكم عام على كل الاراضي التي قد يكتشفها مع سيطرته التامة على التجارة معها أو ارتيادها ... لكن ما كادت سفينة القيادة والسفينة كوريو تعودان الى اسبانيا في خريف عام ١٤٩٨ ( اذ انه احتفظ بالسفينة فكوينوس فقط في سانتو دومينغو ) حتى استولى الونسو دي هوجيدا على دفتر اليوميات والخريطة اللتين أرسلها كولمبوس الى العاهلين ، ثم حصل على إجازة يقوم بموجبها برحلة مستقلة الى باريا بحثاً عن اللؤلؤ ... واصطحب معه جوان دي لاكوزا رسام خرائط ، ورجلاً فلورنسياً ذكياً كان يقيم في اشبيليه ويدعى امريكو فاسبوشي . وقد وضع هذا الأخير تقريراً ممتعاً عن هذه الرحلة مما حدا بجغرافي من شمالي اوروبا الى تسمية القارة بـ « اميركا » .

اتبع هوجيدا الطريق التي سلكها كولمبوس في رحلته الثالثة على طول البر الاسباني الاميركي من نقطة قرب مارغريتا حيث توقف وجمع الكثير من اللؤلؤ واكتشف اروبا وكوراسوا وخليج ماراكيبو الذي دعاه فنيزويلا (أي البندقية الصغيرة ) لانتشار قرى المواطنين على ركائز من الخشب ترتفع فوق الماء ، ثم عرج على كزاركوا حيث انضم الى رولدان ، ولكنه ما لبث ان تخاصم معه وقام بغزوة جزر البهاما للحصول على العبيد .. وأخيراً عاد الى اسبانيا ... حدث كل هذا في عام ١٤٩٩ وفي اوائل عام ١٥٠٠ ، العام الذي حصل فيه بيرالونسو نينو – ربان سانتا ماريا سابقا – على كميات كبيرة من اللؤلؤ ، كما اكتشف فينسنت يانيز بنزون ، ربان نينا السابق ، مصب نهر الامازون .. وسرعان ما أخذ أي فاتح طموح بتجهيز رحلة الى اميركا دون علم كولمبوس أو اذنه !

وكانت أسهم الاميرال في ذلك الحين آخذة في الهبوط لدى البلاط الملكي اذ تراكمت الشكاوى ضد حكم عائلة كولمبوس . كما جعل الاسبان العائدين من جزر الهند من انفسهم عوامل اقلاق للملك اذ كانوا يجابهونه بصرخات « ادفع !ادفع»

كلما تحرك خارج قصره ... لقد سجل فرديناند كولمبوس كيف انه واخيه ديجو — وصيفي الملكة — كانا يشعران بالذل من جراء التهجمات البذيئة التي كانا يقابلان بها « ها كم ابني أميرال البعوض الذي اكتشف بقاع الباطل والضلال وجلب الخراب لرجال قشتيلة وجرهم الى حتفهم »!.

والحقيقة ان من الواجب الاعتراف ان اخوة كولمبوس الثلاثة كانوا اداريين فاشلين : فقد كانوا ضعفاء حيث وجب الحزم وعديمي الشفقة في الوقت غير المناسب . فلم يحموا الهنود من التسخير كما نفروا عنهم معظم الاسبان باستخدام سلطتهم على المؤن المستوردة كوسيلة للمكافأة والعقاب ..

وقبل وصول الاخبار القائلة ان رولدان عقد معاهدة صلح وان نظام توزيع الاراضي قد اتبع . عين العاهلان فرنسيسكو دي بوبا ديلا وكيلاً ملكيا على اسبانيولا ، مع سلطات غير محدودة على الناس والاملاك . فلو أبحر بوباديلا فور تعيينه لوصل والحالة هادئة وأمور الاخوان كولمبوس على ما يرام . لكنه لسوء حظهم ، تأخر عن موعد سفره نحو اكثر من سنة فوصل الى سانتودومينغو في الثالث والعشرين من آب عام ١٥٠٠ حيث كان الاميرال في لافيكا وبارثولميو في كزاركوا وديجو الضعيف حاكما للمدينة .

وكان اول شيء رآه بوباديلا أثر نزوله الى البر ، سبع مشانق تدلت منها سبع جثث اسبانية . وقال ديجو بمرح ان هناك خمسة آخرين سيعلقون في اليوم التالي لانهم ثاروا بقيادة اوريان دي موكسيكا ولكنهم هزموا وقبض عليهم بمساعدة رولدان . تأثر بوباديلا تأثراً عميقا بما رأى وبدون ان ينتظر سماع وجهة نظر كولمبوس في القضية استولى على القلعة والحكومة وقذف بالدون ديجو في عنبر سفينته ، واوقف مفعول كل أوامر الاميرال ، واستمال الأهلين اليه باعلان حرية الجميع في البحث عن الذهب اينما كان . وعندما حضر الاميرال اطاعة لأوامر استدعائه ، كبلت يداه هو أيضا وزج في سجن المدينة .

لقد كان باستطاعة بارثولميو الذي كان داخل البلاد مع جيش لجب مخلص ان يتقدم الى العاصمة ويطلق سراح أخويه . لكن الاميرال لم يجرؤ ، ولم يهتم

بتحدي السلطة الملكية التي يمثلها بوبا ديلا . ونزولا عند نصيحته سلم بارثولميو نفسه أيضاً ونال نصيبه من السلاسل والقيود !

قرر بوبا ديلا ارسال الاخوة الثلاثة الى الوطن لمحاكمتهم بعد ان جمع من الاسبان الناقمين والمتمردين ملفا ضخما عن اخطائهم .

وفي اوائل شهر تشرين الاول وضع الاميرال وديجو مقيدين على ظهر السفينة « لاغوردا » المتجهة نحو اسبانيا دون ان يعطيا شيئا من ذهبهما او ممتلكاتهما ... اما بارثولميو فقد أرسل على سفينة أخرى ... وكان باستطاعة قائد لاغوردا ان يفك وثاق الاميرال ، كما يقول ابنه فرديناند — لكنه لم يكن ليسمح لنفسه بفعل ذلك بحجة انهما قيدا بأمر ممثل السلطة الملكية وان الملكين وحدهما يستطيعان الامر بفك وثاقيهما ...

كانت هذه الاهانات أكثر إذلالاً لكريستوفر كولمبوس المرهف الحس منها لأي رجل آخر خشن الطباع من « ابطال تلك الفترة » . وفي طريق العودة الى الوطن كتب كولمبوس رسالة طويلة الى صديق مخلص له في البلاط يدعى دونا جوانا دى توريز تعتبر صرخة حزن ، وعريضة شكوى وتبرير فخور لتصرفه الشخصي وقد قال فيها ان الله بعثه رسول « السماء الجديدة والأرض الجديدة » كما صورها سفر الرؤيا وتنبأ عنها الاصحاح الخامس والستين من كتاب اشعيا ... وكانت الملكة التي منحها الله فهما لما كان كولمبوس يعتزم القيام به ، قد كوفئت بتعيينها وريثة العالم الآخر الذي خرج كولمبوس واستولى عليه باسمها ومع هذا فلم يبق أحد من رعاياها السفهاء إلا ويستطيع اهانة الاميرال بوقاحة . وأضاف الأميرال انه أُتهم بالقيام بأعمال غير شرعية : مع انه أخمد ثورتين قامتا ضد سلطة العاهلين : وتساءل كيف يمكن للفرد ان يعالج رجالا مسلحين بالوسائل القانونية العادية ؟ ! لقد صان رغبات سموهما في أمر تجميع الذهب . فكيف يأتي بوباديلا ويصغي الى وشايات المخادعين ويرمي بكولمبوس وأخويه في السجن بتهمة خرقهم القوانين الشرعية ثم يلغي كل القيود المفروضة على جمع الذهب بصورة أتاحت لأحد الاوغاد جمع ما قيمته ثلاثين جنيهاً في مدة أربع ساعات

فقط ! وختم كولمبوس رسالته بعبارة شديدة اللهجة تنم عن كرامة ساخطـــة وفهم للعدالة :

« يحكمون علي في اسبانيا كأنني حاكم رحل الى صقلية أو الى بلدة أو مدينة خاضعـة لحكومة منظمة حيث يمكن مراقبة تنفيذ القوانين دون الخوف من خسارة كل شيء . لقد كان من الواجب ان يحكم علي كقائد رحل من اسبانيا الى جزر الهند ليقهر أناساً كثيرين مستعدين للقتـال ذوي دين وعادات تختلف كل الاختلاف عن اخلاقنا وديننـا . وحيث استطعت بمشيئة العناية الالهية ان اضع تحت سلطان الملك والملكة عالماً آخر الذي بواسطته ستصبح اسبانيا التي كانت فقيرة ، أغنى البلاد : « الرب الهنا الموجود بجبروته وحكمته منذ الازل والى الابد يعاقب على الاخص نكران الجميل والاعمال المؤذية » .

لازمت السفينة « لاغوردا » رياح طيبة في رحلتها الى الوطن وكأن البحر المحيط اراد ان يختصر من شقاء أميراله ! : فقبـل نهاية تشرين الثاني أنزل الى الشاطىء في قادس برفقة سجانه وهو لا يزال في قيوده ثم سيق ليعيش في دير لاس كوفاس في أشبيلية ... وقد ترك منظر كولمبوس وهــو مكبل بالقيود أثراً محزناً بين الناس جميعـاً ، ومع ذلك انقضت اسابيع ستة قبل ان يأمر الملكان بفك وثاقه واستدعائه للمثول امامهما في البلاط ...

قدم الأخوة الثلاثة أنفسهم الى الملك والملكة في قصر الحمراء في غرناطة قبيل عيد الميلاد سنة ١٥٠٠ وكان هنالك أيضاً دون ديجو الذي بلغ آنذاك الواحدة والعشرين من عمره ، وفرديناند ابن كولمبوس الأصغر ، وكان في الثانية عشرة من عمره . ولا شك في ان الشابين شعرا ، وهمـا من حاشية البلاط ، بالاهانة شعوراً قويا عندما رأيا والدهما المسن المعتل يترنح بثوب رهبان الفرنسيسكان القاتم وآثار القيود الحديدية بادية على كاحليه ومعصميه ... وفيما بعد احتفـظ الاميرال بالقيود في غرفتـه كتذكار حزين لإذلاله وأوصى بأن تدفن معه في القبر !

تحدث العاهلان مع كولمبوس بلهجة لطيفة مؤاسية وأكدا له بأن العدالة

ستأخذ مجراها وان امتيازاته سترد اليه . ومضت الاسابيع ... وامتدت الى شهور دون ان يتحقق شيء من ذلك .. إذ كانت هناك اعمال اكثر أهمية من أحوال اسبانيولا القصية تشغل بال العاهلين .. كان هناك اقتسام نابولي مع فرنسا اولا ثم فراق كاترينا انغنتا وهي في الخامسة عشرة من عمرها للزواج من أمير ويلز ... كما كان باستيداس وبير الونسو نينو وهوجيدا وآخرون غيرهم يقومون في تلك الاثناء برحلات على حسابهم الخاص على طول ساحل « العالم الآخر » .

أراد كولمبوس استرداداً كاملاً لحقوقه وممتلكاته وألقابه ومناصبه . ولذلك أمضى وقتاً طويلاً وبذل جهداً كبيراً في وضع « كتاب الامتيازات » الذي يحتوي على اتفاقياته مع العاهلين وعلى الاوامر والخطابات التي بعثا بها إليه ... لكن كان من العبث ان يترقب استرجاع كل شيء .. فقد أربك وهو واخوته اسبانيولا بشكل يتعذر معه اعادة تسليمهم أمر السلطة فيها ، والآن وقد افتتح شاطىء اميركا الجنوبية فمن الهراء الافتراض ان العاهلين سيثبتان حقه بالاعشار والامتيازات المماثلة على قارة بأسرها ، وخصوصاً ان تلك الامتيازات كانت قد منحت على اساس تشييد مركز تجاري وإخضاع بعض الجزر الاخرى .

ومرة اخرى كان على الاميرال ان ينتصح بتأمين كرامته وأمنه بقبوله اقطاعية ( قلعة ) وراتب تقاعدي ولقب دوق ، كما لم يكن لدى العاهلين أي مانع لاحتفاظه بلقب نائب الملك وأميرال المحيط شريطة ان لا يمارس سلطات هذين اللقبين . ولكنه لم يكن ذلك الرجل الذي يمكن ان يتخلى عن حق من حقوقه . ولو كان كذلك لما اكتشف اميركا .

وفي أيلول عام ١٥٠١ وبعد انتظار دام ثمانية أشهر . علم كولمبوس بأسوأ نبأ في حياته إذ بدلاً من اعادته مكللاً بالغار الى اسبانيولا استدعي بابوديلا الى اسبانيا ، وعين دون نيكولاس دي اوغاندو ، حاكماً عاماً على جزر وأراضي جزر الهند بدلا منه .. أما كولمبوس فقد منح الامتيازات التالية : السماح له بالاحتفاظ

بلقبي نائب الملك والأميرال ( العديما القيمة الآن ) — ثم حق إرسال وكيل عنه مع أسطول اوفاندو ليطلب من بوباديلا اعادة نصيبه من المال . ولعله كان في قرار العاهلين الاستمرار في مشروع جزر الهند بعض العزاء لكولمبوس! وهكذا أبحر اوفاندو في شباط سنة ١٥٠٢ مع اسطول عظيم من ثلاثين سفينة شراعية تحمل ٢٥٠٠ رجل بين بحار وجندي ومستعمر ...

أما وقد عاد حنين الأميرال للقيام بعمله الأصلي وقد اقتنع بأنه لن يكسب شيئاً ببقائه في البلاط او اغراقه بالعرائض والشفاعات ... لذلك تقدم من الملك يطلب تزويده بالمال والسفن للقيام برحلة رابعة الى جزر الهند واستجاب العاهلان لمطلبه ... وأمرا بتنفيذ رغبته !

# الفصل الثامن عشر

## الرحلة الهائجة

تعتبر رحلة كولمبوس الرابعة والأخيرة أهم رحلاتـــه من عدة نواح . ومن الواضح انه كان يعتقد ذلك ايضـــاً فقد ظل يشير اليهـا فيما تبقى له من وقت قصير للحياة بعبارة « الرحلة الهائجة » . بدأ كولمبوس رحلته هذه وهـــو في الخمسين من عمره وختمها وهو في الثالثة والخمسين . أي أنه قام بهـــا وهو رجل مسن حسب مقاييس ذلك العصر . ومع هذا فقد اظهر فيهـــا منتهى القدرة الملاحية — وشجاعة فائقة ولياقة تامة للقيادة ... ويأسف الانسان فقط لعجزه عن التخلص من المشاكل الادارية ، فقد شدد عليه خازن قشتيلة ، الذي كان يعتمد عليه كولمبوس لدفع الاجور والرواتب ان يصطحب معـــه الشقيقين من آل بوراس ، واحـــد بصفة ربان سفينة والآخر بصفة مدقق حسابات العرش ، وذلك لمجرد ان شقيقتهما كانت عشيقة الخازن . وهذه ، والحق يقـال ، طريقة غريبة لارضاء عشيقته ! ولكن هذا ما اراده « الولدان » اللذان كان من الممكن ان يعودا كزعيمين للبعثة كلهـــا لو لم يكن الاخوان كولمبوس أشد منهما مراساً ووعيـاً .

وتوحي السرعة التي أقلع فيها كولمبوس بهذه الرحلة وكذلك المؤن الوفيرة التي جهز بها الاسطول ، برغبة فرديناند بالتخلص منه سريعـاً كما تدل من جهة

ثانية على قلق ضمير ايزابيلا لسوء المعاملة التي لقيها . طالب كولمبوس بالاسطول في السادس والعشرين من شباط ١٥٠٢ وصادق العاهلان على الطلب في ١٤ اذار وأمراه بالانطلاق بسرعة نحو الغرب بحجة ان « الفصل الحالي ملائم للملاحة » ( ولم يكن ذلك طبعاً صحيحاً ) وفعلاً جهز الاميرال اسطولاً من اربع سفن شراعية في مدة لا تتجاوز الاسبوعين إلا بقليل . وكانت بغية الأميرال الاولى من هذه الرحلة العثور على مضيق بين كوبا ( التي ظل يعتقد بانها الصين ) وبين القارة التي اكتشفها عام ١٤٩٨ . وكان هوجيدا وباستيداس يندفعان منذ ذلك الحين على طول ساحل البر الاسباني – الاميركي ، حتى وصلا الى خليج داريان ، أما سواحل ومياه الكريب الواقعة غربي الخط الممتد من داريان حتى باهيا كورتيس الى كوبا شاملاً خليج المكسيك بأكمله ، فقد ظلت مجهولة وغير مكتشفة لدى الاوروبيين . وهنا في هذه المناطق ظن كولمبوس انه سيجد مفتاح اللغز الجغرافي العظيم – الصلة بين مكتشفاته الأخيرة وآسيا ، وهنا توقع ان يعثر على المضيق الذي عبره ماركوبولو في طريقه من الصين الى المحيط الهندي . وفعلا زوده العاهلان بكتاب توصية الى فاسكو دي غاما الذي كان في طريقه للدوران حول رأس الرجاء الصالح ، على أمل ان يلتقي الاثنان في مكان ما من الهند ، إذ لم يكن أحد قد ارتابه مجرد شك بوجود المحيط الأطلسي ، فالمحيط مازال يعتبر كلا واحداً تحده اوروبا وافريقيا من الغرب وآسيا وافريقيا من الشرق اما المحيط الهندي فليس إلا خليجاً على ساحله كالبحر المتوسط ، يسهل الدخول اليه عن طريق المضيق المتوقع وجوده غربي منطقة الكريب .

وكان الاميرال يأمل بأن يسمح له بتصميم وبناء سفن صغيرة يدخل عليها تحسينات تجعلها صالحة للابحار ضد الريح ولو في وجه تيار معاكس ولكن الوقت لم يسمح بذلك ، فكان عليه ان يرضى بما ناله ، وكان ذلك لا بأس به !

كان حجم كل من السفن الاربع بحجم السفينة نينا ، مجهزة بأشرعة مربعة صغيرة أمامية ... أبحر كولمبوس وابنه على ظهر اكبرها . ورغم اننا لا نعرف

اسمها فقد اشتهرت باسم « لا كابيتانا » او سفينة القيـادة ، وكانت تتسع لحمولة ٧٠ طناً . أما قبطانها فكان ديجو تريستان الذي رافق كولمبوس طيلة رحلتـــه الثانية . وكانت تحمل على ظهرها ، ضابطين واربعة عشر بحاراً كفؤاً وعشرين صبياً وسبعة ضباط صغار ونافخين في البوق ليعـــدا دخولا فخماً للأميرال الى مجالس البلاط الشرقية . وكان بين ركابها البارزين كلب وحشي من أصل ايرلندي جلبه الأميرال لاستعماله في القتال ضد الهنود .

أما السفينة الثانية في الاسطول فكانت تدعى « لاغاليغا » ( الغليسية ) التي تمتاز بشراعها الأمامي الحقيقي وشراع رابع صغير مركب على صاري المؤخرة شبيه بهزاز الزورق الحديث . وكانت بقيادة بدرو دي تيريروس ، الرجل الوحيد المعروف بأنه رافق كولمبوس في رحلاته الأربع ، أما صاحبها جوان كوينتيرو فقد أبحر فيها بصفة رئيس . وكانت تحمل على ظهرها عريفاً واحداً ، وتسعة بحارة مقتدرين ، واربعة عشر صبياً ونبيلاً واحداً من المتطوعين . وتأتي بعدها بالنسبة للحمولة سفينة سنتياغو بالوس الملقبة ببرمودا تكنية باسم صاحبها ورئيسها فرانسيسكوا برمودي . أما قبطانها فكان فرانسيسكو بوراس يرافقه أخوه ديجو بصفة مفتش ورئيس للكتبة . أما بارثولميو كولمبوس فقـد أبحر على ظهر برمودا دون أية وظيفة معينة او راتب ، ولكنه كان دائماً يتولى قيادتها وقت الشدائد . وكان على ظهرها احـــد عشر بحاراً ماهراً وعريف وستة متطوعين واثنا عشر صبياً واربعة ضبـــاط صغار . وكانت أصغر سفينة في الاسطول فيزكانيا وحمولتها ٥٠ طناً ، بقيادة بارثولميو فيشي ، سليـل إحدى العائلات الجنوية الشهيرة التي تصادقت مع كولمبوس المتواضع في أيام مضت . وكان على ظهرها ثمانية بحارة ماهرين وعريف واحد وثلاثـة متطوعين وعشرة اولاد وكاهن الاسطول فراي الكسندري .

وكان جميع هؤلاء مقيدين على جدول الرواتب الملكي باستثناء افراد عائـلة كولمبوس ، وكان راتب القبطان ٤٠٠٠ مارافديس – أي ما قيمته ٢٧ دولاراً ذهبياً او خمسة جنيهات ونصف – في الشهر ، وكان البحار الماهر يتقاضى ربع

ذلك المبلغ ، اما الصبيان فحوالي جنيه واحد او خمس دولارات ذهبية للفرد . ولا يدل ذلك على ان رواتبهم كانت باهظة ، ولكنهم كانوا يتقاضون اجرة ستة أشهر مقدما ، والذين يبقون على قيد الحياة الى ما بعد الرحلة ، يحصلون على مبلغ من المال كحق لهم لدى العودة .

وبمقارنة لائحة بحارة الرحلة الثالثة بلائحة الرحلة الاولى ، نجد ان الفارق الاساسي هو العدد الكبير من الاولاد الذين رافقوا الرحلة الرابعة والذين تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . لقد لاحظ الاميرال بوضوح انه في رحلة استكشاف ومغامرات جريئة يثبت الشبان جدارتهم كبحارة ويطيعون الاوامر بسرعة أفضل من البحارة القدامى الذين يهمهمون ويدمدمون ويتذمرون من اطراف افواههم . ولا سيما عندما يخاطب أحدهم الآخر بقوله : « ما رأيك ؟ ان القبطان المجرب الفلاني لم يتبع هذه الطريقة » ويصرخون بأن الجزر الجديدة لا تساوي نكلة ، ويظهرون اشتياقهم للاطعمة الشهية التي تقدم في مرسيليا . ونابولي ولشبونة !

ابحر الاسطول من أشبيلية في الثالث من نيسان عام ١٥٠٢ ، وفي طريقه عبر النهر توقف في كازادي فيجو حيث امالوا السفن لتنظيف قعورها وطليها بالقطران لتلافي التصاق البروميا [١] عليها ، ولكن يظهر ان البروميا في هذه الرحلة غزت في القطران جيداً واخترقته حتى الخشب . ومن مصب النهر تابعت السفن مسيرها الى قادس حيث صعد كولمبوس وابنه فرديناند الذي كان في الثانية عشرة من عمره الى ظهر السفينة . ونحن مدينون كثيراً لفرديناند لمعظم التفاصيل التي دونها عن هذه الرحلة الهائجة في الكتاب الذي ضمنه سيرة والده . فقد كتبه بعد مرور عدة سنوات على عودته ، لكن انطباعاته الفتية كانت لا تزال نشيطة حية ، وبالرغم من ان الاميرال قال بان فرديناند اظهر كفاءة فائقة كبحار غير ان فرديناند لم يرغب في العودة الى البحر ثانية !

---

(١) نوع من الحشرات الذي ينخر قيعان السفن الخشبية

تأخر الاسطول في قادس بسبب الرياح العاتية حتى الحادي عشر من ايار ، عندما ابحر مع هبوب الرياح الشمالية المعتدلة . وبعد ان عرج على ارزيلا الواقعة على الشاطىء المراكشي ، وصـــل الى لاس بلماس في العشرين من ايار وابحر من جزيرة الكناري الكبرى في الخامسة والعشرين منه . وهناك وضـع الاميرال بنفسه خطة السير « غرباً — جنوبا » ، ذات الوجهة التي اتبعت في الرحـــلة الثانية . ولسنا نملك أية تفاصيل عن مرحلة عبور المحيط ، ويعتقد بأنها كانت عديمة الحوادث ، ولازمتها رياح معتدلة مساعدة ، مما جعلتها تنتهي فيواحـــد وعشرين يوماً فقط . وفي الخامس عشر من تموز هبطوا الى اليابسـة على جزيرة مارتينيك ، ثاني جزيرة الى الجنوب من دومينيكا ، حيث مكثوا هناك ثلاثة ايام بقصد الراحـــة والانتعاش وغسل ثيابهم دون ان يزعجهم اي من المحاربين الامازونيين او الكريبيين ، ومن هناك ارتادوا معظم سلسلة جزر الانتيل التي اكتشفت في الرحلة الثانية .

اندفعت سفينـــة الاميرال متثاقلة في التاسع والعشرين من تموز في الطريق البحري القريب من سانتو دومينغو . وكان العاهلان قد حرمـــا عليه زيارة محكوميته السابقة في رحلة الذهاب لئلا تقع الواقعة بينه وبين أوفاندو . لكن كولمبوس كان يملك اعذاراً وجيهة ، ناهيك عن دوافع التطلع الى عاصمتـــه السابقة . لقد كان يعـــلم بأن اوفاندو على وشك ان يرسل اسطوله الضخم الى الوطن فرغب بارسال بعض الرسائل معه ، وكذلك كان يأمل ان يقنع قبطان سفينة ما بمقايضة سفينة صغيرة ملائمة بالسفينة برمودا التي اثبتت بأنهـــا بطيئة لكنها مناسبة لحمل البضائع . والاهم من ذلك كله انه عرف بان اعصاراً كان يتكامل استعداداً للانطلاق فرغب باللجوء الى مكان امين . لقد سبق وقاسى إعصارين ، واحداً خلف سارونا عام ١٤٩٤ والآخر في جزيرة ايزابيلا عـــام ١٤٩٥ ، وتحقق من نذير شؤمه جيداً . اخذت الأمواج الزيتية المتلاطمة تزحف من الجهة الجنوبية الشرقية وحجب الغيوم الرقيقة تتمزق في الفضـــاء الأعلى ، والرياح العاصفة السريعة تتلاعب على سطح الميـــاه وشعر كولمبوس بوخزات

الضغط المنخفض تنخر عظام مفاصله ، وكذلك شاهد عدة حيوانات بحرية كالفقمة وخواريف البحر المختلفة تقفز من الاعماق وتظهر على سطح المياه بأعداد كبيرة. وهكذا ، بعد ان وصل الاميرال الى مصب نهر اوزاما بصعوبة ، أرسل قبطانه الكبير بدرودي تيريروس الى الشاطىء مع مذكرة الى الحاكم ضمنها نبوءته عن هبوب إعصار في غضون يومين وطلب السماح له باللجوء الى الميناء كما رجاه ان يبقي جميع سفنه في الميناء ويضاعف حبال مرابطها . وكان من حماقة اوفاندو انه لم يكتف بتجاهل الطلب والانذار ، بل قرأ مذكرة الاميرال بصوت عال أمام سامعيه وأبدى عليها ملاحظات ساخرة ، وكان السامعون يدوون بضحكاتهم المجلجلة على هذا العرّاف « الذي ادعى ان في وسعه التنبؤ عن الطقس والرياح » . وهكذا تحرك الاسطول العظيم ، اسطول اوفاندو ، في ذلك اليوم بالذات حسب الخطة التي كان قد وضعها الحاكم .

وفي اليوم الذي قطع فيه الاسطول ممر مونا الواقع على يسار السفن والقريب من شاطىء اسبانيولا الجنوبي الشرقي الخالي من الموانىء انفجر الإعصار عليه من الجهة الشمالية الشرقية ! فتحطمت بعض السفن في عرض البحر وقذفت السفن الاخرى المتثاقلة الى الشاطىء الواقع تحت الريح حيث تحطمت إرباً إرباً . وكان من بين السفن التي غرقت بمن فيها وما عليها ، سفينة القيادة التي كانت بإمرة انطونيو دى توريز ، وكان عليها بوباديلا بصفة راكب وشحنة يقدر ثمنها بنصف مليون دولار . كما ان تسع عشرة سفينة غرقت بمن فيها ، وفقدت ست سفن اخرى انتشل عدد ضئيل من بحارتها ، بينما نجت اربع سفن ، سيقت بسلام الى ان وصلت على مقربة من ساوونا وسانتو دومينغو بحالة يرثى لها . أما السفينة الوحيدة التي استطاعت الوصول الى اسبانيا فهي أجوجا ، أصغر السفن حجماً ، وكانت تحمل كرفجال وكيل كولمبوس ومعه ذهب الاميرال الذي اجبر بوباديلا على دفعه .

أما كولمبوس فقد التجأ ، بعد ان رفض الحاكم ايواءه في نهر اوزاما ، الى قرب مصب نهر الريوجانا على بعد مسافة قصيرة عن سانتو دومينغو . ذلك لأنه

قدر بالضبط بان الإعصار سيجتــاح ممر مونا وشاطىء اسبانيولا الشمالي بطوله ، وهكذا فإن الريح لن تهب على الشاطىء الجنوبي ممـا يوفر للسفن مكاناً محجوباً عنه . وعندما هبط الليل ، وصلت الريح الى ذروة حدتها من الشدة والغضب . ولم يكن احد يملك آنذاك الوسائل اللازمة لقيــاس سرعة الريح ولكن سرعة الإعصار الطبيعية في جزر الهند الغربية تبلغ مائة ميل في الساعة وليس هناك أي داع للاعتقاد بإن هذا الاعصار كان خفيفــاً لأننا اذا أخذنا بعين الاعتبــار المسافة التي كانت تفصل كولمبوس عن مركز الاعصار يتبين لنـــا ان سرعته لم تكن تقل عن ٨٠ ميلاً في الساعة . ويعني ذلك ان سرعة الإعصار تعادل قوة ١٢ حسب ميزان بوفورت ، وهي قوة عــلى حد قول بوديتش ، لا يستطيع أي شراع الوقوف بوجهها . وهكذا تقطعت حبال السفن الثلاث الصغيرة ودفعتهـا الرياح الى عرض البحر لكنهــا أديرت بمهارة ( برمودا بواسطة شقيق كولمبوس بارثولميو بينما آوى قبطانهــا بوراس الى فراشه ) وأنقذت بعد تعرضهـا لاضرار طفيفة . ومع ان الاميرال لم يترك قطعة واحــدة من الاسلاك الجديدة على ظهر السفينة إلا وضمها الى رباط سفينته كابيتانا ، إلا ان الاعصار قطعها جميعها .

وقد ذكر كولمبوس في إحدى رسائله الى الوطن يقول : « ترى أي انسان ، وحتى أيوب نفسه ، كان يمكنه ألا يموت من اليأس والقنوط عندما منع عني ، في طقس كهذا وأنا أحاول العثور على ملجأ يحمي أخي وولدي ورفيقي ونفسي ، حق النزول الى الارض والمرفأ اللذين تمكنت من كسبهما لاسبانيــــا بعرق الدم ومشيئة الله ! » .

وهكذا بمشيئة الله وبذل العرق خرجت جميع سفن كولمبوس من هــــذه العاصفة بسلام ، والتقى الجميع كما كانوا قـــد اتفقوا قبل هبوب الاعصار في بورتو فيجو ازوا على بعد حوالي خمسين ميلاً الى الغرب . وكان كل منهم يخشى ان يكون الآخر قد فقد ، ولكن كما لو انها كانت أعجوبة ادرك الجميع النسيم الجنوبي الشرقي الذي هب بعد الاعصار وانساقوا معه الى ذلك المرفـأ الصغير المحجوب باليابسة فوصلوا اليه تباعاً في غضون ساعات معدودات في يوم الاحد

الثالث من تموز . لم يكن باستطاعة كولمبوس وقباطنته ان يفعلوا افضل ممـــا فعلوا حتى لو وصلتهم الانذارات عن العاصفة بواسطة الراديو ، بـــل كان من الممكن ان يفعلوا اسوأ من ذلك ! وكانت خسارتهم الجدية الوحيدة زورقـــاً واحداً وثلاث مراسي .

وبعد استراحة اسبوع او عشرة ايام في ازوا ، عاد كولمبوس للابحـــار من جديد ، ووجهته في هذه المرة جنوبا — غربا الى قنال التا فيـــلا ، ثم غربا ، وبعد ان عبرت السفن الممر الواقع في مهب الريح - انسابت القافـلة في بحر هادىء ، وهبط بعض الرجال الى شاطىء مورانت كايز للحصول على ميـــاه للشرب ، وبعـــد ذلك ابحروا على طول شاطىء جميكا الجنوبي ثم الى جزيرة صغيرة قريبة من شاطىء كوبا الجنوبي ، ربمـا كانت كايو ليرغو . وفي السابــع والعشرين من تموز انقلبت الرياح الى شماليـــة شرقية فرفعت سفن الاسطول مراسيها وعبرت البحر الكريبي البالغ عرضه ٣٦٠ ميلاً عند هذه النقطة ، في غضون ثلاثة ايام . وعندما اعتدلت الريح شاهد احد المراقبين جزر الخليـج القريبة من شاطىء هندوراس .

وفي بونا كا ، اول جزيرة من جزر الخليج رسا عليهـــا الاسطول ، شاهد الاسبان اكبر زورق محلي ، لم يسبق لأحدهم ان شاهد مثله من قبـــل « طويلاً كالصندل » ويتألق بالغرف الوسطية المعدة للركاب ، وعليه حمولة معتبرة من القماش القطني والادوات النحاسية وبوتقة لصهر الذهب مع قِرَع مملوءة بالبيرة المصنوعة من ثمر الهوبو وحب الكاكاو الذي ظل هنود الجيساك يستعملونه بدل النقود حتى زمن قريب . كان الزورق آتياً من البر حيث كان يتاجر مع أهالي الجزيرة ، فاحتجز كولمبوس رئيسه بالقوة واحتفظ بعد ان سماه جوان بريز ، كدليل وترجمان له .

وكانت المسافة التي تفصل جزر الخليج عن رأس هندوراس ثلاثين ميلاً ، وهناك في الجهة المحجوبة عن الريح وحيث بنيت مدينة تروجيللو فيما بعد ، ألقت السفن مراسيها ، وبدأ الاميرال يبحث جديا عن مضيق ! ترى هل ينعطف غرباً أو شرقاً ؟ كان

الاتجاه غرباً أهون السبل في الذهاب ، ولكنه اصعبها في طريق العودة . ولما كان كولمبوس لا يعرف شيئاً عن خليج مكسيكو وكان يعتقد بانه على خطوط الطول الواقعة في أبعد نقطة غربي مقاطعة « مانجي الصينية » ( كوبا ) فقد قدر بانه كان في منتصف الطريق المؤدي الى شبه جزيرة الملايو ، وان مضيق ملقة يقع الى الجنوب الشرقي وهكذا استدار نحو الشرق !

واجه الاسطول سفرة طويلة وشاقة بوجه الريح استغرقت ٢٨ يوماً من الريو رومانو الى رأس جراسياس أديوس . وقد كتب كولمبوس يقول: « كان المطر يهطل بصورة مستمرة وكذلك استمر البرق والرعد » واضاف : « وقفت السفن معرضة لعوامل الطقس بأشرعتها الممزقة ، وقد فقدت مراسيها واجهزتها وحبالها وزوارقها وقسماً كبيراً من مؤنها . كما أنهكت قوى الرجال وتدلت افواههم الى درجة جعلتهم يتمتمون طوال الوقت ويقسمون على ان يغدوا تقاة صالحين وان يحجوا وغير ذلك ! بل وصاروا يعترفون بعضهم امام بعض ! لقد شاهدت عواصف أخرى ، ولكنها لم تدم طويلا كهذه او كانت عنيفة مزمجرة مثلها . وفقد كثير من البحارة القدامى الذين كنا ننظر اليهم كزملاء شجعان رباطة جأشهم . وأشد ما حز في نفسي عذاب ولدي وانا افكر فيما اذا كان ينبغي على ولد صغير في الثالثة عشرة من عمره ان يشاهد ويقاسي كل هذا ! ولكن الله سبحانه وهبه شجاعة فائقة حتى انه كان يشجع الباقين وتصرف كما لو انه قضى ردحاً طويلاً من الزمن في عرض البحر ، مما ادخل السلوى على نفسي . لقد كنت مريضا ووقفت مراراً على عتبة الموت لكنني كنت اصدر الأوامر من مأوى ضيق شيده البحارة لي ووضعوه في مؤخرة السفينة . وكان اخي في اسوأ سفينة غير مأمونة ، وكنت اشعر بوطأة تأنيب الضمير لانني اقنعته بالمجيء رغم ارادته » .

لم يكن باستطاعة احد لا يملك صبر ومثابرة كولمبوس الثبات في مثل ذلك الموقف والاستمرار فيه . كانت الريح تهب بثبات من الشرق والتيار يجري عكس وجهة سير السفن التي كان عليها ان ترفع مراسيها كل صباح ، وتسير

مترنحة ، مائلة الى اليمين بعيدة عن الشاطىء وتحت المطر الغزير في اغلب الأحيان ، ثم ترتد عند الظهر الى الجوانب اليسارية ، وتقف ثانيـــة بقرب الشاطىء ، ومع غروب الشمس ترفع مراسيها لتغادر الشاطىء المخضل بالمياه في الطريق البحرية المفتوحة امامها،وتظل تتهادى وتندفع طوال الليل بينما يصارع البحارة البعوض القادم من المستنقعات . كانوا يتقدمون بعض الأميال في بعض الأيام ، وفي ايام أخرى كانوا يجدون انفسهم عند ذات مجموعة البساتين البريـــة التي كانوا بقربها الليلة الماضية . وكان أفضل نسبة للمسافة التي كانت تقطعها السفن لا تتعدى الستة أميـال في اليوم . ولكن كان على الاميرال ان يتقدم ، إذ لم يجرؤ على التواني بانتظار هبوب الرياح المعتدلة ، كما انه لم يجرؤ على التريث في عرض البحر لئلا تفوته فرصة العثور على المضيق العتيد !

واخيراً دار الاسطول في الرابع عشر من ايلول حول رأس سماه الاميرال غراسياس أديوس — أي الشكرلله —.

وقد وضع هذا حداً لهذا الصراع المميت لأن اليابسة هنـا اخذت تنحرف جنوباً . ومع ان الريح كانت لا تزال تهب من الشرق ، استطاعت السفن السير مسافة طويلة متثاقلة على جوانبها اليسارية بعيداً عن الشاطىء . وبالقرب من الريو غراندي ، نيكراغو ، ألقت مراسيها للحصول على الحطب والماء . وهناك غرق اثنان من البحارة اثنـــاء عبورهما السد ، لذلك سماه الاميرال نهر الريو دي لوس ديساستريس — أي نهر المصائب . ثم عبروا مكانا يدعى سان جوان ديـــل نورتي ودخلوا في منطقة أطلق عليهــا الهنود اسم كارياي ، أي « كوستاريكا » حاليا .

مرت عشرة أيام على رسو السفن في جزيرة أوفا القريبة من بورتوليمون — مرفأ الليمون الحالي . وهنا أقاموا علاقات ودية ( مع انها ظلت حذرة متباعدة بعض الشيء ) بينهم وبين افراد قبيلة تالامانكا الهندية . وهنـــا ايضاً انقلبت الآية المألوفة ، إذ ان الأهالي كانوا يتوقون للمتاجرة بينما ظل الاسبان هيابـين وجلين بعض الشيء . سبح الأهالي اولاً الى السفن ومعهم تشكيلة من المشالح

القطنية وبعض الحلى المصنوعة من خلائط الذهب والنحاس المدعوة « غوانين » الشبيهة بتلك التي وجدها كولمبوس في باريا ابان رحلته الثالثة . وكان واضحاً ان هذه « الغوانين » تعتبر في اسبانيا بديلا ركيكاً عن الذهب الأصيـــل ، وهكذا لم يرتأ كولمبوس الحصول على شيء منه ، لكنه اعطى التجار الهنـــود بعض الهدايا ، حملوها معهم الى الشاطيء . والشيء الثاني الذي فعله الهنـــود لازالة مقاومة البيع ان ارسلوا فتاتين عذراوين الى ظهر السفينـة الاولى في نحو الثامنة من عمرها والاخرى في الرابعة عشر . وذكر فرديناند ( الذي كان نفسه بعمر الكبرى منهما ) بأنهما « ابديتا شجاعة فائقة » ولم « تظهرا أسى او اسفا ، بل كانتا دوما تبدوان مرحتين متواضعتين ، لهذا عاملهما الاميرال بمنتهى اللياقة وقدم لهما الغذاء والكساء ثم أعادهما الى الشاطيء » . ولكن كولمبوس ذكر العكس اذ قال انهما تصرفتا بمنتهى البذاءة بشكل « يفوق ما ننتظر صدوره عن المومسات » — ولا شك بانه كان يعرف افضل من ابنه . وعلى أي حال ، دهش الاهالي من ورع الاسبان وعندما هبط بارثولميو الى الشاطيء في اليوم التـــالي برفقـة الكاتب توريز حاملاً معه ورقة وريشة ودواة الحبر لتسجيل الاستملاك رسمياً ، تخيـل الهنود ان الادوات جهـــازاً سحريا فألقوا بمسحوق اسمر في الهواء « كبادرة طيبة » منهـم لعرقلة اعمال هؤلاء السحرة الاسبان الذين لم يتضح أكانوا ذكوراً أم اناثا .

ارسل كولمبوس فرقة مسلحة الى البر لاستكشاف هذا الجزء من كوستاريكا ولما عادت أعلن افرادها عن وجود حيوانات كثيرة مثـل الغزلان ، والسباع الاميركية وطيور تشبه ديوك الرومي ، وتعرف اليوم بالطاووس ، كما جلبـوا معهم قرداً جرحه احد الرماة ليجعل منه حيوانا أليفاً . واثنـاء ذلك ، اهدى هنود « بورتو ليمون » الاميرال زوجاً من الخنازير البرية احتفـظ بواحد منهما كان متوحشاً جعل الكلب الايرلندي يتقهقر الى اسفل سطح السفينة حيث بقي مختبئاً طوال المدة التي ظل فيها الخنزير البري على السفينه . والتقى الخنزير اخيراً بندٍ له الا وهو القرد الذي كان بالرغم من جروحه ، يلف ذيـله حول زلومة

الخنزير ثم يمسك بقفا رقبته ويعضه حتى يجعله يزمجر من الالم .

وكان هذا المشهد رياضة مفرحة اذ لم يكن الرفق بالحيوان من ضمن الاخلاق المسيحية آنذاك !

تجدد البحث عن المضيق في الخامس من تشرين الاول ، واعتقد كولمبوس عند اقتراب المساء بأنه عثر عليه في قنال البوكاديل دراغون المؤدي الى خليج عظيم يدعى اليوم « الميرانتي » تسمية باسمه . وحالما اصبح في الداخل وجد ان الهنود يضعون اقراصاً من الذهب الممتاز على صدورهم . واستطاع الاسبان هناك ان يقايضوا كل ثلاثة اجراس صقور صغيرة والتي لا تساوي اكثر من بنس واحد بقرص من الذهب يساوي اربع جنيهات .

كان الاسبان حتى هذا الوقت بدون مترجم إذ كان الاميرال قد سمح لجوان بريز بالعودة الى بيته وهكذا ، عندما سأل كولمبوس الهنود عن مضيق يقود الى المحيط الفسيح بالاشارة — لوح له هؤلاء بنفس الاشارات الى المضيق الضيق ( يدعى اليوم سبلت هل تشانل ) المؤدي الى خارج بحيرة المياه . وأبحرت السفن عبر هذا المضيق بالرغم من انه كان ضيقاً للغاية حتى ان أعواد الأشرعة كانت تحتك بالاشجار ، ولكنهم كوفئوا برؤية شقة شاسعة من المياه . ولكن واأسفاه ! كانت الجبال تحيط بهم من كل جانب فلم يكن هذا هو المحيط الهندي بل بحيرة تشيريكوى .

قضى الاسطول عشرة ايام متكاسلاً على شواطيء هذه البحيرة بينما كان الهنود يتاجرون بخفة ونشاط بأقراص الذهب والتمائم المصنوعة على صورة الطيور والتي كانوا يضعونها حول اعناقهم وقد أطلق عليها الهنود لفظة « نسور » ومن هؤلاء الهنود علم كولمبوس انه ورجاله يقبعون في برزخ يقع بين بحرين وان سلسلة جبال شاهقة تقف سداً في طريقه . وفهم منهم ايضا او تصور خطأ بأنه فهم قولهم ، بأن جيرانهم في الجانب الاخر من سلسلة جبال كورديللرا يملكون سفنا حربية مجهزة تجهيزاً كاملاً بالمدافع وان نهر جنجيز يقع على مسيرة عشرة ايام من هناك . واستنتج الاميرال من رجوعه الى نسخة الكتاب المقدس اللاتينية

ان هذه المنطقة ، لم تكن إسبانيولا ، بل مملكة الذهب كما جاء في سفر الاخبار (١٨٬٨) أي المكان الذي ارسل الملك حيرام منه اربعمائة وخمسين وزنة من الذهب الى الملك سليمان . ويبدو انه اقتنع بعد وجود مضيق هناك (ولم يكن لمثل هذا المضيق وجود) اذ أخذ يحصر همه منذ ذلك الحين بتجميع الذهب وانشاء محطة للتجارة . وليس هناك أي اشارة أو ذكر في أي من كتابات معاصريه عن تلك الرحلة بأنه قام بالبحث عن مضيق ما إثر ذلك .

هبت في السابع عشر من تشرين الاول عـــام ١٥٠٢ رياح غربية فعبر الاسطول بحيرة تشيريكوى عن طريق القناة الشرقية وأبحر على طول شاطىء خليج موسكيتو (البعوض) الخالي من الموانىء وظل يسير شرقاً ضد الرياح الموسمية . وكانت الشواطىء تبدو جميلة جذابة إلا انهـا في الواقع كانت غير مؤنسة . كذلك لم يكن هنـــاك اماكن صالحة للرسو على طول الشاطىء الممتد مسافة اكثر من ١٢٥ ميـــلاً ، أي من بحيرة تشيريكوى الى خليج الليمون (مدخل بحر الكريب الذي يؤدي الى قنال بنامـــا) إلا حيث يشكل النهر بالقرب من مصبه حافة لا تستطيع القوارب الصغيرة عبورها ، هذا اذا لم تكن الحافة متشققة . ولهـذا السبب ، وبالنظر الى ان الهنود كانوا يلوحون باشارات عدائية في المراسي القليلة التي توقف عندها ليرسل زورقـاً الى الشاطىء ، رسم كولمبوس في ذهنه صورة لمرفأ يقع على الشاطىء المليء بالذهب ، وهكذا أسرع بسفنه الى الأمام بأقصى ما تستطيع الرياح الغربية الطارئة دفعه ، يحدوه أمل العثور على نقطة تكون أكثر أماناً لبناء محطته التجارية .

وقبل نهاية تشرين الاول أقبل على المنطقة موسم ممطر مزمجر غير عـادي . وفي الثاني من تشرين الثاني ، وبعد ان كانت السفن الاربع تسير نحو مهب الريح دخلت مرفأ جميلاً سماه الاميرال بورتوبللو ، ولا يزال يعرف بهذا الاسم ، كما ظل طوال الحكم الاستعماري الاسباني مدينة تنعم بالبحبوحة والرخـــاء واقعة في الطرف الشمالي من رأس اليابسة الممتد في البحر والذي كان يستعمـــل معبراً

للبغال . فلو ان كولمبوس قرر الاقامة هناك لتمكنت حاميته حتمـاً من السماع بوجود برزخ بناما ولشاهدت المحيط الباسفيكي قبل ان يشاهده المكتشف بالبوا بعشر سنوات . ولكن بالرغم من لطف الهنود هناك ، فلم يكن عندهم ذهب ، وهكذا مكث الاميرال مدة اسبوع تقريباً حصل خلالهـا على المؤن والقطن ثم تابع رحلته .

وفي التاسع من تشرين الثاني سجل الاسطول تقدماً قليلا الى الشرق ولكن الريح ارغمته في اليوم التالي على التقهقر عدة أميـال الى الوراء فدخل مرفأ سماه كولمبوس بورتو دى باستيمنتوس ، أي مرفأ المؤن . وبعد عشر سنوات عـاد نيكوسا وسماه نومبر دى ديوس حيث شيد مدينة ظلت ردحـاً طويلا من الزمن تساهم بتجارة الترانزيت مع بورتوبللو الى ان غزاها فرانسيس دريك ونهبهـا . بقي الاسطول اثني عشر يوماً لاجراء بعض التصليحـات البسيطة بينما كانت الرياح لا تزال تهب من الشرق . ومرة ثانية ضيع الاميرال الفرصة للشروع ببناء محطة تجارية في مكان مناسب .

كانت وقفة الاسطول الثانية في ميناء صغـير سموه البورتوديل رتريت ، ويعرف اليوم بميناء اسكريبانوس . ونظراً لصغره المتناهي ربطت السفن الأربع متلاصقة قرب بعضها البعض على طول الضفاف كما لو انهـا كانت مربوطة الى رصيف المرفأ . واغتنم البحارة هذه الفرصة للذهاب خلسة الى القرى الهنديـة والقيام بتجارة خاصة بالسلاح ، مما سبب بعض المشاكل . إذ تجمع عدد كبير من الهنود على الشاطىء واخذوا يهددون ويتوعدون مما اضطر الأميرال لأن يحصد بعضهم بالنيران كي يتفرق الآخرون .

سئم كولمبوس من استمرار الرياح الشرقيـة فقرر العودة الى فيرغوا لوضع الترتيبات اللازمة بغية الحصول على مقدار اكـثر من الذهب . وفي الخامس من كانون اول عاد الاسطول الى بورتوبللو . وفي اليوم التالي عصفت الرياح في الاتجاه الغربي مجدداً . وظلت السفن لمدة شهر تتقدم الى الامام وتتقهقر للوراء بـين

بورتوبللو ومكان ما بقرب مصب نهر الشاغرس . وكان التيار يتغير دائماً مع تغير الريح حتى صار من العبث ابداء أية مقاومة ! لقد كان الطقس سيئاً بصورة شاذة . « انا لا اقول بان السماء امطرت » قال كولمبوس « لان الأمر كان شبيهاً بطوفان ثان » بينما كان الرعد يقصف والبرق يلمع كلما تبدلت الريح . ومرة تعرض الاسطول لخطر دوام هائل لكنه خرج منه بسلام بعد أن قرأ الاميرال بصوت عال التعويذة الخاصة المشهورة في الانجيل والتي قالها القديس يوحنا بمناسبة هبوب العاصفة المشهورة على بحر الجليل[1] والتي جاء في نهايتها « لا تخش شيئاً فهذا أنا » ثم استل سيفه والانجيل في يده اليسرى ورسم به اشارة الصليب في السماء ودائرة حول الاسطول . في تلك الليلة شردت السفينة فيزكانا عن باقي السفن ولكنها عادت والتقت بزميلاتها بعد مرور ثلاثة ايام حالكة عاصفة . وذكر الاميرال ان قوى البحارة انهارت حتى انهم تمنوا الموت لوضع حد لمآسيهم . ثم تبع ذلك يومان هادئان ، راحت خلالهما زرافات هائلة من كلاب البحر تقفز حول السفن ، مما مكن البحارة من اصطياد عدد كبير منها ، واستعمال بعضها للاكل ، بعد أن أخذت المؤن بالتناقص . ويذكر فرديناند كيف ان البقسماط أصبح مليئاً بالسوس مما جعل بعض الرجال ينتظرون هبوط الظلام ليلتهموا الثريدة المصنوعة منه ، بينما لم يبال الآخرون بالانتظار لئلا يضيعوا عليهم وجبة عشاء فيما لو فعلوا ذلك .

وفي الثالث والعشرين من كانون الاول دخل الاسطول المرفأ المعروف حالياً باسم كريستوبال في منطقة قنال بناما حيث أمضوا فترة عيدي الميلاد ورأس السنة لعام ١٥٠٣ ببؤس بالغ في مرساهم قرب قاعدة كوكو سولو البحرية اليوم. وهنا ، لو ان كولمبوس عرف فقط بأنه كان على بعد بضعة أميال من المضيق لاستطاع ان يحل هذه الأحجية . بل وكان من الجائز ، لو انه عرف ذلك ، ان يرسل بعضاً من زوارقه الى نهر الشاغرس ، ومنه ، يستعين بقوارب الهنود ، الى آخر خط الملاحة حيث لا يبقى سوى اثني عشر ميلا بالبر للوصول الى المحيط

(١) بحيرة طبرية في شمالي فلسطين .

الباسفيكي . لكنه كان في غاية الانهاك مغلوباً على أمره ، كما انشلت قوى رجاله من الصدمات المتواصلة حتى لم يبق عندهم طاقة للقيام بأي اكتشاف جديد . زد على ذلك انهم لم يكثروا الحديث مع الهنود ، سكان منطقة القنال الحالية ، أو انهم لم يفهموا حديثهم ! وهكذا اخفق كولمبوس بسبب أميال قليـــلة في انجاز اعظم اكتشاف جغرافي الذي كان بوسعه اتمامه في هذه الرحلة الهائجة .

# الفصل التاسع عشر

## نهر بيلـــين

أخذ كولمبوس اثناء عودته باتجاه الغرب على طول ساحل فيراغوا القاحل بالبحث عن موقع ملائم لانشاء مركز تجاري يستطيع منه تجميع ذهب تلك المنطقة الوفير . وفي اليوم السادس من كانون الثـاني ألقى مراسيه قرب مصب نهر سماه بيلين أي بيت لحم ، لمصادفة حلول عيد الملوك الثلاثة الذين حملوا هدايا الذهب والمر المسكاوي واللبان الذكر ليسوع الطفل . فأل حسن ! وبعد ان سبر غور المياه ووجد ان عمقها يبلغ السبع اقدام قـاد سفنه الى داخل المصب حيث يشكل النهر خليجاً غزير الميـــاه . ولج الاسطول الى مأواه في الوقت المناسب إذ هبت في اليوم التـالي عاصفة أخرى هوجاء . وكانت امواج ذلك الساحل تتكسر عند حافة النهر مهما كان البحر هائجاً .

كانت رقعة الساحل هنا ضيقة جداً لا تزيد على بضعة ياردات عرضاً في بعض الامكنة ، ترتفع خلفها مباشرة أرض وعرة غير مستوية تغطيها غابات استوائية كثيفة وتليها جبال مجللة بالخضرة تغطي السحب قممها معظم الوقت . وتجتـاح الرياح الموسمية هـــذا الساحل المؤلف من شواطىء رملية طويلة يتخللها ويفصل بينها أجراف صخرية عالية ، تجعل الرسو فيها خطراً جداً بل ويستحيل دخول معظمها حتى بالقوارب الصغيرة . أما أمطارها فغزيرة جداً . حتى ان الزراعة

على أي مدى واسع غير مربحه . ولا يملك السكان القاطنون هناك اليوم من وسائل الاتصال بالعالم الخارجي سوى القوارب المنحوتة من جذوع الشجر ، واذ لا تستطيع الزوارق النزول الى الماء الا في الحالات النادرة التي يهدأ فيها اليم . ولقد وجدنا نحن ، أعضاء بعثة كولمبوس من هارفارد ان هذه المنطقة ، أصعب المناطق التي اكتشفها الأميرال ، من ناحية امكانية ارتيادها ودرسها . ولم نستطع النزول الى البر عند ريو بيلين الا بمعاونة حكومة باناما التي منحتنا سفينة جر تجارية تدار بمحرك مازوت ومرشد محلي قدير وبعد ان عانينا الكثير من العثرات والحزات فوق المياه .

وبعد بضعة أيام من « عيد الغطاس » أبحر بارثولميو كولمبوس على متن زوارق السفن باتجاه الغرب طوال الساحل ووصل مجذفاً الى النهر التالي ، نهر فيراغوا قرب موطن زعيم محلي يدعى كوبيان الذي جاء ، بكل احترام وود ، بصحبة اسطول من القوارب للترحيب بالزوار . وفي اليوم التالي رحب به الاميرال على ظهر الكابيتانا .

تعتبر فيراغوا من أغزر مناطق العالم مطراً . وتتشبع الاراضي هناك بالماء حتى ان كل عاصفة تحدث طوفانا . ولقد اختبر كولمبوس ذلك في ٢٤ كانون ثاني عام ١٥٠٣ اذ اندفع أثر عاصفة امطار غزيرة في الجبال ، تيار جارف على السفن في مكان رسوها في قاع بيلين ، سيل جر معه كابيتانا وأعطب غليغيا وتركها بعد ان حمل معه صاري المؤخرة . ولولا العمل السريع الذي قام به البحارة لجنحت السفينتان على ضفة النهر . وتلا ذلك اسبوعان من المطر الشديد والسيول الجارفة ، ولم يهدأ البحر قليلاً إلا في السادس من كانون الثاني حيث تمكنت الزوارق من الخروج الى البحر . ثم قام بارثولميو برد زيارة الزعيم كوبيان وجاب المنطقة على طول طريق هندي بصحبة مرشدين محليين ، وقد نجح رجاله خلال يوم واحد بجمع ما يساوي ١٠ دولارات من الذهب دون ان يكون بحوزتهم من الوسائل سوى المدي العادية . وقد سر اكتشاف هذه المنطقة الغنية بالذهب الأميرال حتى انه قرر تشييد مركز تجاري محصن في بيلين ، يترك أخاه

مسؤولاً عنه ويعود هو لإسبانيا طلباً للامدادات . وفعلاً تم اختيار تل صغير قرب مصب النهر كموقع مناسب وأخذ رجاله ببناء المركز الذي سماه كولمبوس سانتا ماريا دي بيلين . وهكذا اختار كولمبوس أسوأ موقع على طول ساحل أميركا الوسطى لتشييد رأس جسر له .

وبينما كنا نجوب الساحل عام ١٩٤٠ لاختبار ما فعله كولمبوس ، قابلنا أحد الباحثين القدامى عن الذهب ، الذي شرح لنا سبب بقاء ذهب فيراغوا دون استغلال كامل بقوله ، انه صعد قبل سنوات الى أعلى أحد الانهار بصحبة شريك آخر ومرشد هندي . . وبعد التجذيف مسافة اميال كثيرة سأل المرشد « أين نجد الذهب ؟ »

« هنا تماماً » قال الهندي الذي أرفق قوله بغرز سكينه في طين النهر واستخرج قبضة منه ظهرت فيها حبيبات من الذهب بقيمة عشرة دولارات ! وأضاف الباحث يقول انه أخذ وشريكه يفكران جدياً كيف سيصرفان المليون دولار الأول الذي سيحصلان عليه ! وانهما عادا حالاً الى أقرب بلدة حيث تزودا بالمؤن والأخشاب التي صنعوا منها مصاف التي كان من المفروض ان يجعلها انتاجها ثريين . . ولكن الزوبعة التالية ذهبت بجميع معداتها وقذفت بها بعيداً في البحر الكريبي . وهذا ما ظل يحدث طوال القرون الأربعة والنصف الخالية . ومع ذلك فما زال هناك « الكثير من الذهب في تلك التلال » ولكن الهنود فقط يعرفون كيفية استخراجه !

وما كادت محطة سانتا ماريا دي بيلين تصبح مركزاً تجارياً بدائياً يتألف من ١٢ بيتاً مبنياً بسعف النخيل حتى هبط منسوب النهر بشكل تعذر فيه على السفن عبور حافته . وفي تلك اللحظة ، وقد علقت السفن في الداخل ، حدث التبدل الذي لا مناص منه في موقف هنود غوايامي — كان البحارة يتسللون مثنى أو ثلاث للمقايضة بالسلاح وللحصول على النساء ، ويبدو ان كوبيان كان على استعداد لتحمل كل ذلك لو انه اعتقد بان هؤلاء الزوار اللجوجين سيرحلون قريباً . أما الآن وقد تأكد بانهم عازمون على بناء بلدة والبقاء فيها فقد قرر ان

الوقت قد حان لاعطائهم « درساً » . فأرسل الى بيلين فرق استكشاف في القوارب تصرفت بشكل أثار شكوك الاسبان حتى ان ديجو منديز ، وهو نبيل متطوع في الاسطول ، أبدى استعداده للتجذيف على طول الساحل لمعرفة ما كان يجري هناك . وبعد مسيرة بضعة أميال شاهد معسكراً يضج بألف محارب صخّاب . وبتلك الأعصاب المدهشة المعروفة عن الاسبانيين في مواقف الخطر ، نزل الى الشاطىء وحيداً ليقابلهم . ثم عاد الى قاربه وبقي طوال الليل يراقب حركات الهنود وهو على بعد يسير من مرمى السهام . ويظهر انهم تأكدوا ان فرصة المباغتة قد ضاعت عليهم فلموا جمعهم وتراجعوا الى قرية كوبيان . وبعد ان قدم منديز تقريراً الى الاميرال عاد وتتبع خطاهم الى هناك . وفي وسط صخب فظيع أخرج بهدوء موسى الحلاقة وطلب من رفيقه رودريغو اسكوبار ان يحلق له شعره . والغريب ان هذا العمل لم يوقف الصراخ والصخب فحسب بل وأثار اهتمام كوبيان نفسه الذي طلب ان يقص له شعره أيضاً . وبعد ذلك قدمت له المرآة والموسى والمشط كهدية . وعاد منديز بسلام !

كان على كولمبوس ان يفهم مغزى الحوادث ويعرف ان من المستحيل الدفاع عن محطته التجارية في وجه عداء الاف الهنود الذين يستطيعون التسلل بحماية الغابات الكثيفة ومباغتة الموقع والتغلب عليه . ولكنه بدلا من ذلك اتخذ قراراً سيئاً جداً — ألا وهو القاء القبض على كوبيان والاحتفاظ به رهينة لديه ليضمن حسن سلوك الغوايامين . ونفذ هذا القرار فوراً بقيادة منديز نفسه الذي اوقع الزعيم الهندي وثلاثين من أفراد بيته في كمين اسباني مسلح ثم قبض عليه وساقه الى النهر مع كمية من الاواني الذهبية .. ولكن الزعيم الهندي استطاع الافلات ، وبسرعة ، نجح في اثارة البلاد بأجمعها ضد الدخلاء الاجانب .

وفي هذه الاثناء كان البحارة يحاولون الخروج بثلاث سفن عبر حافة نهر بيلين بقصد ترك غاليغا للوقوف كقلعة عائمة لمؤازرة بارثولميو والحامية . ولكن .. في اليوم السادس من نيسان وبينما كان الاسبان يتبادلون كلمات الوداع ، بعد أن تقرر بقاء عشرين رجلا والكلب الارلندي في حراسة القلعة ، تعرضت هذه

لهجوم حوالي ٤٠٠ هندي مسلحين بالاقواس والسهام والرماح . ولكن المهاجمين ردوا على اعقابهم بفضل شراسة الكلب ، الا انهم انتقموا بسرعة بقتـــل ديجو تريستان ربان كابيتانا الذي كان يملأ بعض رفاقه براميل الماء لسفينة القيادة في أعلى النهر ولم ينج من الاسبان سوى واحد وقتل العشرة الاخرون .

ظل الاميرال الذي كان يعاني مرض الملاريا بمفرده على ظهر سفينة القيـادة التي كانت ترسو خارج حافة النهر بيـــنما انطلق رجاله يجذفون نحو الشاطىء لمساعدة الحامية .. وفجأة صعد كولمبوس الى أعلى الصاري وأخذ يصرخ برجاله للعودة الى السفينة ولكن صوتـه ضاع بين صراخ الهنود وزعيقهم ، ولم يسمعه أحد .. وهنا انتابته الحمى وأخذه الهذيان .. فرأى أحلاماً وسمع صوتاً اعتقـد انه صوت الله تعالى يذكره بانه فعل لكولمبوس ما فعـله لموسى وداوود .. وان ما يقاسيه « مكتوب على الواح من المرمر » وان عليه ان لا يخشى شيئاً « بـل يؤمن ويزداد ايماناً » .

ظلت الحالة حرجة متأزمة طوال ثمانية أيام . فرغم ان الطقس كان مؤاتياً للسفن الرابضة خارج النهر إلا انه كان من المتعذر على أي زورق عبور حافـة النهر كما صار من الضروري تزويد كابيتانا ببعض بحارة فيزكانيا وبرمودا . كما ان بعض الهنود الرهائن على ظهر برمودا نجحوا بالفرار وانتحر الباقون على أعمدة سطح السفينة .

إتخذ الأميرال الآن قراراً قاسياً ولكنه كان حكيماً . فقد فكر بان وضع بارثولميو على الساحل سيصبح موئساً دون رهائن . فطلب متطوعاً يسبح عـبر حافة النهر ويتصل مع أخيه ، فتطوع لهذه المهمة بيدرو دى لدسما .. الذي عاد بطلب عاجل من بارثولميو يلح فيه بضرورة الأمر باخـــلاء الحصن والالتحاق بالاسطول للعودة الى الوطن .. وتذكر كولمبوس مصير حاميـــة نافيداد فقبل الطلب !

وفي الحال اقام ديجو منديز طوفاً انتقل عليه الاسبان مع جميع معداتهم عبر

حافة النهر . وهكذا تخلوا عن غاليغا وسنتا ماريا دى بيلين وتركوهما في قاع النهر ... ومنذ ذلك الحين لم تنجح ابداً أية محاولة لتشييد مستعمرة اوروبيـة هناك او حتى في الجوار . أما احفاد الغوياميين فقد تراجعوا الى الداخل. وبقي ساحل فيراغو ، عدا بعض الأمكنة التي يسكنها بضعة افراد من أصول مختلطة، يعاني من فقر مدقع ، لقد ظل موحشاً ورطباً وجميلا بشكل أخاذ ، تمامـاً كما وجده كولمبوس حين نزل عليه في يوم عيد « الملوك الثلاثة » .

# الفصل العشرون

## بوادر الخطر في جميكا .

غادرت السفن الثلاث – كابيتانا ، برمودا وفيزكانيا – بيلين في أحد الفصح الموافق ليوم السادس عشر من نيسان عام ١٥٠٣ على أمل ان تتصل الى سانتو دومينغو في عيد العنصرة . وقد اقترح الأميرال ان يعرج على تلك المدينة لاجراء بعض التصليحات والتزود بالمؤن قبل العودة الى الوطن . ولما كان كولمبوس يعتقد انه على بعد عدة فراسخ الى الغروب من خط اسبانيولا ، ولما كان يعرف بالاختيار ان السفر ضد الريح الشرقية والتيار الاستوائي أمر مستحيل ، لذلك صمم على الابحار قريباً من اليابسة ، مستفيداً من النسيم البري ومتوقفاً كلما ساء الطقس الى أن يصل الى نقطة تقع جنوبي اسبانيولا تماماً ، وعندئذ يدرك سانتو دومينغو من جهة اليمين وسبّب هذا القرار البحري تمرداً بين البحارة لأن المرشدين قدروا ( خطـأ كعادتهم ) بأنهم كانوا حينذاك جنوبي سانتو دومينغو أو حتى بورتوريكو .

ولسوء الحظ تعرضت السفن الثلاث لهجمات البروميا . ولقد نال كولمبوس لوماً كثيراً بسبب هذا الاهمال ، وليس هنـاك سبب واضح وراء احجام كولمبوس عن ترفيت جوانب الأسطول في كابولورغو في كوبا او في كوكوسولو حيث قام فعلاً بترفيت جوانب السفينة غاليغا التي تخلى عنها . ولكنه أجاب

على ذلك وعلى جميع الانتقـــادات الأخرى التي وجهت اليه في تقريره الى العاهلين بقوله :

« دع اولئك المولعين بتوجيه اللوم واكتشاف الخطـأ يسألون وهم يجلسون بأمان وسلام في بيوتهم . لماذا لم تفعل كذا وكذا ؟... كنت أتمنى أن يكونوا معنا في هذه الرحلة ، ولكنني أعتقد جيداً بان هناك رحلة أخرى من نوع جديد تنتظرهم او ان يكون ايماننا عبثاً ! »

وبمعنى آخر فانـــه يقصد أن يقول : دع أميرالات الكراسي وملاحي المكاتب يذهبون الى جهنم !

وبينما كانت السفن تتقدم على طول الشاطىء ، كان جميع البحارة منكبين على المضخات او يصرفون المياه بالتنك . ومع ذلك أمر بحارة فيزكانيا بمغادرتها بعد ان تردت حالتها في بورتوبللو لقرب المياه اليها بصورة تبعث على الخيبـة . وتوزع بحارتها بين كابيتانا وبرمودا اللتين استمرتا بالزحف الى الأمـــام حتى تجاوزتا أبعد نقطة شرقية وصلتا اليها سابقاً في جمهورية باناما الحالية ومنها إلى خليج سان بلاس . ظل جميع البحارة يشتغلون للاحتفـــاظ بالسفن عائمة فلم يتمتعوا بمشاهد ذلك الشاطىء الجميل حيث تبدو سلسلة جبال كورديللبرا المسننة صاعدة من وراء الشواطىء المشعة بالبياض والغـابات الاستوائية الرائعة التي تضم اشجار المهاغون والآبنوس وغيرها من الاشجار الثمينة التي كانت تشمخ من بين اوراقها البراقة المتشابكة الشبيهة بالخيمة قمم عملاقـة تتفجر بالبراعم ذات الالوان البرتقالية والحمراء وكأنها مشعل ارتفع من قلب الغابة المظلمة .

وفي اول ايار وصلت السفينتان الى رأس بري سماه كولمبوس كابو مارموريو أو رأس المرمر الذي يعتقـــد بأنه بونتادي موسكيتوس ، اي راس البعوض الحالي . وفيما بدأ الشاطىء هنا يميل جنوباً ــ شرقاً في خليج دارين ظن جميع المرشدين والقباطنة خطأ انهم وصلوا الى وسط ساحل جزيرة غوادلوب الشرقي ، فتألبوا على كولمبوس وأرغموه على مغادرة الشاطىء عنوة والابحـــار شمالاً . والحقيقة انهم كانوا في دائرة كينغستون بجميكا على بعد حوالي ٩٠٠ ميل غربي

غوادلوب . اما الأميرال فكان يعتزم الإبحار على طول الشاطىء شرقاً حتى يصل الى كابودي فيلا قبل الاتجاه شمالاً ولكن ما من احد على ظهر السفينة كان يعرف شيئاً عن ذلك الشاطىء . كما ان كولمبوس كان منهوكاً من آلام المفاصل ومرض الملاريا وفشل خططه لذلك استسلم لرأيهم .

وهكذا ، اندفعت كابيتانا التي نخرتها البروميا وبرمودا المثقوبة باتجاه الشمال وذلك في يوم عيد الربيع عام ١٥٠٣ وكانتا تسيران مع الريح بأقصى سرعتها ولكن التيار كان يدفعهما باستمرار للجهة الواقعة تحت الريح . وبعد عشرة ايام عبرتا جزيرة كاي الصغرى الى الشمال الغربي من جميكا . وفي اليوم الثاني عشر اصابوا مكاناً من اليابسة في الارخبيل الكوبي الذي كان كولمبوس قد سماه « بستان الملكة » في رحلته الثانية وقد ذكر فرديناند بأنهم كانوا يشعرون « بالجوع الشديد والانزعاج » فيما ألقت السفن مراسيها على ارض المرفأ الصغير اللينة في كاي بريتون . ولم يكن لدى البحارة شيء يأكلونه سوى البقسماط وقليل من الزيت والخل ، وقد خارت قواهم من العمل على ثلاث مضخات ليلاً ونهاراً فقد كانت السفينتان على وشك الغرق بسبب الثقوب الكثيرة التي احدثتها البروميا . وفوق كل ذلك هبت عليهم عاصفة ليلية هوجاء من تلك العواصف التي اشتهر بها هذا الشاطىء . وتسببت بتقطيع حبال برمودا التي أعطبت بدورها كابيتانا فمدت سفينة القيادة لبرمودا حبلاً وربطتها بالمرساة الوحيدة الباقية لديها ، ولحسن الحظ صمدت هذه المرساة الواحدة في تثبيت السفينتين .

اعتدلت الريح بعد ستة أيام وتابعت السفينتان سيرهما الكادح على طول الساحل الغربي بقعرين منخورين « كقرص النحل » كما قال فرديناند ، والبحارة « خائرو القوى قانطون » ، وفي نحو العاشر من حزيران وفيما كانوا لا يزالون غربي سنتياغو ، قرر كولمبوس ان الوسيلة الوحيدة لانقاذ حياة رجاله هي مقاومة البحر بامالة سفينتيه الى الجانب الأيسر مؤملاً بذلك ان يقودهما عبر ممر الرياح الى رأس تيبورن في اسبانيولا . ولكن كولمبوس اعترف فيما بعد بان

ذلك كان خطأ وانه كان ينبغي عليه ان يسرع الى جميكا بنشر الأشرعة جميعها . إذ حدث عندما وصلت السفينتان الى نقطة تبعد مائة ميل تقريباً عن اسبانيولا ان تمكنت الميـــاه من برمودا الى درجة مرعبة جعلت الاميرال يصدر أوامره للسفينتين بتغيير وجهتيها نحو جميكا ، وكان من الجائز ان ينقل بحارة برمودا الى كابيتانا ويحاول الوصول الى اسبانيولا ولكن سفينة القيادة كانت ترشح أيضـاً ولم يكن باستطاعته ان يضمن قدرتها على مقاومة الريح لمسافة مئة ميل اخرى. ولما كانت السفن الخشبية لا تعاني كثيراً عندما تهب عليها الريح من الخلف بل تزداد سرعتها ، فقد كان قرار كولمبوس اللجوء الى جميكا ، صائباً وحكيما .

وفي الخامس والعشرين من حزيران ، دخلت السفينتان البائستان والميـــاه تكاد تملأ ظهريها خليـــج القديسة حنة في جميكا ، الذي كان كولمبوس قد سماه خليج سانتا غلوريا في الرحلة الثانية . وهناك "شحّط" (بلغة البحارة) كولمبوس السفينتين جنبـاً الى جنب على رمال الشاطىء ودعمها لكي يبقي قاعدتيهما مرفوعتين بالتساوي . ولكن مياه المد كانت ترتفع حتى ظهريهما تقريباً ، لذلك أقام البحارة لأنفسهم مأوٍ من سعف النخيل على ظهر السفينتين ظلوا فيها طوال سنة كاملة .

كان هؤلاء الاسبان الستة عشر الجانحون الى جميكا في وضع دفاعي جيـد إذ كان هيكلا السفينتين لهم بمثابة مساكن جافة وقلعة لا بأس بهـا . وكانت تقع في جوارهم قرية هندية كبـيرة مكرامة . ولكن كولمبوس الذي قاسى مرارة التجربة عرف ان الاهالي لن يستمروا طويلاً في صداقتهم ، اذا سمح لبحارتـه بالاتصال بهم . لذلك أمر جميع البحارة بالبقاء على ظهر السفينتين ولم يسمح لأحد منهم بالنزول الى الشاطىء دون موافقته .

وكان اول ما يستدعي الاهتمام قضية توفير المواد الغذائية فارسل كولمبوس ديجو مانديز مع ثلاثة رجال في حملة للتفتيش عن الطعام . واندفعت الحمـــلة في بحثها حتى نهاية الطرف الشرقي من الجزيرة حيث اشتروا قارباً محلياً حملوه بالمواد الغذائية وعادوا الى سانتا غلوريا فخورين بظفرهم . وتأميناً للحصول على المؤن

بصورة مستمرة عقد منديز مع الهنود المجاورين اتفاقية حول الاسعار نصت على أن يبيعوهم كل كعكة كاسافا بخرزتين من الزجاج وكل سقايتين كبيرتين برأس ابريم وأية كمية كبيرة من أي شيء آخر، مثل السمك او الذرة، فمقابل جرس للصقر. ولم تتضح بعد أسباب عجز الاسبان والجنويين عن اصطياد السمك بأنفسهم او قيامهم بزراعة الحبوب لأنفسهم . والواضح انه لو لم يطعمهم الهنـــود لقضوا نحبهم جوعاً !

والآن ، كيف السبيل للوصول الى الوطن ؟ كان مكان الاستراحة الأخـــير للسفينتين يطل على مشهد بحر مترامي الاطراف ، أما فرصة مشاهدة أية سفينة اسبانية أو غير اسبانية فكانت بعيدة الاحتمال ، ذلك لأن كولمبوس كان قد صرح أمام الجميع بعدم وجود الذهب في جميكا . كما ان السفينتين كابيتانا وبرمودا كانتا لا تصلحان للترميم ، ويبدو ان بحارتيهما كانوا عاجزين عن بنـــاء سفينة صغيرة ينجون بها كعجزهم عـن توفير الغذاء لأنفسهم . وهكذا كانت الطريقة الوحيدة الممكنة لتلافي قضاء المدة الباقية من حياتهم في جميكا ان يرسلوا رسولاً الى اسبانيولا لتدبير سفينة انقاذ !

وكالعادة أجـــاب كل منهم : « ليقم ديجو منديز بهذا العمل ! » جرّ ذلك الاسباني المخلص والذي لا يعرف الكلل ، القارب الكبير الذي اشتراه ، وثبت عليه قاعدة وجوانب مستعارة ثم ركّب عليه صارياً وشراعـــاً وانطلق به ؛ غير ان الهنود قبضوا عليه في محاولته الاولى في مكان ما بالقرب من النقطة الشمالية الشرقية ولكنه تخلص منهم وعاد أدراجه الى سانتا غلوريا . أمـــا في محاولته الثانية فقد لقي الكثير من المساعدة . إذ اخذ بارثولميو فييشي ، القبطـــان الجنوي ، على عاتقه قيـــادة زورق آخر معه الى اسبانيولا . كما جهز بارثولميو كولمبوس حراسة مسلحة بشكل اسطول من الزوارق لحمـاية منديز وفييشي في مياه جميكا . وعلى بعد قريب من النقطة الشمالية الشرقية تبادلوا تحيات الوداع ، واندفع الزورقان في الممر المواجه للريح .

لقد أبدي اهتمام زائد بصدد رحلة الزورق هذا يفوق كل ما أبدي بصدد أي

شيء آخر في هذه الرحلة الهائجة . وبمقارنة رحلة الزورقين هذه مع عدة رحلات قامت بها قوارب الانقاذ والطوافات في الحرب العالمية الثانية ، يظهر ان المهمة لم تكن طويلة أو شاقة بصورة فريدة ، لا سيما وان هناك جزيرة على مسافة كل ١٠٨ أميال ومحطة استراحة في جزيرة نافاسا على بعد ٧٨ ميلاً فقط . كما وان الرحلة تمت في شهر حزيران حيث تخمد الرياح الموسمية قبل هبوب الاعاصير .

ولكن يجب ان لا يغرب عن البال ان لا الاسبان ولا هؤلاء الهنود كانوا معتادين على السفر في القوارب الصغيرة. ولهذا وجدوا هذه الرحلة صعبة متعبة. كان بأمرة كل قبطان ستة من المسيحيين وعشرة من الهنود للقيام بالمهمة . وكان البحر هادئاً عندما شرعوا بالرحلة ، تماماً كما أرادوه، غير ان شدة الحر ازعجتهم في اليوم الأول – أما الليل فكان بارداً . وفي صباح اليوم التالي اكتشف ان الهنود شربوا حصتهم كلها من المياه .

وعند غروب شمس اليوم التالي فقد الجميع شجاعتهم ومات هندي واحد من شدة العطش بينما انهارت قوى الآخرين فلم يقووا على التجذيف . وهبط ليل اليوم الثالث دون أي أثر لليابسة . ولكن ديجو منديز شاهد مع طلوع القمر خطوط جزيرة نافاسا عند اطرافها السفلى ، فوصلوا اليها بعد مسير حوالي ٧٢ ساعة من جميكا . أي أنهم كانوا يقطعون في الساعة الواحدة اكثر من ميل بقليل . وفي نافاسا روى كل واحد منهم غليله من الماء واشعلوا النار وطبخوا عليها بعض الصدف . وصار باستطاعتهم ان يشاهدوا جبال اسبانيولا الشاهقة . وفي المساء التالي ابحروا حول رأس تيبورن .

رغب فييشي بالعودة الى جميكا ليخبر الاميرال بأنه قام بمهمته، ولكن بحارته رفضوا العودة . اما ديجو فحصل على بعض الهنود الجدد للتجذيف وتابع السفر على طول الشاطىء المؤدي الى ازوا ( حيث سبق للأسطول ان التقى بجميع سفنه بعد الاعصار الذي هب عام ١٥٠٢ ) ومن هناك ساروا مشياً على الاقدام الى داخل البلاد لمقابلة اوفاندو والتوسل اليه ان ينجد الاميرال . كان ذلك في شهر آب عام ١٥٠٣ . أما اوفاندو الذي كان يتمتع بحكم اسبانيولا ويخشى ان

يستعيد كولمبوس منصبه فيها فكان يتمنى من صميم قلبـه ان يبقى كولمبوس في جميكا ليقضي البقية الباقية من حياته . وهكذا احتفظ بنديز في الداخل لمـــدة سبعة شهور وهو يعلله بالوعود . وأخيراً سمح له في آذار عام ١٥٠٤ ، بالذهاب سيراً على الاقدام الى سانتو دومينغو ليحاول استئجار سفينة . وكان اوفاندو يحتفظ بسفينة او سفينتين في سانتو دومينغو كمحطات فرفض إرسال أي منهما لانقاذ الاميرال الذي لم يكن لديه أية وسيلة لمعرفة ما اذا كان رسله قد وصلوا بسلام او انهم هلكوا . وبعد مضي ستة أشهر وقد اخذت رياح الشتاء الشمالية تهب على السفينتين الجانحتين على الشاطىء جاعلة الحياة عليها عسيرة قاسية ، قامت حول الاخوين بوراس الموظفـين السياسيين ، حركة عصيان وتمرد أخذت تنتشر اشاعات بان هذا النفي كان تدبيراً مقصوداً من كولمبوس للثأر منهما وان ليس في نيته الابحار الى سانتو دومينغو . وهكذا كان الاخوان يقولان للبحارة ان عليهم الانضمام الى صفوفهم اذا كانوا فعلاً يريدون التخلص من هذا الجحيم والعودة الى الوطن ، معلنين بأنهما سوف يستوليان على بعض البنادق ويجبران بعض الهنود على التجذيف نحو اسبانيولا . وكانا يرددان « اتركوا هذا الجنوي الملعون مع اتباعه المفتونين به ليقيموا هنا ويغنوا .

وفي اليوم التالي لعيد رأس السنة عام ١٥٠٤ ، بدأ حوالي ثمـانية واربعين رجلاً ، اي ما يعادل نصف الموجودين ، حركة التمرد وراحوا يجهرون بكلمة السر « الى قشتيلة الى قشتيلة » .. ثم احتشدوا في عشرة قوارب انطلقوا بها على طول الشاطىء شرقاً ، واخذوا يخطفون الهنود حيثما يجدونهم . ومـا كادوا يقطعون حوالي خمسة عشر ميلاً من النقطة الشمالية الشرقية حتى هبت عليهم رياح قوية من الشرق أرغمتهم على التقهقر والقاء جميـع مسروقاتهم ومعظم الهنود الذين كانوا يجذفون لهم ، الى البحر . ثم قاموا بمحاولتين أخريين للعبور فباؤوا بالفشل . وهكذا غادر رجـــال فرقة بوراس قواربهم وعادوا متقهقرين الى سانتاغلوريا للعيش في اطراف الجزيرة .

شعر رجال كولمبوس الاوفيـاء الآن بالجوع الشديد ينهش احشاءهم ، كالم

يبق لدى الهنود سوى مقدار قليـــل من الطعام الزائد و « الرغبة بطلب المواد الاستهلاكية » كالخرز واطراف البريم واجراس الصقور . هذا بالاضافة الى ما ذكره فرديناند من ان الاسباني الواحد كان يستهلك من الطعام كمية تكفي عشرين هندياً تقريباً . وفي هذه اللحظة الحرجة قـام الأميرال بلعبته المشهورة المتعلقة بالخسوف : كان لديــه تقويم يوحي بان القمر سيخسف كليّة في آخر ليلة من شهر شباط عام ١٥٠٤ . وهكذا دعا في ذلك اليوم جميع رؤساء القبـائل المجاورين والزعماء الى ظهر كابيتانا الجانحة واخبرهم ان الله يريد منهم تزويد المسيحيين بالطعام وانه سيعطي اشارة واضحة في السماء ترمز عن مدى سخطه لعدم قيـــامهم بذلك . ونصحهم بان يراقبوا القمر في تلك الليلة ! وفعلاً بدأ الخسوف مع صعود القمر وفيما اخذ الظلام يزداد وينتشر هرول الهنود الى مكان السفينتين يولولون ويندبون ويرجون الأميرال لكي يوقف الغضب .

اعتكف كولمبوس في غرفته طوال مدة الخسوف ولم يظهر إلا بعد ان تأكد من الروزنامة بان الخسوف على وشك الانتهاء وأعلن بانه توسط مع العناية الالهية وتعهد لها باسمهم انهم سيزودون المسيحيين بالطعام الذي يحتاجون اليه وأن الله مقابل ذلك رضي ان يزيل الظل المظلم . ونجحت هذه الخطة تمامـاً ولم يعد هناك أي نقص في الطعام .

وفي نهاية اذار عام ١٥٠٤ كان قد مضى ما يزيد على الثمانية أشهر على إبحـار رسل الزورقين الى اسبانيولا دون ان يعرف أو يسمع شيء عنهـــم . وفجأة دخلت سفينة صغيرة سانتا غلوريا وألقت مرساتها قرب المعسكر الاسبـــاني . وكانت هذه السفينة الصغيرة أول سفينة يراها البحارة منذ سنتين . لقد أرسلها اوفاندو لكي يتأكد مما اذا كان كولمبوس لا يزال على قيد الحياة ثم للعودة بتقرير عما كان يفعله . وكان الحاكم من الخسة بحيث أمر القبطـان ديجو دى اسكوبار بأن لا يعيد معه أحداً . ولكن السفينة حملت معهـــا رسالة مشجعة من منديز تقول انه لا يزال يسعى جهده لاستئجار سفينة للانقاذ . وترك ديجو برميلين من النبيذ وضلع لحم خنزير مملح كهدية بسيطة من اوفاندو ثم عاد ادراجه .

وما كادت هذه السفينة تختفي وراء الأفق حتى تدنت معنويات رجـــال الاميرال الى درجة لم يشعروا بمثلهـــا من قبل ، بينما قام كولمبوس بتقديم بعض المساعدات لرجال الأخوين بوراس العصاة ، علماً منه بانه سيلام في حالة عـــدم رجوع هذين الاخوين العزيزين الى الوطن ! ولكن الاخوين رفضا عروضه ( التي كان من بينها قطعة كبيرة من لحم الخنزير المملح ) أملاً بتحريض رجال الاميرال ليقوموا بالاستيلاء على زوارق السفن . ثم قامـا بالزحف مع رجالهم على سانتا غلوريا . حشد الاخوان كولمبوس جميع الرجال المخلصين لملاقاتهم . وفي التاسع والعشرين من أيار نشبت معركة حامية الوطيس استعملت فيهـــا السيوف نظراً لعدم توفر البارود ، وانتهت بانتصار رجال كولمبوس الأوفيـــاء واستسلام المتمردين . ولكن كولمبوس عفا عن الاخوين بوراس وسمح للباقين بالبقـــاء على الشاطىء تحت الحراسة .

لم تكن النجدة بعيدة المنال ، فقد تدبر ديجو منديز اخيراً استئجار سفينـة صغيرة في سانتو دومينغو وبعث بها الى جميكا بقيادة ديجو دى سلسيدو ، أحـد خدم كولمبوس الاوفياء . وصل ديجو هـذا سانتا غلوريا في أواخر حزيران عام ١٥٠٤ وحمل الجميع على ظهر السفينة وعاد بهم في التاسع والعشرين منـــه الى اسبانيولا . وهكذا قضى الذين ظلوا على قيد الحياة من رجال الرحلة الرابعـــة والبالغ عددهم حوالي المئة رجل من الأقوياء سنة وخمسة أيام في جميـــكا . كانت السفينة الصغيرة في حالة بائسة إذ كان شراعها الأمامي غير ثابت ، واشرعتهـا الاخرى مهلهلة وقعرها معطوباً وكانت ترشح بغزارة حتى خافوا عليهـــا ان تتحطم . وبعد حوالي ستة أسابيع ونصف وصلت الى سانتو دومينغو ! وهناك استأجر كولمبوس سفينة ثانية وأبحر عليها الى اسبانيا في اليوم الثـاني عشر من ايلول مع أخيه، وفرديناند واثنين وعشرين رجلا من أفراد فرقته . أما الاكثرية من الذين بقوا على قيد الحياة فقد فضلوا البقاء في سانتو دومينغو على المجازفـــة برحلة أخرى عبر المحيط . لقد عملوا على المضخات طويلا بحيث لن يحيوا عشر مرات أخرى .

كانت رحلة العودة في السفينة المستأجرة طويلة ومليئة بالانواء، وقفز صاري المقدمة من مكانه وكذلك تحطم الصاري الأمامي الكبير ، ولكن الأخوين كولمبوس استنبطا صارياً خشبياً من الأعواد الاحتياطية . وهكذا لم يتمكنوا من الوصول الى سان لوكار دى بارامیدا إلا في السابع من تشرين الثاني عام ١٥٠٤ أي بعد مسيرة ستة وخمسين يوماً .

وانتهت الرحلة الهائجة بعد قضاء سنتين ونصف السنة في عرض البحر ، بما في ذلك السنة التي انقطعوا فيها في جميكا . وكانت أخطر رحلات كولمبوس الأربع وأكثرها خيبة أمل فلم يكتشف المضيق العتيد ، إذ لم يكن هناك أي مضيق كما لم يكن البرزخ الذي أرسل تقريراً عنه بذات أهمية تذكر للعاهلين وثبت ايضاً ان فيراغوا الغنية بالذهب لم تكن تصلح للاستغلال . ولكنه عمل كل ما في وسعه كما كتب الى ولده ديجو بعد عودته بوقت قصير :

« لقد خدمت سموهما بمقدار عظيم من الكد والحب يساوي ما كنت أبذله في طلب الفردوس ... بل وأكثر ... وإذا قصرت في شيء كان مستحيلا أو فوق طاقتي ووراء حدود معرفتي فان الله تعالى لا يطلب في هذه الحالة من الانسان أكثر من النية الطيبة والمسعى الحميد » .

# الفصل الحادي والعشرون

## الى الوطن ليموت

عند وصول كولمبوس الى إسبانيا بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية ، كان اقل ما يتوقعه أن يدعى الى البلاط ليروي قصته... فقد كانت مثل هذه الدعوة تمنح تقريباً لجميع ربابنة اعالي البحار مهما كانت رحلاتهم تافهة . لكن التقرير الذي بعث به الى الوطن مع ديجو منديز لم يترك انطباعاً حسناً لدى العاهلين . فقد كانت هذه « الرسالة النادرة » كما تدعى الآن مشوشة وغير منسقة ... فهي تحتوي على بعض المعلومات الشيقة عما كان سيؤول اليه البر الاسباني الأميركي .. مع الكثير من المبررات الشخصية والبراهين غير المقنعة من انه كان يسير بمحاذاة شبه جزيرة الملايو أو بمكان آخر في الشرق الاقصى .. وفي الوقت الذي وصل فيه الأميرال الى اشبيلية في الثامن او التاسع من تشرين الثاني عام ١٥٠٤ كان البلاط الملكي يقيم في « سيغوفيا » وكانت الملكة تلازم فراشها بسبب مرض ظهر انه كان آخر أمراضها . وكان هو العذر الذي قدم لتبرير عدم دعوة الاميرال إلى البلاط . لكنه لم يكن عذراً مقنعاً اذ ان ايزابيلا ، حتى وهي في الرمق الاخير ، ظلت محاطة بحاشية باكية من افراد البلاط . وكان من الممكن أن تبعث الصحاف و « النسور » الذهبية الفاخرة التي أتى بها كولمبوس من فيراغوا في الملكة ، قليلاً من المرح الذي كانت بحاجة قصوى اليه . ومن المحتمل ان يكون الملك فرديناند ، وقد بلغ بعودة الاميرال المزعج الى الوطن ، بعد ان

ظن الجميع انه فقد ، قد اصدر اوامره بوجوب عدم دعوته الى القصر وازعاجه بقصة محزنة اخرى .

وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٥٠٤ فاضت روح ايزابيلا الكاثوليكية في مدينة « دل كامبو » فحزن كولمبوس وخسر كثيراً بموتها .. فهي لم تكن تهزأ منه قط ... بل فهمت ما كان يحاول ان يحققه ... كما احترمت حقوقه وحمته من الحساد والمستخفين به . اما الملك فكان دائماً يعتبر الأميرال رجلاً ثقيل الظل ملحاحاً . مع انه آزره ليرضي الملكة فقط . اذ لم يكن يهتم كثيراً بالعالم الجديد بل حصر اهتمامه في الحروب والسياسة الاوروبية ... وربما كان من اللياقة ان يحضر كولمبوس المأتم الملكي إلا ان داء المفاصل كان قد دب فيه واقعده عن السفر ... والحقيقة انه لم تكن هناك اية فائدة ترجى من قيامه بتلك الرحلة المضنية فقد كان فرديناند راضياً عن اعمال اوفاندو في اسبانيولا كما كان للاميرال سند امين في البلاط في شخص ابنه دون ديجو الذي بلغ الرابعة والعشرين من عمره الآن وصار عضواً في الحرس الملكي ... أما الابن الاصغر فرديناند فقد عاد الى عمله كوصيف ومنح رواتبه المتراكمة عن الرحلة الرابعة التي اشترك فيها وكان يردد قصة مغامراته العجيبة ... لكننا نعتقد ان الحاشية لم تكن لتهتم كثيراً بالعواصف او المعارك مع الهنود ! وكصبي في السادسة عشرة من عمره شاهد العالم الجديد ، لم يكن وجوده في البلاط ملائماً ...

كان كولمبوس يعيش آنذاك في بيت استأجره في أبرشية « سانتا ماريا » في أشبيلية . ولم يكن يعاني أي ضيق فيما يتعلق بالحاجات الدنيوية ... فحصته من الذهب الذي ناله في الرحلة الرابعة كانت ضخمة كما جلب له كرفجال مبلغاً قيماً في السفينة « أكوجا » التي خرجت سليمة من اعصار عام ١٥٠٢ ولدينا ما يثبت بيعه قسماً من الذهب الى الصاغة بقيمة ٦٦٠ جنيهاً او ١٦٥ « نسراً » مزدوجاً ... هذا بالاضافة الى ان اوفاندو سلمه عام ١٥٠٤ في «سانتو دومينغو» صندوقاً من الذهب عاد به الى الوطن ، كما طالب هو بحوالي ١٨٠،٠٠٠ دولار في اسبانيولا وهي تحمل اسمه . غير ان كولمبوس ظل يشعر بالغبن وأخذ يلح على

ابنه لكي ينال تثبيت ما دعاه ب « اعشاره » و « اثلاثه » . فالعشر كان عشرة بالمئة من صافي صادرات كافة الاراضي التي اكتشفها والمضمونة بالعقد الاصلي لعام ١٤٩٢ ... وكان كولمبوس يشكو من ان الحكومة أعطته عشراً من خمسها من الذهب فقط ، أي اثنين بدلاً من عشرة بالمئة ... اما « الثمن » المضمون كذلك بذات العقد فهو الارباح المتأتية من حقه باستثمار ثمن حمولة أية سفينة تتاجر مع « جزر الهند » . ولقد مارس هذا الحق في بعض الشحنات ... لكنه ادعى ان بوباديللا واوفاندو حجزا حصته وامتنعا عن الدفع ... أما « الثلث » فكان حقيقة مطلباً غريباً ! فقد جاء في البراءة التي منح بموجبها لقب اميرال البحر المحيط ، انها تمنحه أيضاً « أفضليات — و... امتيازات من نفس طراز حقوق وامتيازات أميرال قشتيلة الأعظم » ... أي انها تؤكد ان الأميرال الأعظم جمع ١/٢ ٣٣ ٪ ضريبة على التجارة عبر البحار الواقعة تحت سلطته — ما بين اسبانيا وجزر الكناري — ... وقد ادعى كولمبوس ان هذه المبالغ من حقه الذي يشمل كل التجارة الداخلة والخارجة من وإلى جزر الهند . ومن الواضح انه لو اعترف له بذلك الحق لما بقي من ارباح التجارة الأميركية لأحد سواه إلا القليل ، ولأصبح هو وأحفاده أغنى من ملك اسبانيا أو أي أمير آخر . والواقع ان كولمبوس كان يعتبر ، حتى من مجرد تحصيل ٢ ٪ من الذهب رجلاً غنياً بالنسبة الى مقاييس ذلك الوقت . كما خلف وراءه كميات وفيرة لأبنائه ...

عادوا برفقته أو على ظهر سفينة بوراس... والذين استحق لهم الآن أجور عامين كاملين ، وكان معظمهم من الفقراء الذين لا يملكون غير رواتبهم مصدراً للعيش . وقد رجا الاميرال خازن قشتيلة ثلاث مرات لكي يصرف لهم أجورهم ولكن دون جدوى ! فمنح الكثيرين من بحارته المخلصين وظائف حول داره . ثم انهم أرسلوا وفداً الى البلاط مع رسائل من الاميرال الى ولده والى رجال آخرين من ذوي النفوذ لكي ينالوا رواتبهم المتخلفة ... لكن سنين مضت قبل وكان يبدي اهتماماً كثيراً بتحصيل رواتب واجور البحارة والضباط الذين

ان يقبضوا شيئاً .

وفي اوائل عـام ١٥٠٥ استنتج كولمبوس ان من العبث ان يترقب من الملك إعادته الىاسبانيولا كنائب عنه وحاكم عام . والواقع ان حالته الصحية وتقدمه في السن – وكان في الثالثة والخمسين – جعلا أية رحلة أخرى عـبر الاطلسي مجازفة كبرى ومنذ ذلك الحين أخذ يحاول اقنـاع الملك بمنح رتبة نائب الملك لابنـه ديجو الذي كان قد بلغ الخامسة والعشرين آنذاك ، ولم يكن يملك أية خبرة خارج البلاط ، لكنه كان نديماً ذكياً نجح بالتقرب من الملك بزواجـه من السيدة دونا ماريا الطليطلية والتي تجري في عروقها الدماء الزرقاء!... وبعد وفاة كولمبوس بثلاث سنوات عـين دون ديجو حاكما لاسبانيولا وورث القاب والده جميعها ...

وفي الربيع أحس كولمبوس انه بصحـة تمكنه من السفر بشرط ان يركب بغلاً فقد كانت هرولة الحصان ترهقه ولا يستطيع احتمالها . وحدث ان الحكومة الاسبانية كانت قد منعت استخدام البغال للركوب رضوخاً لمطالب مربيالخيول الأندلسيين مما اضطر الاميرال لتقديم عريضة الى الملك يطلب فيهـا أذناً خاصاً لاستخدام بغل . فمنحه الملك ذلك ... وكان هذا هو الاعتبار الوحيـد الذي اظهره لكولمبوس .. بدأ الاميرال رحلته الطويلة الى البلاط الذي كان آنذاك في « سيغوفيا » شمالي مدريد في شهر أيار عام ١٥٠٥ .

وهناك ، استقبله الملك بجفاوة واقترح تعيين حكم لتسوية دعاواه ضـد العرش ... فرفض كولمبوس لأن الملك أصر على ان يشمل التحكيم رتبته كنائب للملك وأميرال الى جانب مطالبه المالية . لقد كان كولمبوس أكـثر تمسكاً بكبريائه من أن يسمح بالتحكيم في أي شيء يملك فيه لقباً شرعياً صريحـاً . عندها لمح الملك الى انه مستعد لمنحه اقطاعية لائقة مع جرايـة ايجار باهظ إذا هو رضي بالتنازل عن كل ألقابه ووظائفه الرسمية مع جميع عائداتها . الا ان كولمبوس رفض ذلك رفضاً باتاً واعتبره عرضاً مشيناً وغير مشرف وأصر على الحصول على كل شيء او لا شيء مطلقاً !... وهكذا لم يحصل على شيء ....

ولما انتقل البلاط الى « سلمنكا » ثم الى « بلد الوليد » تبعـه كولمبوس على مضض ... ومضت سنة ولم يحصل شيء بينما ازداد داء مفاصله سوءاً ... فكان يقضي معظم وقته ملتزماً فراشه في بيت بالايجار . ومع هذا كان يحس احساساً أكيداً ان العدالة ستأخذ مجراها حتى أنه خصص في وصيتـه الأخيرة مبالغ متفاوتة من موارده الشرعية لجهات متنوعة كتخصيصه صندوق توفير لتمويـل حملة صليبية ، ومبلغاً لبناء بيت في جنوى يظل مفتوحاً لخلفه دائماً ... ووقف مالاً على كنيسة في اسبانيولا تقام فيها الصلوات اليومية من أجل روحـه الى الأبد ... فكأنه كان يحس في بساطته ان هذه التركات الصالحة ستسترعي انتباه الله تعالى فيأخذ على عاتقه مهمة الهام الملك بتطبيقها ووضعها موضع التنفيذ .

انتعشت أماني كولمبوس في آخر لحظة من حياته تقريباً بوصول انغنتا جوانا الى اسبانيا لتطالب بعرش والدتها في قشتيلة ... فقد كانت في البلاط عندمـا عاد كولمبوس أول مرة من جزر الهند ... فآمل ان تثبت الامتيازات التي منحته اياها امهـا الطيبة .. ولما كانت وطأة المرض عليه تمنعه من الحركة أرسل الأخ بارثولميو ليقبل يد العاهلة الصغيرة ويطلب رعايتها ...

وبينما كان بارثولميو غائباً في مهمته هذه بدأ الاميرال بالانهيار . وفي التاسع عشر من ايار عام ١٥٠٦ صدق على وصيته النهـائية جاعلاً دون ديجو وريثه الرئيسي وأوصاه بان يشمل برعايته كل أقاربه بما فيهم عشيقته السابقة بياتريز .

وفي اليوم التالي ساءت حالته ... وتجمع حول فراشه كل من ولديه ، واخيه الاصغر ديجو وعدد من رفاقـه المخلصين كان منهم ديجو منديز وبارثولميو فيشي ثم جيء بقسيس لتلاوة القداس كما تنـاول القربان كل فرد من تلك الحلقة الوفية من الأقارب والرفاق والخدم . وبعد الصلاة الختـامية تمتم الاميرال وقد مرت بذهنه الكلمات الاخيرة للسيد المخلص ، قائلاً : « يا الهي اني أضـع نفسي بين يديك » .

لقد كان فراش موت حقـير بالنسبة لاميرال البحر المحيط ، ونائب الملك وحاكم الجزر واليابسة في جزر الهند ... وسارت الجنازة بموكب زري لم يشترك

فيه أحد من البطاركة او الشخصيات العظيمة كما ان السجل الرسمي للبلاط لم يذكر شيئاً عن الموت او المأتم ...

وكان من سوء حظ كولمبوس ان يموت في وقت كان تقدير اكتشافاته فيه ما يزال ضئيلاً ، في وقت وصلت فيه ثروته الخاصة وآماله العراض الى الحضيض .

وبينما كانت حياته تدخل التاريخ وتتلاشى معها ادعاءات الآخرين بانهم المكتشفون الحقيقيون لأميركا كان التقدير لما حققه كولمبوس يزداد وينمو شيئاً فشيئاً .

ومع ذلك فان من مهازل التاريخ أن يموت الاميرال وهو جاهل لحقيقة ما قام به وما أنجزه وان يظل مصراً على انه اكتشف عدداً كبيراً من الجزر ، ومقاطعة في الصين « وعالماً آخر » دون ان يدري شيئاً عن مدى إتساع ذلك « العالم الآخر » او عن المحيط الذي يفصله عن آسيا ...

والآن — بعد اكثر من خمسمائة سنة من مولده — وبعد ان أصبح كافة الاميركيين يحتفلون بيوم اكتشاف كولمبوس أول جزيرة في العالم الجديد — أصبحت شهرته ثابتة الجذور متينة على مر العصور وفي كل الازمان ...

لقد كانت له اخطاؤه وعيوبه ، ولكنها كانت عيوب الصفات نفسها التي جعلته عظيماً ألا وهي إرادته التي لا تقهر ، وايمانه الفائق بالله ، وكذلك مثابرته العنيدة رغم الاهمال والفقر وتثبيط الهمة ...

ولم يكن هنالك أي عيب او جانب قاتم لأعظم ميزاته — الا وهي مهارته البحرية — فقد كان كولمبوس كملاح وربان متفوقاً في عصره فلم يسبق ان منح أحد لقباً استحقه بجدارة كاملة كاللقب الذي ناله كولمبوس وحافظ عليه بغيرة وحماس — أميرال البحر والمحيط !.

# فهرس عام

ملاحظة : روعيت أل التعريف في ترتيب هذا الفهرس ولم تهمل، ورتبت الاعلام بحسب الاسم الاول

## ( أ )

## (ب)

## ( ت )



## ( ث )



## ( ج )

## ( ح )



## ( خ )

## (د)

## ( ر )



## ( س )

## ( ش )



## ( ص )



## ( ط )

## ( ع )



## ( غ )



## ( ف )

## ( ق )

## ( ك )

## ( ل )



## ( م )

(ن)



(هـ)

## ( و )



## ( ي )

# فهرس المحتويات

صمم الغلاف

الفنان : **اسماعيل شموط**